A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

808.1
D27 A
V.1
ت

الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية

١ - في المدينة

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

أستاذ الأدب العربي المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

Cat. Feb. 1950

69026

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الطبعة الأولى

(حقوق الطبع محفوظة)

مطبعة الاعتماد بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من يقرأ فى الشعر العربى وينظر فى نصوصه ونماذجه الكثيرة يجد صورتين متقابلتين منذ العصر الجاهلى : صورة تقليدية تعتمد على رسوم وتقاليد كثيرة ، وصورة غنائية تعتمد على العزف والضرب على الآلات الموسيقية.

وتتخالف الصورتان فى كثير من الجوانب ، فالصورة الأولى صورة معقدة ، ولعل خير ما يمثلها مطولات الشعر العربى فى المديح والهجاء وما يتصل بهما ، حيث نجد الشعراء يبالغون فى صنع نماذجهم مبالغة أفضت بزهير فى الجاهلية إلى أن يصنع المطولة من مطولاته فى حَول كامل ، كما يقول الرواة ، ومن أجل ذلك كانت تسمى مطولاته باسم الحوليات .

وقد اتخذت هذه المطولات على مر العصور صورة موروثة ، إذ نجد الشعراء يبدأون فيها بوصف الأطلال وبكاء الدِّمن ، ثم ينتقلون إلى وصف رحلاتهم فى الصحراء ، وحينئذ يصفون إبلهم التى

كانوا يجدون فيها جمالا ، حين يريحون وحين يسرحون ، وراهم أثناء ذلك يصفون مشاهد الصحراء وحيوانها . وما يزالون فى هذه المقدمات حتى يخرجوا إلى الموضوع الذى ألفوا من أجله مطولاتهم من مديح أو هجاء أو غيرهما . وقد حافظ العرب دائما على هذه الصورة فى شعرهم التقليدى من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث .

وكان يقابل هذه الصورة من الشعر العربى صورة أخرى لم تكن مطولات ، إنما كانت فى أكثرها مقطوعات ، ولم تكن تدور حول المديح والهجاء ، وإنما كانت تدور غالبا حول الحب ووقائعه ، ولم تكن تقال لتنشد ، وإنما كانت تقال لتغنى وتصحب بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية . ولعل خير اسم يمكن أن نطلقه على هذه الصورة هو اسم الشعر الغنائى .

وقد يحدث هذا الاصطلاح اضطرابا ، فإن بعض نقادنا المحدثين نقلوا إلينا تقسيم الغربيين شعرهم إلى قصصى وغنائى وتمثيلى ، ووضعوا الشعر العربى كله فى حيز الشعر الغنائى . ونحن لا ننكر هذا الصنيع من حيث هو ، فالشعر العربى تكوّن فى ظروف غنائية ، وهو يصور شخصية صاحبه تمثيلا قويا ، ولهذا لا بأس من أن ندخله فى دوائر الشعر الغنائى الغربى .

غير أن من يعنى بدرس الشعر العربى يلاحظ أنه أخذت تستقل منه صورة منذ العصر الجاهلى وتتطور تطورا منفصلا بعيدا عن الغناء إلا قليلا . لم تكن هذه الصورة تعتمد على الغناء ، وأيضا فإنها لم تكن

تصور شخصيات أصحابها تصويرا دقيقا ، ولذلك كان يحسن أن نميزها باسم خاص ، ولا بأس من أن نصطلح على تسميتها باسم الشعر التقليدى ، بينما نبقى اصطلاح الشعر الغنائى دالا على الشعر الذى كان يُغَنَّى فعلا من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث .

وهاتان الصورتان للشعر العربى استمرتا تتقابلان فى عصوره المختلفة ، وكانت الصورة الغنائية أكثر من أختها التقليدية قابلية للتطور والتحول ، بحكم اتصالها بالغناء والموسيقى ولغة الناس الشعبية ، مما أحدث أخيرا فى أقصى الغرب الموشحات والأزجال على ما هو معروف . وقبل هذه الأزجال والموشحات كانت تحدث تطورات واسعة فى هذه الصورة الغنائية للشعر العربى ، لا منذ العصر العباسى بل منذ العصر الأموى ، إذ نهض الحجاز بالغناء نهضة كبيرة أثرت تأثيرا عنيفا فى الشعر الغنائى هناك . وهو تأثير امتد إلى كل شىء فيه ، امتد إلى لغته ، إذ نرى الشعراء يتخذونها غالبا من لغة الناس المألوفة لأنهم يريدون أن يكونوا قريبين منهم ، وامتد إلى موسيقاه ، إذ نرى الشعراء يكثرون فيها من الزحافات والعلل ، حتى يلائموا بين شعرهم وتقصيرات المغنين والمغنيات وتمديداتهم . وأيضا فإنهم أخذوا يجزّئون ويعدّلون فى صورة أوزانهم ، حتى تحمل كل مايريد المغنون من أصوات وغناء .

وعلى هذا النحو أخذت الصورة الغنائية للشعر العربى تختلف من الصورة التقليدية التى كان أصحابها يعنون بالجزالة فى لغتها والإغراب

أحيانا ، وأيضا فإنهم كانوا يختارون لها الأوزان الطويلة المعقدة ولم يخرجوا إلى الأوزان الخفيفة السهلة إلا فى القليل النادر .

وقد أخذت تتسع مع مر الزمن الفروق بين الصورتين الغنائية والتقليدية ، سواء فى اللغة أو فى الموسيقى ، بحيث لا نصل إلى العصر العباسى حتى نجد تحريف الشعراء الغنائيين لموسيقى الشعر القديمة ينتهى بهم إلى أن يستحدثوا أوزانا جديدة من مثل المقتضب والمضارع والمتدارك . ولم يحرف العباسون فقط فى الشعر الغنائى وأوزانه ، بل حرفوا ، إلى حد ما ، فى لغته إذ كانوا — مثل الحجازيين — يميلون إلى استخدام اللغة المألوفة .

وقد تكاملت هذه التغيرات والتطورات فى الصورة الغنائية للشعر العربى أخيرا فى أقصى الغرب ، فى الأندلس ، سواء من حيث اللغة ، أو من حيث الموسيقى ، مما انتهى بها إلى الموشحات والأزجال هناك على ما هو شائع مشهور .

ولعلى لا أغلو إذا قلت إننا فى حاجة إلى من يدرس الصورة الغنائية للشعر العربى من العصر الأموى إلى العصر الأندلسى ، فإن الباحثين لم يلموا بها إلا قليلا .

وقد فكرت طويلا فى المنهج الذى أدرس به هذه الصورة ، وخاصة أنها مرت بأحقاب متطاولة ، ورسمت خطوطها وألوانها أقاليم مختلفة . ولم ألبث أن رأيت من الواجب أن أخضع للتسلسل الزمنى ، فأدرس أولا إقليم الحجاز الذى عنى أثناء العصر الأموى بهذه الصورة

الغنائية عناية واسعة . ونظرت ، فإذا بلدتان هناك تتنافسان تنافسا شديدا فى إحداث هذه الصورة والتطور بها تحت تأثير الغناء .

وقد أخذت أتتبع أولا فن الغناء الذى كان له فضل التطور بالصورة الغنائية للشعر حينئذ ، فإذا المدينة هى التى برزت فيه ، وإذا هى التى وضعت نظرية الغناء العربى التى نقرأ مصطلحاتها فى كتاب الأغانى ، حينئذ رأيت أن أؤخر مكة حتى أتعرف على المدينة وعلى ما كان بها من نشاط فى الغناء والشعر الغنائى .

وإنى لأعترف بأن نصوصا كثيرة صادفتنى وفسرت لى كل ما كنت أنشده فى هذه الدراسة . والله أسأل أن يرزقنى السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

شوقى ضيف

القاهرة فى أول مارس سنة ١٩٤٩

الفصل الأول

المدينة

١

موقع المدينة

تقع المدينة فى إقليم الحجاز الذى يمتد بين أيلة (العقبة) واليمن، ويفصل بين مباسط تهامة ومشارف نجد. ويتميز الحجاز بكثرة ما يتخلله من جبال ومرتفعات، ووديان ومنخفضات. وإن من يرجع إلى مُخَطَّط المدينة يجد فى شماليها جبل أُحُد وجبل ثَوْر، وفى جنوبيها جبل عَيْر، بينما يحفها من الشرق والغرب مرتفعان يتألفان من حجارة سود نخرة، وهما حرّتا واقِم والوَبْرَة.

وداخل هذا السياج من الجبال والحرّات تقوم المدينة اليوم، فهى فى منخفض، تكتنفه مرتفعات، يعلو بعضها بعضاً. وفى هذا المنخفض تكثر الوديان، وتكثر الآبار والعيون، لوفرة ما يهطل فيه من أمطار أثناء الشتاء والربيع. وأهم الوديان هناك بُطْحان ورانوناء ومَهْزور ومُذَيْنِب فى الجنوب بين المدينة وعَيْر، وقناة فى الشمال بين المدينة وأحد، والعَقيق فى الغرب وراء حرّة الوبرة. وتكتظ هذه الوديان

بالعيون والآبار ، وأشهرها عين الأزرق وبئر أريس فى وادى رانونا. وبئر عـرْوة وبئر رُومَة فى وادى العقيق [١] .

وتنبت حول هذه العيون والآبار ، جنات النخيل والأشجار ، فتملأ البصر بهجة ورواء ، بهذه المشاهد الأنيقة وسط بحار الرمل ، التى تموج بها صحراء العرب . ومن ثم كانت المدينة تبدو داخل الجزيرة العربية ، كأنها واحة بديعة ، أو قل إنها ابتسامة الطبيعة ، تبدو على محيًّا عابس ، هو محيا الصحراء الهامدة .

وقد جعلت هذه المياه والخضرة ، أو قل هـذه العيون والجنات جوّ المدينة محتملا ، فهى على الرغم من وقوعها على خط العرض ٢٥ ، وهو نفس الخط الذى يمر بمدينة الأقصر ، طيبة مصر الفرعونية ، تمتاز بجو ملطّف ، وهو جو يَزْخَـر بظلال النخيل والأشجار . وربما كان من أهم أسباب اعتدال جوها فى الجملة أنها تعلو سطح البحر بنحو ستمائة متر . وهـذا كله يجعل جوها مقبولا ، وخاصة فى فصلى الشتاء والربيع ، إذ تسقط الأمطار ، أما فى فصل الصيف فإن الحرارة تشتد اشتداداً قد يعرّض المدينة لنموّ بعض الحميات ، وقد مرض بها جماعة من المهاجرين أول هجرتهم إليها ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق [٢] .

---

(١) انظر فى وديان المدينة وآبارها وعيونها كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، للسمهودى ، طبع مطبعة المؤيد ١١٩/٢ ومابعدها ، وكذلك ١٨٦/٢ ومابعدها ، وانظر فتوح البلدان للبلاذرى طبع ليدن ص ١٤ وما بعدها .

(٢) سيرة ابن هشام طبع الحلبى ٢٣٨/٢ .

وأجمل بقاع المدينة وادى العقيق ، وقد كان متنزه أهل المدينة فى العصور الإسلامية ، وخاصة حين تنزل السيول والأمطار ، وتتجمع فيه على شكل بركة كبيرة [١] . وقد اشتهر العقيق بجاواته الثلاث : جَمَّاء تُضارع ، وجماء أم خالد ، وجماء عاقل . والجماء مرتفع صخرى بارز ، تسيل منه مياه الأمطار فى منظر بهيج . وفى شمالى العقيق نجد العرصة الكبرى والعرصة الصغرى ، وهما من أفضل بقاعه ، وأكرم أصقاعه [٢] .

وكلمة المدينة فى العربية معناها البلدة ، وقد اختصت بيثرب بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها ، ولذلك تضاف إليه ، فيقال مدينة الرسول . ويميز اللغويون فى النسبة بينها وبين المدن الأخرى فيقال فى النسبة إليها «مدنى» وإلى غيرها «مدينى» . وقد سميت أسماء مختلفة حتى قيل إن لها عشرة أسماء [٣] ، وأوصل السمهودى أسماءها إلى نحو تسعين إسما [٤] . وربما جاءت كثرة هذه الأسماء من أنها كانت مقسمة فى العصر الجاهلى بين عشائر من اليهود والأوس والخزرج ، فكانت بعض هذه العشائر تختار لموضعها إسما ، ثم جاء علماء المسلمين فى العصور المتأخرة ، فجمعوا بين كل هذه الأسماء ، وأضافوا إليها كل الأوصاف التى وصفها بها

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٢/٣٢ . وفى الأجزاء التسعة الأولى تراجع دائما طبعة دار الكتب ، وفى الأجزاء الأخرى تراجع طبعة بولاق .

(٢) انظر كلمة عرصة فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه طبع ليدن ص ٢٣ .

(٤) وفاء الوفا للسمهودى ١/٧ وما بعدها .

النبي صلى الله عليه وسلم . واسمها الذى عرفت به فى العصر الجاهلى يثرب وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم[١] وفى السيرة النبوية فى شعر حسان بن ثابت[٢] وكعب بن مالك[٣] .

والمدينة — كما رأينا — بلد زروع ونخيل ، ومن هنا كان سكانها من أهل المَدَر لا من أهل الوَبَر ، فهم لا يعتمدون فى حياتهم مثل البدو على رعى الأغنام ، وإنما يعتمدون على زرع الأرض ، وهم لا يتخذون بيوتهم من الأصواف والأوبار ، وإنما يتخذونها من الآطام والحصون ، التى أقاموها على المرتفعات ، لتحميهم هجمات البدو وغزواتهم . ولم تكن المدينة فى الجاهلية تحاط بسور ، وقصة حفر الخندق حولها ، حين تجمعت قريش والعرب لقتال النبى ، معروفة .

٢

المدينة فى العصر الجاهلى

تاريخ المدينة فى العصر الجاهلى يحوطه كثير من الغموض ، وهو فى أكثره يعتمد على الأسطورة ، وخاصة ما تعمق منه فى القدم ، وحتى اليهود حيانهم فى المدينة لا نكاد نعرف عنها شيئاً واضحاً ، إلا ظنوناً . وتزعم المصادر العربية أن أول من سكن المدينة العالقة ،

---

(١) انظر سورة الأحزاب آية ١٣ .
(٢) ابن هشام ٣/٢٨١ .
(٣) ابن هشام ٣/١٥١ .

وكانوا أهل عزّ وبغي شديد ، وهم أول من اتخذ فيها النخيل والزروع[١] وما زالوا بها حتى وفد عليهم اليهود فى القرن الأول للميلاد ، أو بعده بقليل ، على أثر اضطهاد الرومان لدولتهم فى فلسطين[٢] ، فنزحوا حينئذ ، وكان على رأسهم بنو قُرَيْظَة وبنو النَّضِير وبنو بَهْدَل. ويعين صاحب الأغانى الأماكن التى نزلوا فيها، فيقول إن بنى قريظة وبنى بهدل نزلوا على وادى مهزور، بينما نزل بنو النضير على وادى بُطْحَان[٣] ، أو بعبارة أدق على وادى مذينب المتفرع من وادى بطحان . وقد ساق أبو الفرج ثبتا طريفاً بأسماء القبائل اليهودية فى المدينة ، وذكر منها بجانب القبائل السابقة بنى قَيْنُقاع[٤] ، وكانوا ينزلون فى الشمال الغربى من المدينة ، بجوار سوق يسمى باسمهم[٥] .

والمعروف أن هذه القبائل كانت يهودية خالصه ، وإن كنا نجد بين مؤرخى العرب من ينكر يهوديتها ، فاليعقوبى يزعم أن بنى النضير فخذ من جُذام ، وكذلك يزعم فى بنى قُرَيْظة[٦] . ويظهر أن هذا زعم باطل ، فالقرآن الكريم يؤكد أنهم يهود ، ويخاطبهم فى مواطن

---

(١) أغانى طبع بولاق ١٩/٩٦ والسمهودى ١/١١٠ .

(٢) انظر هنا تاريخ اليهود فى بلاد العرب لإسرائيل ولفنسون ص ٩ ، وكذلك :
Margoliouth, The Relation between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam (London 1924) pp. 50 — 51

(٣) أغانى ١٩/٩٥ .

(٤) نفس المصدر ١٩/٩٥ ، وانظر طبعة دار الكتب ٣/١١٦ .

(٥) انظر الأغانى ٣/١٩ .

(٦) تاريخ اليعقوبى طبع ليدن ٢/٤٩ .

متفرقة ببنى إسرائيل . هم يهود إذن لكنهم يهود تعربوا ، فقد توزعوا — على عادة العرب — قبائل ، وتسمَّوا بأسماء العرب ، وشاركوا فى الحياة العربية بجميع تقاليدها . ومن الغريب أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، فكأنهم نزعوا تماماً عن حياتهم المتحضرة القديمة فى فلسطين ، وتشبهوا بالعرب حتى فى إهمالهم للكتابة وعدم العناية بها . ومن مظاهر تعربهم الواضحة اتخاذهم العربية لساناً لهم ، وقد نظموا بها شعراً ، عبروا به عن عواطفهم ، فكان من شعرائهم فى الجاهلية الربيع بن أبى الحقيق ، وهو من بنى قريظة ، وقد عقد له أبو الفرج فصلا فى أغانيه ، وروى عن النابغة أنه قال له أنت أشعر الناس [١] . وأكبر الظن أنه كان بالمدينة شعراء آخرون من اليهود ، ولكن علماء المسلمين المتأخرين لم يعنوا بهم [٢] ، وربما كان ذلك يرجع إلى أسباب دينية . وقد كان من شعرائهم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كعب بن الأشرف [٣] وأوس بن دنى [٤]

كان اليهود على دين آبائهم ، ويظهر أنهم كانوا يحتفظون بالعبرية فى طقوسهم ومراسيمهم الدينية ، ولعل مما يؤكد ذلك ما يرويه البلاذرى من أن النبى أمر زيد بن ثابت بتعلم العبرية منهم [٥] ، وهناك رواية يذهب إلى أنه أمره بتعلم السريانية عليهم . وقد يكون فى الروايتين ما يدل على أنهم كانوا يحسنون اللغتين جميعاً ، أو قل كانوا يعرفونهما جميعاً ،

---

(١) أغانى ٢١/٩١ .

(٢) انظر فى شعراء اليهود كتاب مارجوليوث السابق ص ٧٤ .

(٣) أغانى ١٩/١٠٦ .

(٤) نفس المصدر ١٩/٩٧ . (٥) البلاذرى ص ٤٧٤ .

وكانوا يعيشون على الزرع والحرث [١] واحترفت طائفة منهم صناعة الأسلحة [٢]، كما احترف بعض نسائهم نسج الأقمشة [٣]. وتتحد المصادر العربية فى القول بأن اليهود ظلوا مسيطرين على المدينة، حتى نزحت إليهم من اليمن بعد سيل العَرِم قبائل الأوس والخزرج، وكان ذلك فى القرن الخامس للميلاد [٤]. وعاشت هذه القبائل بجانب اليهود، وكانوا أول حياتهم معهم فى ضنك وضيق، إذ لم يكونوا أصحاب إبل وشاء، لأن المدينة ليست بلاد أنعام، ولم يكونوا أصحاب نخيل وزروع، لأنها كانت فى أيدى اليهود [٥]. وهناك بيت يَرْويه ابن خرداذبة، وهو يدل على أنهم كانوا يؤدون لليهود نوعا من الضرائب، إذ جاء على لسان بعض شعرائهم:

نؤدّى الخَرْجَ بعد خراج كسرى وخَرْج بنى قُرَيْظة والنضيرِ [٦]

ويدل البيت — إن صح — على أنهم كانوا يؤدون للفرس نوعا آخر من الضرائب. وتستمر المصادر العربية، فتزعم أن الأوس والخزرج استمروا فى هذا الضيق، حتى استعانوا على اليهود بأبى جبيلة ملك الغساسنة [٧]. وفى رواية ثانية أنهم استعانوا بأبى كرب تبع بن حسان

---

(١) السمهودى ١/١١٣ وما بعدها. (٢) المغازى للواقدى ص ٢٧٢.
(٣) البلاذرى ص ٦٠.
(٤) Nicholson, A Lit. Hist. of Arabs, p. 16.
(٥) أغانى ١٩/٩٦.
(٦) المسالك والممالك لابن خرداذبة طبع ليدن ص ١٢٨.
(٧) أغانى ١٩/٩٦.

ملك اليمن [١] . ونجد فى الأغانى شعراً يؤكد الرواية الأولى [٢] وشعراً آخر يؤكد الرواية الثانية [٣]. على كل حال استعان الأوس والخزرج على اليهود بجيش يمنى ، إما من يمن الجنوب ، وإما من يمن الشمال ، من الغساسنة . وغزا هذا الجيش يهود يثرب، وأذال منهم للأوس والخزرج، فأصبحوا هم السادة ، وأصبحوا أصحاب الشأن الأول فى المدينة .

وقد عين السمهودى الأماكن التى نزلت فيها الأوس والخزرج ، أما الخزرج وخاصة بنى النجار فكانوا ينزلون داخل المدينة ، وقد انتشرت جماعات منهم فى الشرق والشمال الشرقى منها ، أما الأوس فكانوا ينزلون فى الجنوب والجنوب الشرقى من المدينة [٤] ، فكانوا أكثر قرباً واختلاطا ببنى قريظة والنضير ، بينما كان الخزرج أكثر قربا واختلاطا ببنى قَيْنُقَاع الذين كانوا ينزلون فى المدينة نفسها .

وكان الخزرج والأوس جميعا وثنيين ، وكانوا يعبدون اللات ومناة ، ولسنا نعرف شيئا واضحا بعد ذلك عن عبادتهم ، وإن كنا نجد بعض شعرائهم يذكرون الله فى شعرهم [٥] . ويبدو أن النصرانية كانت معروفة فى يثرب ، ففى السيرة أن شخصا يسمى عبد عمرو بن صَيْفى خرج على النبى صلى الله عليه وسلم وحارب فى صفوف قريش ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح [٦] .

---

(١) أغانى ١١٩/١٣ وما بعدها . (٢) أغانى ٩٦/١٩ .
(٣) أغانى ١٢١/١٣ . (٤) السمهودى ١٣٤/١ وما بعدها .
(٥) كما فى شعر أبى قيس بن الأسلت انظر أغانى طبع دار الكتب ١٤/٣ وشعر قيس ابن الخطيم ، انظر نفس المصدر ٢٣/٣ . (٦) ابن هشام ٢٣٤/٢ .

ويظهر أن عدوى الحرب بين القبائل العربية المتبدِّية انتقلت إلى المدينة أواخر العصر الجاهلى ، ولكن لا بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة ثانية ، وإنما بين الأوس والخزرج أنفسهما ، وأكبر الظن أن اليهود لما شعروا ألا قِبَل لهم بهاتين القبيلتين الكبيرتين ، أشعلوا نيران العداوة والبغضاء بينهما ، وقد كانوا يمدونهما بالأسلحة التى يستخدمانها فى حروبهما إذ كانت تحترف منهم طائفة صنع الأسلحة كما مر آنفاً .

وهكذا دارت رحى الحرب فى المدينة أواخر العصر الجاهلى بين الأوس والخزرج ، وأخذت هذه الرحى تعركهم بثِفَالها عَرْكا عنيفاً ، بحيث يظن الإنسان أنه لم يعد من الممكن أن ينعم السلم فى المدينة ، فدائما حرب ، ودائما رماح مشروعة ، وسيوف مسلولة ، ودماء مسفوحة .

وعلى هذا النحو كان الأوس والخزرج أواخر العصر الجاهلى ، لا يرفعون أيديهم من دماء حرب قديمة ، حتى يغمسوها فى دماء حرب جديدة ، وكأنما تعاهدوا على الفناء ، وأن تلتهمهم نيران الحروب التهاما .

٣

المدينة فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين

رأينا أهل المدينة من الأوس والخزرج فى العصر الجاهلى غارقين فى الدماء ، كما رأيناهم غارقين فى ظلمات الوثنية ، غير أنهم لم يلبثوا أن

غسلوا أنفسهم من كل ذلك بأضواء الدين الجديد ، دين الإسلام الذى استلّ أحقادهم وسخائمهم ، وجعلهم بنعمة الله إخوانا .

وقد حمل إليهم مشاعلَ هذا الدين الجديد أول الأمر نفرٌ منهم لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم فى مكة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا[١] . وفى العام القابل أتاه وفد يضم عشرة من الخزرج واثنين من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى [٢] . وبعث النبي مع هذا الوفد مُصْعَب بن عُمَيْر يعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين [٣] . وسرعان ما أخذت أضواء الإسلام تنتشر من دار إلى دار ، بين الأوس والخزرج ، حتى إذا استدار العام وَفَدَ على النبي سبعون رجلا وامرأتان ، فسألوه الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى [٤] . وقد جعل منهم النبي اثنى عشر نقيبا كُفَلاء عليهم : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس [٥] .

وكانت هذه البيعة صريحة فى أن النبي سيترك دار الأرقم محل دعوته فى مكة ، ويتخذ من المدينة كلها دارا لدعوته بين ظهرانى الأنصار فقد وجدهم أكثر قبولا لرسالته .

وأخذت يثرب تستعد لاستقبال النبي وأصحابه من المسلمين ، وقد رأى أن يهاجر أصحابه أولا ، فأمرهم بالهجرة ، فهاجروا أرسالا ، ولم تمض بضعة أشهر حتى كانوا قد هاجروا إليها جميعا ، إلا من استبقاهم

---

(١) ابن هشام ٢/٧٠ .
(٢) ابن هشام ٢/٧٥ .
(٣) ابن هشام ٢/٧٦ .
(٤) ابن هشام ٢/٨٤ وكذلك ٢/٩٧ وانظر اليعقوبى ٢/٣٨ .
(٥) ابن هشام ٢/٨٥ .

النبي معه . وأخيراً خرج من داره مهاجراً ، ومعه أبو بكر الصديق ، ودليلهما عبدالله بن أُرَيْقِط . ودقت البشائر فى المدينة بهجرته ، فكانوا يتسمَّعون أخبار رحلته ، ويخرجون لاستقباله ، حتى وافتهم طلعته السنية ، وأقبل رجال الأوس والخزرج يتزاحمون حول راحلته بالمناكب ، وكلٌّ يود لو ينزل فى داره ، واختار النبي دار أبي أيوب الأنصارى أقام عنده ، حتى بنى له دارا ، وبنى بجوار الدار مسجداً (١).

وكان أول عمل قام به النبي صلى الله عليه وسلم فى يثرب أن آخى بين المسلمين (٢) فكلٌّ يتخذ له أخا فى الله ، وبذلك آخى بين المهاجرين والأنصار من جهة ، كما آخى بين الأوس والخزرج من جهة أخرى ، وكأنه أراد أن يزيل كل ما كان بين الفئتين من إحَن فى الجاهلية ، حتى تتم وحدة المسلمين ، وتتماسك عُرَاهم فلا يتخاذلوا بعدها أبداً .

ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقد أراد ليثرب أن يعمها السلام ، فسعى إلى تأليف اليهود ، وعقد بينه وبينهم معاهدة جاء فيها « أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » فلا يبغى بعضهم على بعض ، كما جاء فيها أن بين الفئتين من اليهود والمسلمين « النصر على من دهم يثرب » (٣).

وكان ذلك كفيلا أن يعيش النبي والمسلمون من حوله فى يثرب آمنين مطمئنين . ولكن اليهود أخذوا يشنون حرباً شعواء من الأسئلة والجدل فى أمر النبي وصحة رسالته ، فكان يستقبلهم باللين ، ولكنهم

---

(١) ابن هشام ٢/١٤١ .
(٢) ابن هشام ٢/١٥٠ .
(٣) ابن هشام ٢/١٤٧ .

كانوا يوغلون فى حربهم [١] ولم يقف هذه الحرب أن أسلمت جماعة منهم [٢] ، فإن الكثرة وقفت معارضة ، بل وقفت معادية تحادُّ الله ورسوله .

ولما انتصر النبي صلى الله عليه وسلم على قريش فى بدر أثناء السنة الثانية للهجرة أخذ بنو قينقاع يتحرشون بالمسلمين فجمعهم النبي بالسوق التى تنسب لهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فبادروا إليه قائلين : « لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة » وأعلنوا حربهم للنبي ، فحاصرهم وما زال هذا الحصار ، حتى رضوا أن يجلوا عن المدينة ، فخرجوا إلى أذرعات بالشام [٣] .

ولما كانت موقعة أحد حاول النبي أن يستعين ببنى النضير فى دية بعض القتلى ، فهموا أن يقتلوه [٤] ، حينئذ أعلن الحرب عليهم وحاصرهم ، فلما رأوا ألا قوة لهم على حربه ، طلبوا الصلح ، فصالحهم على أن يخرجوا من المدينة ، ولهم ما حملت الإبل من خُرْثِيِّ متاعهم ، لا يخرجون معهم بذهب ولا فضة ولا سلاح ، فتحمَّلوا [٥] سنة أربع من الهجرة [٦] ، وعلى رأسهم حُيَيُّ بن أخطب ، ونزلوا فى خَيْبَرَ وأذرعات

ولما كانت وقعة الخندق المعروفة اتصل بعض اليهود من بنى النضير ببنى قريظة ، فمدوا أيديهم إلى أعداء النبى وكادت أن تقع الكارثة

---

(١) ابن هشام ٢/١٦٠ وما بعدها .
(٢) ابن هشام ٢/١٦٣ وكذلك ٢/١٧٤ .
(٣) ابن هشام ٣/٥٠ وما بعدها .
(٤) ابن هشام ٣/١٩٩ .
(٥) اليعقوبى ٢/٥٠ .
(٦) ابن هشام ٣/١٩٩ .

بدخول هذه الجيوش المحاصرة ليثرب من ديارهم ، فلما أنقذ الله يثرب توجه النبي إليهم مع المهاجرين والأنصار ، فآذنهم بحرب جزاء وفاقا لنكثهم أيمانهم . واشتبك الطرفان ، وأسرع بنو قريظة إلى حصونهم ، فحاصرهم رسول الله ، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وارتضوا ما يحكم به ، فحكم أن يقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء (١).

وينبغى أن نعرف أن ما حاق ببنى قريظة لم يكن يراد به إكراههم على الإسلام (٢)، فالنظرية العامة فى الإسلام ألا إكراه فى الدين ، وإنما كان يراد به عقابهم على وقوفهم فى صفوف الجيش المغير ونقضهم لعهودهم مع النبى وأصحابه .

ولما استدار العام ذهب النبى إلى مكة فهادن أهلها (٣). ثم عاد إلى المدينة يستجم لمتابعة اليهود فى خيبر وغيرها من حصونهم شمالى المدينة . وفى هذه السنة السادسة بعث برسله إلى عظماء الملوك فى عصره يدعوهم إلى الإسلام (٤). ولا ريب فى أنه كان مدفوعا فى ذلك برسالته وأنها عامة ، إذ أرسل إلى الناس كافة ، أما من ينكرون ذلك (٥) فليس فى أيديهم دليل على ما يزعمون ، وإن نصوص القرآن الكريم لتشهد

---

(١) ابن هشام ٣/٢٥١

(٢) انظر هنا : Muir,Life of Mohammad (Edinburgh, 1912) p. 322.

(٣) ابن هشام ٣/٣٢١ واليعقوبى ٢/٥٤

(٤) ابن هشام ٤/٢٥٤ واليعقوبى ٢/٨٣ .

(٥) انظر هنا : Muir, The Caliphate (London 1891) pp. 43 — 44

بما نقول من مثل قوله تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقوله عز وجل : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وفى العام القابل ، وهو العام السابع للهجرة ، تابع النبى اليهود فى خيبر فحاربهم وحاصرهم ، وسلموا له على أن يعطوه نصف ثمار بلادهم (١) ، وكذلك صنع يهود فَدَك (٢) ، ويهود تَيْماء ، ووادى القُرَى (٣) .

وأتم الله نعمته على نبيه ففتح مكة فى العام الثامن للهجرة (٤) ، ثم تركها إلى وقعة حُنَين والطائف . وكان لهذه الانتصارات أثر عظيم فى استعلاء الاسلام نهائيا على الوثنية ، فإن العرب لما سمعوا بها أخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا (٥) . ولم يأت العام التاسع للهجرة ، حتى كانت المدينة تكتظ بوفود القبائل التى جاءت تعلن الإسلام (٦) . وتمت المعجزة الكبرى فقد انضوت القبائل العربية كلها ، أو كادت ، لأول مرة فى تاريخها تحت لواء واحد هو لواء الاسلام . وقد أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتمم رسالته ، وأن ينفخ بها فى آذان الأمم الأجنبية ، فأرسل جيشاً لغزو الروم ، وكانت وقعة مؤتة (٧) .

---

(١) ابن هشام ٣/٣٥٢ وانظر البلاذرى ص ٢٣ .
(٢) ابن هشام ٣/ ٣٦٨ وانظر البلاذرى ص ٢٩
(٣) البلاذرى ص ٣٣ وما بعدها . (٤) ابن هشام ٤/٣١
(٥) انظر : Muir, Life of Mohammad, pp. 431 — 2.
(٦) ابن هشام ٤/٢٠٥ وما بعدها (٧) المصدر السابق ٤/١٥

ولم يلبث النبى صلى الله عليه وسلم أن انتقل إلى الرفيق الأعلى ، دون أن يترك وصية ، بمن يلى شئون المسلمين ، ولم يكن العرب يعرفون النظام الملكى وما يقوم عليه من وراثة ، كذلك لم يكونوا يعرفون ما اعتنقته الشيعة فيما بعد من أن أسرة الرسول لها حق مقدس ، ومن هنا كان اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وقد أرادوا أن يكون لهم الأمر بعد الرسول أو يكونوا شركاء فيه ، وذهب إليهم المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر ، وعمر ، وأقنعوهم بأن العرب لا تخضع إلا لشخص من قريش ، وبويع أبو بكر بالخلافة [١] لرسول الله والقيام على ما شرع من الدين ، وكان لعمر الفضل الأول فى مبايعته .

واضطلع أبو بكر بالخلافة ، وكان « رجلا مألفاً لقومه محبباً سهلا » [٢] وطالما كان الرسول يشيد بذكره ، وقد أنفق بعد إسلامه أكثر ماله فى شراء الموالى الذين كانت تعذبهم قريش [٣] . ولما ولى الخلافة صعد المنبر ، فجلس دون مجلس رسول الله بمرقاة ، ثم حمد الله ، وأثنى عليه وقال : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقوّمونى . . . وأثنى على الأنصار خيراً » [٤] .

وبدأ فأمر أسامة بن زيد أن ينفذ فى جيشه الذى أعده النبى صلى الله عليه وسلم للإغارة به على الشام وشيّعه قائلا : « لا آمرك بشىء إلا بما أمرك به النبى وامض حيث ولاّك » ، ومكث أسامة فى هذه الغزوة ستين يوماً [٥] .

---

(١) انظر الطبرى فى سنة ١١ هـ . واليعقوبى ٢/١٣٧

(٢) ابن هشام ١/٢٦٧ (٣) ابن هشام ١/٣٣٩ وما بعدها

(٤) اليعقوبى ٢/١٤١ (٥) اليعقوبى ٢/١٤٢

وتنبأت جماعة فى مطلع خلافة أبى بكر وعلى رأسها مسيلمة الكذاب [١] ، وارتد كثير من العرب عن الإسلام ، وامتنع كثيرون عن دفع الزكاة [٢] . وهنا نرى أبا بكر يقوم بعمل جليل فقد عبأ الجيوش لإنقاذ الإسلام ، وأرسلها فى طلب مسيلمة وغيره ممن ارتدوا أو منعوا الزكاه . وما زالت هذه الجيوش تعمل ، حتى أذعنت بلاد العرب للإسلام ثانية [٣] . ولما استحرّ القتل فى هذه الحروب بالصحابة وبمن معهم من القراء أشار عمر على أبى بكر أن يجمع القرآن فى مصحف خشية ضياعه ، وكان مفرقا فى اللخاف وغيرها ، فأجلس أبو بكر خمسة وعشرين رجلا من قريش وخمسين رجلا من الأنصار ، وقال : « اكتبوا القرآن واعرضوا على سعيد بن العاص ، فإنه رجل فصيح [٤] » .

ولم يكتف أبو بكر بجمع العرب على كلمة الإسلام فقد أراد أن يجمع الناس عليها متأثراً بما قدمناه من تعاليم الدين الإسلامى التى تذهب إلى أن النبى أرسل الناس إلى كافة ، فأرسل الجيوش إلى الشام وفارس تفتح فيها ، وقد استمرت موجة الفتح من بعده فى ارتفاعها واشتدادها .

ولم يلبث أبو بكر أن لبّى نداء ربه فى السنة الثالثة من خلافته ، فذهب راضيا مرضياً ، وأوصى بالخلافة من بعده لعمر ، وهو المثل الأعلى للخليفة عند المسلمين فى خلقه ودينه وسياسته ، وهو أول من

---

(١) يظن مرجوليوث أن مسيلمة كان يتأثر ببعض تعاليم المسيحية ، انظر فى ذلك :
Nicholson A Lit. Hist. of Arabs, p. 183.

(٢) اليعقوبى ٢/١٤٤ (٣) البلاذرى ص ٩٤ وما بعدها
(٤) اليعقوبى ٢/١٥٢ .

تلقب أمير المؤمنين[١] ، ولما ولى الأمر صعد المنبر فجلس دون مجلس أبى بكر بمرقاة ، وخطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبى ، وذكر أبا بكر وفضله ، وترحم عليه ، ثم قال : «ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله لما تقلدت أمركم» .[٢]

وكان أول عمل بدأ به فى خلافته أن رد سبايا أهل الردة إلى عشائرهم، وقال : إنى كرهت أن يصير السبى سنة على العرب[٣]. واستمر على سياسة أبى بكر فى إمداد الجيوش وفتح البلدان ، بحيث لم يمر أكثر من اثنتى عشرة سنة من خلافته وخلافة أبى بكر حتى كانت الإمبراطورية الفارسية قد أصبحت ولاية تابعة للمدينة، وكذلك أصبحت سوريا ومصر.

ومن المحقق أن عمر لم يكره أتباع زرادشت فى فارس ولا أتباع عيسى فى مصر والشام على الإسلام ، ومع ذلك فقد دخله كثير منهم حرا مختارا ، وظل قوم على دينهم نظير دفع الجزية . وأغلب الظن أنها لم تكن عقابا لمن امتنعوا عن الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى ، إنما كانت نوعا من الضرائب يدفع لحمايتهم ، فقد جاء فى نصوص بعض المعاهدات التى عقدها خالد بن الوليد فى العراق « فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا »[٤] .

وأظهر عمر تسامحا منقطع النظير مع هؤلاء الذين ضربت عليهم

---

(١) التاج للجاحظ طبعة احمد زكى باشا ص ٨٨ .
(٢) اليعقوبى ٢/١٥٧ . (٣) اليعقوبى ٢/١٥٨ .
(٤) الطبرى طبع أوروبا : القسم الأول ص ٢٠٥٠ .

الجزية . وبينما كان عمر يأخذ أهل الديانات الأخرى بالتسامح، كان يأخذ عماله بالشدة . وكما كان شديداً على عماله كان شديدا على نفسه [١] .

وأخيرا قتل عمر سنة ٢٣ هـ . قتلته يد أجنبية آثمة هي يد أبي لؤلؤة فيروز المجوسي ، مولى المغيرة بن شعبة ، وكان قائما يصلي [٢] . وقد جعل الأمر من بعده شورى لستة نفر من أصحاب رسول الله هم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فانتخبوا عثمان ، وبايعوه بالخلافة ، وبايعه الناس ، وكان رجلا ضعيفا طاعنا في السن ، فأسلم أموره إلى ذويه من بني أمية ، ولم يلتزم طريقة أبي بكر وعمر في التقشف ، فقد بنى داراً كبيرة [٣] . وكان ذلك كله سببا لثورة الجيش وثورة المسلمين عليه ، فقتلوه سنة ٣٥ هـ [٤] . وبويع علي بالخلافة ، بايعه أهل المدينة [٥] . وقد سارع فعزل ولاة عثمان ، وكان من بينهم معاوية في الشام ، فلم يستجب لهذا العزل ، بل رفع راية العصيان عليه ، وطالبه بثأر عثمان ، إذ كان مثله من بيت بني أمية .

وذهب علي إلى العراق ليعد جيشا يحارب به معاوية ، وذهب إليه معاوية على رأس جيش من الشام ، ولم تلبث الأمور أن تطورت ، فقتل

---

(١) انظر الطبري : القسم الأول ص ٢٧٤١ .
(٢) البلاذري ص ٣٤ .
(٣) اليعقوبي ٢/٢٠٢ .
(٤) الطبري : القسم الأول ص ١٩٨٠ وما بعدها .
(٥) اليعقوبي ٢ / ٢٠٦ .

على سنة ٤٠هـ ، وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ ، وبذلك عادت الخلافة إلى بيت بنى أمية ثانية، واستمرت فيه نحو قرن من الزمان.

٤

المدينة فى العصر الأموى

لعل أهم ظاهرة تميز المدينة فى العصر الأموى (٤١ — ١٣٢ هـ) أنها فقدت زعامتها السياسية ، التى تمتعت بها طوال حكم الخلفاء الراشدين، فقد كانت عاصمة للإمبراطورية الإسلامية، تتبعها الولايات وتصرّف شئونها ، أما فى هذا العصر فقد أصبحت تابعة لدمشق العاصمة ، وأصبح الولاة يختارون لها فيها ، بعد أن كانت هى التى تختارهم لها ، وتقيمهم عليها، وعلى غيرها من بلدان العالم الاسلامى ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقد أخذت تدفع إلى دمشق خراجها مما كان يسمى الصوافى من الحنطه والتمر .[1] .

وقد ولّى عليها معاوية (٤١ — ٦٠ هـ) مروان[2] بن الحكم كاتب عثمان بن عفان ومشيره ، ثم أقاله ، وولى عليها سعيد بن العاص ، ثم عزله وولى مروان ثانية . ويستطيع من ينظر فى مختتم السنين فى الطبرى أن يجد أسماء الولاة الذين تولوا عليها طوال العصر الأموى ، وأكثرهم من بيت بنى أمية ، ولم يُوَلَّ عليها من الأنصار سوى ابن حزم فى عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

وكانت المدينة طوال العصر الأموى تقف موقف المعارضة من بنى

(١) اليعقوبى ٢/٢٩٧ .
(٢) الطبرى : القسم الثانى ص ١٦ .

أمية . ومن المعروف أنه لما استولى بنو أمية على الخلافة قامت معارضة واسعة ضدهم ، إذ كانوا من سلالة أشراف مكة فى الجاهلية ، ولم يكن لهم سابقة فى الإسلام ، بل على العكس من ذلك كانوا يناهضون النبى فى دعوته إلا قليلا منهم ، ولم يسلم أكثرهم إلا بعد فتح مكة ، فكان كثير من المسلمين يرون أنهم غاصبون للخلافة (١) .

وانتشرت هذه الفكرة فى إقليمين كبيرين، هما إقليما العراق والحجاز، أما العراق فقد كان فيه الخوارج وكان فيه الشيعة ، وكان فيه أيضا الموالى . يقول اليعقوبى: « فى عصر معاوية خرجت عصابة من الموالى أميرهم أبو على من أهل الكوفة ، وهو مولى لبنى حارث بن كعب ، وكانت أول خرجة خرجت فيها الموالى »(٢) وحاربهم المغيرة ابن شعبة وانتصر عليهم أحد قواده .

وهذه الطوائف الثلاث كان مركزها العراق ، وقد كان يقابلها فى الحجاز طوائف أخرى من قريش والأنصار ، وكانت المدينة مركز هذه الطوائف ، فقد كان بها بيت الزبير بن العوام، ومنه خرج عبد الله ابنه ، ودعا لنفسه بالخلافة ، ودوّخ جيوش بنى أمية ورجالهم حينا ، وكان بها بيت على بن أبى طالب ، فإن الحسن بعد بيعته لمعاوية ذهب إلى المدينة (٣)، وكذلك صنع أخوه الحسين (٤)، ولم يلبث الحسين بعد وفاة معاوية أن خرج على يزيد، وذهب إلى مكة ثم العراق حيث قتل ، وبعد مقتله أرسل يزيد أهله إلى المدينة(٥) ، فكان أولاده وأولاد أخيه

---

(١) اليعقوبى ٢/٢٧٦ .
(٢) نفس المصدر ٢/٢٦٢ .
(٣) الطبرى : القسم الثانى ص ٦ .
(٤) نفس المصدر : القسم الثانى ص ٩ .
(٥) نفس المصدر : القسم الثانى ص ٢٨٣ .

الحسن يعيشون فيها ، وكذلك كان يعيش فيها ابن الحنفية [١] وغيره من بنى هاشم الذين كانوا يرون جميعا أنهم أحق بالخلافة من بنى أمية .

وليست هاتان الأسرتان ، أسرة الزبيريين والهاشميين ، هما اللتان كانتا تشعران باغتصاب بنى أمية للخلافة ، فقد كان يشعر شعورهما أسرة المخزوميين ، فكان كثير منها زبيرىّ الهوى [٢] . وأكبر الظن أن كثيراً من الأسر الأخرى كأسرة أبى بكر وعمر بن الخطاب كانت مغاضبة للأمويين أيضا

كان إذن كثير من القرشيين الذين يعيشون فى المدينة مغاضبين لبنى أمية ، وكان يذهب هذا المذهب نفسه جماعة الأنصار ، ولمغاضبتهم تاريخ قديم ، فإن الأنصار خذلوا عثمان [٣] ، وبايعوا عليّاً بعد قتله مباشرة [٤] . ولما ذهب إلى العراق ذهب معه كثير منهم وعلى رأسهم أبو أيوب الانصارى [٥] . وقد شهد صفين مع علىّ من أهل بدر سبعة وثمانون رجلا ، منهم سبعون من الأنصار ، وشهدها معه ممن بايع تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان ، تسعمائة [٦] .

ولما دار الزمان دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يعتبر أهل المدينة قتلة عثمان وأعداءه [٧] ، ويقال إنه أرسل اليهم بسر بن

---

(١) الأخبار الطوال للدينورى طبع ليدن ص ٣٠٨ .
(٢) أغانى طبع دار الكتب ٣/٣١٦ .
(٣) مروج الذهب للمسعودى ٤/٢٨٤ وما بعدها .
(٤) اليعقوبى ٢/٢٠٦ . (٥) المسعودى ٤/٣١٠ .
(٦) المسعودى ٤/٢٩٥ . (٧) الطبرى : القسم الثانى ص ٩٢ .

أرطاة ، فأقام عندهم شهراً ، يستعرضهم ، ليس أحد ممن يقال هذا أعان على عثمان إلا قتله [١] .

لم تكن المدينة ولم يكن الأنصار من هوى معاوية ، وقد أغمدوا سيوفهم بعد قتل على وانتقال الخلافة إلى معاوية ، ولكن يظهر أنهم لم يغمدوا ألسنتهم ، فقد هجا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت معاوية حين استلحق زياداً هجاءاً قبيحاً [٢] ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن ابن الحكم فى المدينة فتهاجيا وتفاحشا [٣] . ولم يستطع ابن الحكم أن ينتصر منه على ما يظهر . وهنا نجد يزيد بن معاوية يرسل إلى كعب بن جعيل كى يهجو له الأنصار ، فقال له : أرادنى أنت إلى الاشراك بعد الإيمان ؟ لا أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أدلك على غلام منا نصرانى ، فدله على الأخطل ، فأرسل إليه ، فهجا الأنصار وعبد الرحمن بن حسان بقصيدة طويلة قال فيها :

ذهبت قريشٌ بالمكارم كلها واللؤمُ تحت عمائم الأنصار [٤]

وبينما نرى يزيد يصنع ذلك إذا بنا نجد معاوية يرسل إلى مروان ابن الحكم واليه على المدينة أن يجلد أخاه عبد الرحمن كما يجلد عبد الرحمن بن حسان مائة سوط ، حتى تنطفىء هذه النار التى يؤججانها فى

---

(١) الطبرى : القسم الثانى ص٢٢ ، وانظر المسعودى ٥/٤٦ واليعقوبى ٢/٢٦٥ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٩٨ .

(٣) أغانى طبع بولاق ١٣/١٥٠ .

(٤) انظر ابن عبد ربه ٣/١٤٠ ، والأغانى ١٤/١٢٢ حيث يرجع أبو الفرج المسألة إلى سبب شخصى !

المدينة . ولبى مروان أمر معاوية فضرب ابن حسان مائة ، وضرب أخاه خمسين ، وبعث إلى ابن حسان بحلة ، وسأله أن يعفو عن الخمسين الأخرى ، فرضى عبد الرحمن بن حسان وقال ، وشاع قوله فى المدينة : ضربنى حدّ الحر وضربه حد العبد[١] .

كانت المدينة موالية لمعاوية إذن عن قهر وموجدة ، فلما توفى معاوية وانتقلت الخلافة إلى ابنه يزيد أخذت تتحين الفرص للخروج عليه ، وحدث أن أرسل إليها بعثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وهو فتى غرّ لم تحنكه التجارب . حينئذ نجد المدينة تنتهز الفرصة فتثور على يزيد ، وتخرج عامله عثمان هو وبنى أمية جميعا من المدينة إلى الشام ، وتتبعهم ترميهم بالحجارة[٢] . وقد رجعت فبايعت عبد الله ابن حنظلة الغسيل[٣] . ولما علم يزيد ، أرسل إليها مسلم بن عقبة فى خمسة آلاف ، فأوقع بأهلها وقعة الحرّة المشهورة[٤] ، وقد قتل فيها خلق كثير[٥] ، ودخل مسلم المدينة وأباحها جيشه ثلاثة أيام[٦] ، فنهبت الأموال وهتكت الأعراض ، وفى أثناء ذلك أخذت البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد له[٧] . وبعث مسلم برؤوس أهل المدينة إلى سيده ، فلما

---

(١) أغانى ١٤/١٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر اليعقوبى ٢/٢٩٨ وأغانى طبع دار الكتب ١/٢٣ .

(٣) الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٣ وابن سعد ٥/٤٧ .

(٤) انظر فى وقعة الحرة الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٥ وما بعدها .

(٥) انظر كلمة حرة فى معجم البلدان لياقوت إذ يزعم أنه قتل من الأنصار ١٧٠٠ ومن المهاجرين ١٣٠٠ غير من قتل من الموالى وكانوا خمسة آلاف .

(٦) الطبرى : القسم الثانى ص ٤١٨ . (٧) اليعقوبى ٢/٢٩٨ .

ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعرى يوم أحد :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جَزَعَ الخزرج من وقع الأسَل
لأهلّوا واستهلوا فرحا ولقالوا ليزيد لافشل (١)

ولم يلبث يزيد أن توفى ، فدخلت المدينة فى طاعة ابن الزبير ، واستمرت موالية له حتى قتل ، فاضطرت راغمة أن تذعن للأمويين من بيت مروان بن الحكم . وقد زارها عبدالملك بن مروان سنة ٧٦ هـ ، فأغاظ لأهلها فى القول ، وقام خطباؤه فصنعوا مثل صنيعه (٢) ، ورماها بهشام بن إسماعيل المخزومى سنة ٨٢ هـ ، فأساء السيرة ، وجار فى الأحكام ، وتحامل على آل رسول الله (٣) ، وتعرض لسعيد بن المسيب فقيه المدينة ، وكان يبغض خلفاء بنى أمية ، فضربه ستين سوطا ظلما وعدوانا ، وطاف به (٤)

وحج الوليد سنة ٩١ هـ ، فمر بالمدينة ، لينظر إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما أصلح منه ، ولقيه أشرافها لقاء حسنا ، وقسم فيهم عطاءه ، ومع ذلك خطبهم فتوعدهم قائلا لهم : إنكم أهل الخلاف والمعصية ، فقام اليه قوم فكلموه ، فقال ما نجهل ما تقولون ، ولكن فى النفوس ما فيها (٥) . وقد ولى عليها أول الأمر عمر بن العزيز ثم عزله ، وولى عثمان بن حيان المرى ، وكانت فيه شدة ، فطلب اليه أن يفرق من فيها من أهل الأهواء (٦) .

---

(١) ابن عبد ربه ٢/٣١١ .
(٢) اليعقوبى ٢/٣٢٧ .
(٣) نفس المصدر ٢/٣٣٩ .
(٤) الطبرى : القسم الثانى ص ١١٦٩ .
(٥) اليعقوبى ٢/٣٤٠ .
(٦) الطبرى : القسم الثانى ص ١٢٦٠ .

ونرى من كل ما سبق أن المدينة كانت موطنا من مواطن معارضة الأمويين ، وقد قسوا على أهلها كثيرا فى معاملتهم تارة بتوجيه الجيوش إليهم ، وتارة بإقامة ولاة يبطشون بهم . واستمرت المدينة مغاضبة لهم طوال خلافتهم ، لا تنسى خصومتهم ، وما أذاقوها من سوء العذاب .

٥

الثراء والحضارة فى المدينة

رأينا المدينة فى عصر الخلفاء الراشدين تصبح عاصمة الإمبراطورية الإسلامية فقد اجتاح العرب بلاد الفرس كما اجتاحوا بلاد الشام ومصر ، وقد أخذت الأموال تسيل إلى المدينة منذ ولى الأمر أبو بكر حتى من داخل الجزيرة نفسها ، فقد كان أول مال قسمه أبو بكر فى الناس ماوجه به العلاء الحضرمى من فتح بعض نواحى البحرين ، وقد فرقه فى الناس جميعا أحراراً وعبيداً ديناراً لكل إنسان [١] . وأخذت أموال الفيء تنهال على المدينة بعد ذلك من فارس والشام ، فكان أبو بكر يقسم بين الناس بالسوية ولا يفضل أحداً على أحد [٢] .

ولما جاء عمر جاءته كنوز الأرض مما كان يفتحه العرب ، فكان يوزع هذه الكنوز على المسلمين . روى الرواة أن أبا هريرة وفد عليه من البحرين فى أول خلافته فقال له : ماجئت به ؟ قال جئت بخمسمائة ألف ، قال : هل تدرى ماتقول ؟ قال : مائة ألف ومائة ألف وعدّ خمسا ،

---

(١) اليعقوبى ٢/١٥١ .

(٢) اليعقوبى ٢/١٥٤ .

فخطب عمر فى الناس : إنه قدم علينا مال كثير ، فإن شئتم أن نعده لكم عدا ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلا [١] . وبلاد البحرين ليست أهم بلاد الامبراطورية الإسلامية حينئذ ، وما جاء منها لا يعدل شيئا مما أخذه المسلمون فى حروبهم من بلاد الفرس ، وما أفاء الله عليهم من الغنائم فى الشام ومصر . وقد رُوِىَ أن الأسلاب قسمت بعد موقعة القادسية التى قتل فيها رستم فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفا ، وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة [٢] . ويقال إن خراج سواد الكوفة وحدها من بلاد العراق بلغ فى خلافة عمر ثمانين ألف ألف درهم فى أحد الأعوام ، وفى العام الذى يليه بلغ عشرين ومائة ألف ألف درهم ، وكان صاحب الكوفة يحمل إلى المدينة من هذا الخراج نحو عشرين أو ثلاثين ألف ألف [٣] . ويقول ابن الطقطقى : « لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة فى خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالت ، وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت ، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم ، ولم يكن يعرف كيف يصنع ، وكيف يضبط ذلك ، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس ، فلما رأى حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين ! إن للأكاسرة شيئا يسمونه ديوانا ، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه ، لا يشذ منه شىء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب ، لا يتطرق عليها خلل ، فتنبّه عمر وقال : صفه لى ، فوصفه

---

(١) البلاذرى ص ٤٥٣ .
(٢) اليعقوبى ٢/١٦٥ .
(٣) نفس المصدر ٢/١٧٤ .

المرزبان ، ففطن عمر لذلك ، ودون الدواوين ، وفرض العطاء ، فجعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقرراً ، وفرض لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ولسراريه وأقاربه[١]. وقد بدأ عمر فى الديوان بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وبقية بنى هاشم ، ثم الأقرب فالأقرب إلى النبى ، وفرض للناس بحسب السابقة فى الإسلام، ففرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، فى ذلك من شهد الفتح وقاتل ... ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء البارح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة ... وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفا ألفا ... وأعطى نساء النبى عشرة آلاف عشرة آلاف ، إلا من جرى عليها الملك ... وجعل نساء أهل بدر فى خمسمائة خمسمائة ، ونساء من بعدهم إلى الحديبية فى أربعمائة أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك إلى القادسية فى ثلاثمائة ثلاثمائة ، ونساء أهل القادسية فى مائتين مائتين ، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء فى مائة مائة [٢] .

وإنما سقنا ذلك لندل على مدى ما كان يصيبه أهل المدينة من أموال فى عصر الخلفاء الراشدين . وهذا غير ما كان يجلبه الذين اشتركوا

---

(١) الفخرى طبع أوروبا ص ١٠١ .

(٢) الطبرى: القسم الأول ص ٢٤١٢ ومابعدها .

منهم فى الحرب والفتوح . وقد استمرت موجة هذه الفتوح والحروب فى ارتفاعها طوال حكم عمر ، حتى إذا كان عصر عثمان أخذت تتوقف ، ومع ذلك فالبلاذرى يروى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح صالح بطريق إفريقية بعد فتحها فى عهد عثمان على ثلاثمائة قنطار من الذهب ، وقدر ذلك بعض المؤرخين بمليونين ونصف من الدنانير [١] . ويقال إن عثمان أمر لمروان بن الحكم بخمس هذا المال [٢].

ولم تدخل هذه الأموال فى المدينة وحدها منفصلة عن كل ما كان يتصل بها فى البلاد الأجنبية ، بل لقد دخلت ومعها الرقيق الذى كان يُسْبَى فى الحروب من رجال ونساء . وأول رقيق دخل المدينة كان فى عهد عمر ، إذ أرسل إليه معاوية بأربعة آلاف من سبى قيسارية [٣]، ودخل المدينة بعد ذلك رقيق آخر كثير . وما من ريب فى أن هذا الرقيق كان يفهم من الحضارة ألوانا لا يفهمها أهل المدينة القدماء ، وقد كان منه فرس وشاميون وأفريقيون فأخذوا يؤثرون فى حياة أهل المدينة تأثيراً عميقا وهو تأثير بدأ طفيفاً أول الأمر ، وخاصة فى عصر عمر ، إذ كان يدعو إلى الارتباط بالحياة القديمة وعدم الانفصال عنها [٤] .

ونحن لا نترك عمر إلى عثمان حتى نحس أن أهل المدينة تغيروا تغيراً كثيراً عما كنا نعهدهم عليه من تقشف . ويكفى فى تصوير ذلك

---

(١) البلاذرى ص ٢٢٧ . (٢) اليعقوبى ١٩١/٢. (٣) البلاذرى ص ١٤٢.
(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ١٨/١ وانظر الوزراء والكتاب للجهشيارى طبعة الحلبى ص ١٩ وكذلك الطبرى : القسم الأول ص ٢٧٤٧.

ما تركه كبار الصحابة من ثروات ، فقد روى الرواة أن طلحة بن عبيدالله خلف ثلاثمائة بهار من ذهب وفضة ، والبهار مزود من جلد عجل [١] ، ويقول المسعودى : إن الزبير خلف خمسين ألف دينار ، بينما خلف زيد بن ثابت مائة ألف دينار ، ومات يعلى بن مُنية عن خمسمائة ألف دينار ، وديون وعقارات قيمتها ثلاثمائة ألف دينار ، وبلغ الربع فى تركة عبد الرحمن بن عوف أربعة وثمانين ألف دينار . أما عثمان فقد خلف خمسين ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وعقارات قيمتها مائة ألف دينار . وقد عقب المسعودى بعد ذكره لهذه التركات بقوله : وهذا باب يتسع ذكره ، ويكثر وصفه ، فيما تملك من الأموال فى أيام عثمان ، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب .... وحج عمر فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً وقال لولده عبدالله : قد أسرفنا ! [٢] . وهذا فى الواقع إنما هو نمو طبيعى للأموال التى انهالت على المدينة فى عصر عمر ، وما جناه قواد الحرب من غنائم فى أثناء الفتوحات .

على كل حال اتسع ثراء المدينة منذ عثمان ، واتسعت معه الرفاهية ، أو قل أخذت تظهر الرفاهية ، ولم تكن معروفة فى عصر عمر كما يلاحظ ذلك المسعودى . وكان من مظاهر هذه الرفاهية الواضحة اتخاذ القصور وبناؤها بالآجر والجص واتخاذ أبوابها من الساج ، وقد بدأ ذلك عثمان الخليفة نفسه [٣] ، وتبعه أعيان أهل المدينة من مثل سعد

---

(١) ابن عبد ربه ٢/٢٧٩ . (٢) انظر مروج الذهب ٤/٢٥٣ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ٤/٢٥٣ .

ابن أبي وقاص ، وطلحة ، والمقداد ، وعبد الرحمن بن عوف . أما سعد فابتنى له دارا بالعقيق، رفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات ، وأما طلحة فابتنى له دارا بالجص والآجر والساج ، وأما المقداد فكانت داره بالموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل على أعلاها شرفات ، وصيرها مجصصة الظاهر والباطن ، وكذلك بنى عبد الرحمن بن عوف له داراً كبيرة [١] .

ونحن لا نمضى فى العصر الأموى حتى نجد أولاد الصحابة يخلفونهم على هذا الثراء وهذه الأموال والقصور ، وقد دون عمر ديوان العطاء وأصبح لكل شخص فى المدينة عطاء يميز به . وقد انتقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ومع ذلك ظلت المدينة لا تحرم من فيء الفتوح ، فقد روى عن الوليد بن عبد الملك الذى فتحت فى عهده الأندلس ، كما فتح شطر كبير من الهند ، أنه زار المدينة ، وقسم فيها رقيقا كثيرا بين الناس ، كما قسم آنية من الذهب والفضة ، وأيضاً فإنه قسم أموالا [٢] . ومعروف أن معاوية وضع نصب عينيه استرضاء خصومه بالمال ، فكان يكثر من عطاياه على كل من يفد عليه من المدينة . وتبع معاوية غيره من خلفاء بنى أمية فى هذا التقليد ، فكانوا يجيزون من يفد عليهم جوائز سنية ، يريدون بذلك أن يصطنعوهم لأنفسهم ، وأن يتقوا موجدتهم وغضبهم . وكان بيت بنى هاشم على رأس البيوت التى تستقبل استقبالا كريما فى دمشق ، فكان

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ٤/٢٥٤ وما بعدها ، وانظر الطبرى : القسم الأول ص ٢٨٦٠ حيث يذكر أن بناء الدور فى هذا العهد بلغ سلعا .

(٢) الطبرى : القسم الثانى ص ١٢٣٣ .

معاوية إذا وفد عليه أحد منهم وصله بالجوائز [١] ، ويروى أن الحسن وفد عليه فأجازه بمائة ألف [٢] ، وقبل ذلك حين صالحه جعل له ما فى بيت ماله وخراج دارا بجرد ، فأخذ ما فى بيت ماله فى الكوفة ، وكان فيه خمسة آلاف ألف [٣] .

وذهب معاوية ، وجاء يزيد ، فاستن سنة أبيه فى اصطناع الناس بالمال ، وقد أعطى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أربعة آلاف ألف [٤] ، وبعث إليه عثمان بن محمد بن أبى سفيان عامله على المدينة وفدا منها ، فأحسن إليهم ، وأعظم جوائزهم ، وأعطى كلا منهم مائة ألف درهم [٥] ، ووفد عليه عبد الله بن حنظلة زعيم الأنصار فى المدينة ومعه ثمانية بنين فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وما حملهم عليه [٦] .

ولما تبعت المدينة عبد الله بن الزبير كان شحيحا ، ولكن أخاه مصعبا كان جواداً كريماً ، فلما ولاه أخوه على العراق كان يصل أهل المدينة ، وقد أعطى عاصم بن عمر ستة عشر ألف دينار ، وأعطى عبد الله ابن جعفر ضعف ذلك [٧] . ويروى أنه أهدى صديقا له فى المدينة وهو عبد الله بن أبى فروة كنزاً وجده عامله فى خراسان ، وهو نخلة كانت

---

(١) الفخرى ص ١٢٧ . (٢) ابن عبدربه ١/١٤٥ .
(٣) الطبرى : القسم الثانى ص ٤ . (٤) ابن عبد ربه ١/١٤٥ .
(٥) الطبرى : القسم الثانى ص ٤٠٢ . (٦) نفس المصدر : القسم الثانى ص ٤٢٢ .
(٧) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٤٦ .

لكسرى مصنوعة من الذهب عثا كيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر وأخضر ، وقد قومها المقومون لمصعب بألفي ألف دينار ! فكان ابن أبي فروة أيسر أهل المدينة [١] .

ولما استقامت الخلافة لبني مروان أخذوا يقطعون ألسنة الناس وعلى رأسهم أهل المدينة بالمال ، وكان خلفاؤهم يذهبون أحيانا إليها ويقسمون فيها قسما كثيرة على نحو ما صنع الوليد كما مر آنفا ، وقد زارها سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ فقسم فيها أموالا وفرض لقريش خاصة أربعة آلاف فريضة [٢] .

ومهما يكن فإن كثيراً من أهل المدينة اتسع بهم الثراء في العصر الأموى اتساعا شديداً ، إما بفضل ما جاءت به الفتوح آباءهم قديما ، ونموه حديثا ، وإما بفضل ما كان يُصَبّ في حجورهم من خزائن دمشق ، وقد كان ديوان العطاء مدداً مستمراً لا ينفد ، ولم يُرْوَ أنه انقطع عنهم ما يأتيهم منه ، إلا سنة واحدة في عصر هشام بن عبد الملك ، فإنه منعهم عطاءهم حين خرج عليه زيد بن على ، ولكنه لم يلبث أن توفى فأعاده عليهم الوليد بن يزيد [٣] .

كان أهل المدينة في يسار ونعمة طوال هذا العصر الأموى بل كان كثير منهم ثريا واسع الثراء ، وكان يقترن بهذا الثراء ضروب واسعة من الحضارة لم تعرفها المدينة قبل هذا العصر . وفرق كبير بين

---

(١) الجهشياري ص ٤٤ . (٢) اليعقوبي ٣٥٨/٢ .
(٣) أغاني طبع دار الكتب ٢٢/٧ .

حضارة سكان المدينة فى هذا العصر ، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أن يسموهم بالتابعين ، وسكانها فى عصر الخلفاء الراشدين ، وهم الذين تعود أصحاب الحديث أيضا أن يسموهم بالصحابة . وحقاً إن الصحابة اطلعوا على ما عند الأمم الأجنبية واقتبسوا منهم ، ولكن اقتباسهم كان محدودا جدا ، وخاصة قبل عصر عثمان . وقد بدأ هذا الاقتباس يتسع فى عصر عثمان ، فبنى بعض الصحابة الدور والقصور ، ولكنه كان على كل حال اقتباسا فى حدود ضيقة ، أما فى هذا العصر الأموى فقد نشأ جيل آخر لم تكن له صلة بالجاهلية ولا بالحياة القديمة إلا ما يروى من أخبارها ، أما صلته كلها فبالحضارة الأجنبية التى دخلت كل شىء فى حياته ، وهو جيل التابعين ، وقد كان خليطا من العرب والموالى[1] ، وهم جماعة من الأجانب الذين سبوا فى الفتوح هم وأبناؤهم ، وكانوا كثيرين فى المدينة منذ كانت الفتوح فى عهد أبى بكر وعمر ، وقد ترك الزبير بن العوام وحده منهم ألف عبد وألف أمة[2] ، وكان غيره من الصحابة تكتظ بيوتهم بهم .

وكان هؤلاء الموالى يشتركون فى حياة المدينة ، سلمها وحربها ، ففى وقعة الحرة قتل منهم خمسة آلاف ، وفى السلم كانوا ينهضون بإعداد الحياة لهؤلاء الأنصار والمهاجرين ، إذ كانوا يقومون على خدمتهم . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم ،

(١) انظر ابن سعد الجزء الخامس حيث يترجم أولا للتابعين من قريش والأنصار فى المدينة ثم يترجم للموالى .

(٢) المسعودى ٤/٢٥٤ .

ولم يكونوا لذلك العهد فى شىء من الحضارة ، فقد حكى أنه قدم لهم المرقّق ، فكانوا يحسبونه رقاعا ، وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى ، فاستعملوه فى عجينهم ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة فى أمثال ذلك والقوّمة عليه أفادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش ، والتفنن فى أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرْثِىّ .. فأتوا من ذلك وراء الغاية »[1] .

وقد حجز ابن الخطاب أهل المدينة دون هذه الحضارة التى جلبوها من الخارج[2] ، إذ كان يكره للعرب من سكان المدينة وغيرهم أن يأخذوا بأسباب الحضارة الأجنبية ، وأن ينعموا بملذاتها فى المطعم والمشرب والمسكن ، ولكن لا يذهب عمر ، حتى نجدهم يقبلون على هذه الحضارة وما تستتبعه من رفاهية ، وقد بدأ ذلك منذ عثمان ، فاتخذوا الدور والقصور على ما مر فى غير هذا الموضع ، وكلما تقدم بهم الزمن ازدادوا فى الأخذ من هذه الحضارة والرفاهية .

ونحن لا نصل إلى العصر الأموى حتى نجد أهل المدينة تغيروا تغييرا تاما ، فقد أخذوا يضربون فى الحضارة الأجنبية بحظ بل

---

(١) مقدمة ابن خلدون طبع بولاق ص ١٤٤ .

(٢) انظر ابن عبد ربه ١/٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد طبع القاهرة ٣/١٠١ .

بحظوظ ، فعرفوا كثرة الألوان فى الأطعمة [١] ، وأكلوا فى أوانى الذهب والفضة [٢] .

وكما عرف أهل المدينة التنعم فى المطعم عرفوا التنعم فى الملبس ، فاتخذوا الخز والديباج والإستبرق . ومن طريف ما يروى عن السيدة عائشة أنها سئلت عن ثوبها فى زمن الرسول ، فقالت : أما والله ما كان خزا ولا قزا ولا ديباجا ولا قطنا ولا كتانا . . . إنما كان سداه من شعر ، ولحمته من أوبار الإبل [٣]

تغيرت ثياب نساء المدينة فكن يلبسن الديباج والحرير ، [٤] والقطن والكتان ، وكن يلبسن الثياب المعصفرة ، والثياب الرقيقة الشفافة . ولم يقف الأمر فى ذلك عند النساء فقد أخذ الرجال يلبسون المضرّجات والممصّرات والملوّنات [٥] ، ويروى أن أول من لبس الطيلسان فى المدينة جبير بن مطعم [٦] ، وكان فتية بنى مروان يرفلون فى القوهىّ والوشى كأنهم الدنانير الهرقلية [٧] ، واشتهر عبد الله ابن جعفر بلبس الخزّ [٨] ، وكان مروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ، وفوقها رداء عدنى

---

(١) المستطرف للابشيهى طبع المطبعة العثمانية بمصر ١٦٢/١ .
(٢) ابن عبد ربه ١١١/١ وانظر ابن سعد ١٢٦/٤ .
(٣) ابن عبد ربه ٣٩٤/١ . (٤) ابن سعد ٣٥٢/٨ .
(٥) أغانى طبع دار الكتب ١٣/٦ وانظر طبعة بولاق ٢٠٤/١٨ .
(٦) المعارف لابن قتيبة (طبع جوتنجن) ص ٢٧٤ .
(٧) أغانى طبع دار الكتب ٣١٠/١ (٨) أغانى طبع بولاق ٧٦/١١ .

بألفى درهم[١] ، وكان عمر بن عبدالعزيز ، وهو وال على المدينة ، يلبس الثوب بأربعمائة ، فيقول ما أخشنه وأغلظه[٢] .

وقد كانوا يتخذون الطيب ويكثرون منه ، ومما يدل على مدى اتخاذهم له ما يروى عن هارون بن صالح عن أبيه أنه قال : « كنا نعطى الغسّال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابنا فى أثر ثياب عمر بن عبد العزيز من كثرة الطيب فيها يعنى المسك[٣] » . وكان ذلك فى ولايته على المدينة وقبل أن يتزهد ، وعمر إنما كان يجارى شباب المدينة فى طيبه ومسكه .

وعلى نحو ما بالغ أهل المدينة فى ملابسهم وطيبهم بالغوا فى حليهم وجواهرهم فكان النساء يتحلين باللؤلؤ والياقوت[٤] ، واشتهرت عائشة بنت سعد بن أبى وقاص بزينتها من قلائد الذهب[٥] ، كما اشتهرت سكينة بنت الحسين بأنها كانت تثقل ابنتها بالحلى واللآلىء[٦] وقلّد الرجال النساء ، فكانوا يتخذون مثلهن الحلى والجواهر[٧] .

ولا شك أن هذا كله إنما تم تحت تأثير الحضارة الجديدة التى دخلت المدينة ، والتى أخذ أهلها يغرقون فيها إلى آذانهم ، فهم يرصّعون حياتهم ويحيلونها حلية وزينة خالصة .

---

(١) أغانى ٨٩/١٧ .
(٢) ابن سعد ٢٤٦/٥ .
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٢٦٢/٩ .
(٤) أغانى ٢٧٣/٨ .
(٥) ابن سعد ٣٤٣/٨ .
(٦) أغانى طبع بولاق ١٦٨/١٤ .
(٧) أغانى طبع دار الكتب ٢٧٨/٨ .

٦

ترف أهل المدينة

تحضر أهل المدينة كما رأينا ، وأدى بهم هذا التحضر إلى ترف واسع فى العصر الأموى ، وماذا ينقصهم ليكونوا مترفين ؟ إن المال تحت أيديهم ، فهم يصيبون منه ما يريدون ، وهم يتنعمون به ما شاءوا من ألوان النعيم .

ونحن لا نستطيع الآن أن ندرك إدراكا دقيقا ما كان عليه القوم من ترف ، لأن النصوص التى تمثل ذلك فى الأغانى والطبرى وغيرهما قليلة ، وإن ألمت بشخص تركت أشخاصا ، وإن ألمت ببيت تركت بيوتا . وما من ريب فى أن بيوت بنى هاشم وبنى أمية والزبيريين والمخزوميين كانت مترفة غاية الترف ، فبين أيديها المال الكثير الذى يهيىء لها كل ما تريد . ولعل مما يصور ذلك ما يروى عن حمزة بن عبد الله بن الزبير من أن ابن قيس الرقيات وفد عليه فأعطاه أربعة آلاف دينار (١) ، واقترض منه ابن قطن مولى معبد ألف دينار ثم جاء يردها إليه فأبى أن يأخذها (٢) ، وكان معبد منقطعا إليه يغنيه فيما يمدحه به الشعراء (٣) . وأمثال حمزة من الأثرياء المترفين فى المدينة كثير ، ولعل خير من يمثلهم فى هذا العصر عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وكان جواداً سمحا ، فكان يعطى الشعراء عطايا كثيرة . ويقول صاحب الأغانى إن أهل المدينة

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٥/٩٣ . (٢) نفس المصدر ٣/٣٦٤ .
(٣) نفس المصدر ٥/١٠٣ .

كان يقترض بعضهم من بعض إلى أن يأتى عطاؤه [١] ، ويقول الرواة إن الحجاج تزوج ابنته فأمهرها تسعين ألف دينار [٢] ، أى نحو خمسين ألف جنيه ، وهو مهر لا تستطيع بنات أصحاب الملايين أن تشرئب أعناقهن إليه فى هذا العصر .

وقد كان عبد الله على ما يظهر مترفا ترفا شديدا ، حَدَّث صاحب الأغانى أن عبد الملك بن مروان منع ابن قيس الرقيات عطاءه من بيت المال ، وطلبه ليقتله ، فاستجار بعبد الله بن جعفر ، وقصده فألفاه نائماً ، ولما كان صديقا لسائب خاثر (المغنى مولى ابن جعفر) ، وطلب الإذن على ابن جعفر فتعذر ، جاء سائب خاثر ليستأذن له عليه ، قال سائب : فجئت من قبل رجل عبد الله بن جعفر فنبحت نباح الجرو الصغير ، فانتبه ، ولم يفتح عينيه ، وركلنى برجله ، فدرت عند رأسه ونبحت نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، فرآنى ، فقال : مالك ويحك ؟! فقلت : ابن قيس الرقيات بالباب ، فقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل إليه ، فرحب ابن جعفر به وقربه ، فعرفه ابن قيس خبره ، فدعا بظبية فيها دنانير وقال : عدّ له منها ، فجعلت أعد وأترنم ، وأحسن صوتى بجهدى ، حتى عددت ثلاثمائة دينار فسكت ، فقال لى عبد الله مالك ويلك سكت ؟! ماهذا وقت قطع الصوت الحسن ، فجعلت أعدّ ، حتى نفد ما كان فى الظبية ، وفيها ثمانمائة دينار ، فدفعتها إليه » [٣] .

---

(١) أغانى طبع بولاق ١١/٦٩ . (٢) بن عبد ربه ٣/٢٩٢ .

(٣) أغانى طبع دار الكتب ٥/٨١ .

أرأيت إلى هذه الحادثة الطريفة ؟ إنها تصور لنا ترف العصر تصويراً بالغاً ، فهذا ابن قيس الرقيات لا يستطيع أن يدخل بيت ابن جعفر إلا بعد استئذان ، وهو يستأذن عليه فيتعذر لقاؤه له ، فيأتى مولى له يألفه ، كى يدخله عليه . ويقبل سائب خاثر فيجد ابن جعفر نائماً ، فيصطنع معه أسلوباً يدل على ما كان به من ترف . إن ابن قيس الرقيات بالباب ، وسائب خاثر يخشى أن يعلم به والى المدينة ، فيأخذه إلى عبد الملك ، كى يقضى فيه ما هو قاض ، ليس أمامه إلا أن يوقظ ابن جعفر ولكن كيف يوقظه ؟ لقد أتاه من قبل رجله فنبح نباح الجرو الصغير ، فانتبه ابن جعفر ولم يفتح عينيه ، وركله برجله ، فأتاه من قبل رأسه ، ونبح نباح الكلب الهرم ، فانتبه ، وفتح عينيه ، حينئذ حدثه بخبر ابن قيس .

وما أرتاب فى أننا لو سمعنا هذا الخبر فى عصرنا يحكى عن فتاة مترفة لعجبنا عجبا شديدا ولذهبنا نتخيل صورا كثيرة عن دلالها وترفها ، وأجار عبد الله بن جعفر صاحبه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ يهدّى من روعه بالذهب يلقيه فى حجره بتلك الصورة الأنيقة من عدّ سائب خاثر وغنائه على عده . وأكبر الظن أن ابن جعفر لم يكن بدعا فى عصره ، بل كان يستنّ بترف قومه .

وكما كان الرجال مترفين كان النساء أيضا مترفات ، ولعل ترفهن كان أوسع من ترف الرجال بعامل مافى طبع المرأة من ميل إلى التأنق والزينة . وخير من يمثل نساء المدينة المترفات فى هذا العصر سيدتان

من أنبل السيدات ، هما : عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ، ثم سكينة بنت الحسين بن على بن أبي طالب .

وقد كانت عائشة عند عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم توفى ، فتزوجها مصعب بن الزبير ، وأمهرها ألف ألف درهم[١] ، وتوفى عنها ، فتزوجها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى ، ومات عنها ولم تتزوج بعده[٢] ، وهى بنت أخت السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق[٣] ، وكانت لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب زوجها فى ذلك ، فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال ، أحببت أن يراه الناس ، ويعرفوا فضلى عليهم ، فما كنت لأستره ، فوالله ما فىَّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد[٤] . وكانت تعنى بزينتها وعطرها عناية بالغة ، وفيها يقول ابن قيس الرقيات :

جِنِّيَّة برزت لتقتلنى مطليّة الأصداغ بالمسكِ
عجباً لمثلكِ لا يكون له خَرْجُ العراق ومنبر الملك[٥]

وكانت إذا حجت ذهبت ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل ، فتعرض لها عروة بن الزبير فقال :

عائش يا ذات البغال الستين أكلّ عام هكذا تحجّين

فأرسلت اليه نعم يا عرّية[٦] . ويروى أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك فى الحج فقال لها : ارفعى حوائجك واستظهرى ،

(١) أغانى طبع بولاق ١٠/٥٨ . (٢) أغانى طبع دار الكتب ٢/٣٨٠ .
(٣) أغانى ١٠/٥٦ . (٤) نفس المصدر ١٠/٥٤ .
(٥) أغانى ١٠/٥٤ . (٦) أغانى ١٠/٦٠ .

فإن عائشة بنت طلحة تحج ، ففعلت ، فجاءت بهيئة جهدت فيها ، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها ، وفرق جماعتها ، فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا هذه خازنتها ، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ، فقالوا هذه ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة الى سننها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة ، عليها القباب والهوادج ، فقالت عاتكة ما عند الله خير وأبقى ،[1]

وإذا كانت بنت الخليفة يزيد حفيدة معاوية لا تبلغ مبلغ عائشة فى زينتها وهيئتها ، فماذا كانت هذه الهيئة والزينة ؟ إننا لو سمعنا فى هذا العصر أن ملكة تحج على هذا النحو لهبّ المصورون من آفاق العالم يأخذون صورها ويذيعونها على الصحف . وقد قالوا إن مصعبا أهداها ثمانى حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار ، فلما دخل عليها ليقدم هديته وجدها نائمة ، فأيقظها . فلما رأت الهدية لم تعن بها ، وقالت : كان النوم أحب إلى[2] . وقد رُوِى أنها لما تأيّمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة ، وتخرج الى مال لها بالطائف عظيم وقصر لها ، فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات ، فتناضل بين الرماة ، ثم يفد عليها الشعراء فتجيزهم[3] .

وهذه صورة بالغة من الترف والنعيم ، وكانت تشركها فى كثير من

---

(١) أغانى ١٠/٦٠ .
(٢) نفس المصدر ١٠/٥٧ .
(٣) أغانى ١٠/٦١

جوانب هذه الصورة السيدة سكينة بنت الحسين ، وكانت جميلة، وتزوجت غير واحد ، تزوجت عبدالله بن الحسن بن على ، وهو أول أزواجها [١]، ولما قتل مع أبيها تزوجت بعده مصعب بن الزبير ، فأمهرها ألف ألف درهم [٢] ، ولما قتل تزوجت عبد الله بن عثمان الخزامى ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان [٣] . وكانت سكينة مثل عائشة تعتز بجمالها ، ولا تستر وجهها ، ويقول صاحب الأغانى : « كانت سكينة عفيفة برزة من النساء تجالس الأجلة من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء [٤] » . ويقول أيضا : « إنها كانت أحسن الناس شعراً ، وكانت تصفف جمتها تصفيفا لم ير أحسن منه ، حتى عرف ذلك ، وكانت تلك الجمة تسمى السكينية ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف جمته السكينية جلده وحلقه» [٥] .

ويظهر أن سكينة كانت أكثر دلالا من عائشة ، وهى تمثل الفتيات المترفات اللائى يضجرن من كل شىء ، واللائى يحسن الإدلال والعجب بأنفسهن . روى صاحب الأغانى أنها شكت زوجها الرابع زيد بن عمرو ابن عثمان الى ابن حزم ، ، لخروجه إلى ماله ، مغاضبا لها ، وقد أقام فيه سبعة أشهر مع ولائده ، فلما تكلم معها ابن حزم ، أسرعت إلى شتمه ،

---

(١) أغانى ١٤/١٦٨ .
(٢) نفس المصدر ١٤/١٦٨ والمعارف لابن قتيبة ص ١٢٠ .
(٣) انظر فى أزواجها الأغانى ١٤/١٦٨ وما بعدها .
(٤) أغانى ١٤/١٦٥ .
(٥) أغانى ١٤/١٦٥ .

ثم قالت لزوجها : يا أبا عثمان تزوّد منى بنظرة ، فلن ترانى والله بعد الليلة أبداً [١] .

وكانت تشترط على أزواجها ألا يمنعوها رغبة أو مخرجا تريده ، فهى مدللة مبالغة فى دلالها . ولما تزوجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان أصدقها صداقا كثيراً ، ويروى أنه أمهرها عشرين ألف دينار وقد اشترطت عليه — كعادتها — أن لا يمنعها شيئا تريده ، فكانت تقول له : اخرج بنا إلى مكة ، فإذا خرج بها فسافرت يوما أو يومين قالت : ارجع بنا إلى المدينة ، فاذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا إلى مكة [٢] .

وهى مع هذا الدلال كان لها ذوق جيد فى الشعر ، فكانت تنقد الشعراء وتفاضل بينهم [٣] ، وكانت ظريفة مزاحة [٤] . ومما يروى عنها فى هذا الباب أنها بعثت الى صاحب الشرطة تقول : « إنه دخل شامى علينا ، فابعث الينا بالشرطة ، فركب معها ، فلما أتى الباب أمرت ، ففتح له ، وأمرت جارية من جواريها ، فأخرجت اليه بِرغوثا ، وقالت هذا الشامى الذى شكوناه » [٥] ، وانصرف القوم يضحكون . وكان أشعب مضحك أهل المدينة يختلف اليها كثيرا لإضحاكها وجلب السرور إليها ، ويقال إنها غضبت عليه مرة فأمرته أن يحتضن بيضا حتى يفقس ، ففعل ، وكانت تنسب إليه الفراريج وتقول بنات أشعب [٦] .

---

(١) أغانى ١٤/١٧١ . (٢) أغانى ١٤/١٧٠ . (٣) أغانى ١٤/١٧٣ .
(٤) أغانى ١٤/١٦٥ . (٥) أغانى ١٤/١٦٦ . (٦) أغانى ١٤/١٦٨ .

ظرف ودلال ، هذان هما سكينة ، الزهرة العاطرة فى بيئتها ، وهى زهرة تدل على أخواتها ، فقد كان الجو كله مشبعا بالعطر والظرف والدلال ، وكان جوًّا مترفا غاية الترف . ولعل من خير ما يصور هذا الترف ما يروى عن سكينة أنها حجت ، ورمت الجمار ، فسقطت من يدها الحصاة السابعة ، فرمت بخاتمها![1] . ويروى أنها استبدلت مالها بالزوراء بقصر فى العقيق يسمى البريدى ، فلما سال العقيق خرجت ومعها جواريها تمشى حتى جاءت السيل ، فجلست على جرفه ، ومالت رجليها فى السيل ، ثم قالت : والله لهذه الساعة فى هذا القصر خير من الزوراء[2] . ويروى الرواة أنها توفيت فلم تدفن فى نفس اليوم فاشتروا لها عودا من الطيب بأربعمائة دينار ظل مشتعلا بجوارها طوال الليل[3] حتى يعبق الجو من حولها بالأريج العطر .

وأكبر الظن أن ما يروى عن السيدة سكينة إنما هو رمز لترف البيئة ، فقد كانت المدينة رجالها ونساؤها فى العصر الأموى غارقين فى ألوان الترف وأصباغ النعيم .

٧

اللهو والملاهى فى المدينة

وهذه الحياة المترفة لأهل المدينة فى العصر الأموى اقترن بها فراغ واسع ، إذ كانت الدولة منصرفة عنهم ، فقلما استخدمتهم فى شئونها ،

---

(١) أغانى ١٤/١٧٢ . (٢) أغانى ١٤/١٧٢ .
(٣) نفس المصدر ١٤/١٧٨ .

لما عرفت فيهم من معارضتهم لها . وهذا الفراغ ، أو قل هذا التعطل كان لابد لهم أن يملئوه ، وقد ملأته كثرتهم باللهو والملاهى المختلفة ، وكان الغناء على رأس هذه الملاهى ، فان أهل المدينة فتنوا به فى هذا العصر فتنة شديدة ، وقد نمّاه لهم مواليهم الذين كانت تكتظ بهم بيوتهم ، وسرعان مانجد فى المدينة دوراخاصة بالغناء يقصد إليها الناس لسماعه . ولم يكن الغناء كل ملاهيهم ، فقد لهوا بطيران الحمام وبالرمى على الجلاهقات وهى قوس البندق [١] كما لهوا بالنرد [٢] والشطرنج [٣] .

وطبيعى أن يشيع اللهو وتشيع معه الملاهى فى المدينة بعامل ما كان هناك من فراغ وثراء وتحضر وترف . وقد شاع بجانب ذلك لهو من نوع آخر ، وهو نوع لا يشيع إلا بعد أن تتحضر الأمة أو المدينة من المدن ، وتترف ، فيوجد من أبنائها من يتخذون أناسا يضحكونهم ويملأون جوهم بالسرور . وكان أشعب مضحكَ المدينة فى هذا العصر ، وقد بدأ حياته فى بيت عائشة بنت عثمان ، ويقال إنها دفعته إلى البزازين فمكث عندهم حولا ، فسألته بعد الحول عما تعلمه ، فقال لها تعلمت نصف العمل وبقى نصفه ، قالت : وما تعلمت ؟ فقال : تعلمت النشر وبقى الطى [٤] .

وكان يعجب بأشعب أشراف المدينة وشريفاتها فكان يجلس إليهم جميعا ، ويقيم عندهم فى دورهم أياما ، وله مع السيدة سكينة نوادر كثيرة . يُرْوَى أنها غضبت منه يوما فحلفت ليحلقن لحيته ودعت بالحجام

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى طبع المطبعة الميمنية ص ٦٤ .
(٢) أغانى طبع بولاق ١٠٢/١٧ (٣) أغانى طبع دار الكتب ٥٢/٤ .
(٤) أغانى ٨٥/١٧

فقالت له : احلق لحيته . فقال له الحجام : انفخ شدقيك حتى أتمكن منك ، فقال له : أأمرتك أن تحلق لحيتى أو تعلمنى الزمر [١] . وكان زوج سكينة زيد بن عمرو بن عثمان بخيلا ، فكان إذا وضع الأكل وأقبل عليه بعض الناس رفعه ، وقال على بالترياق والماء الحار ، وتصادف أن صنع ذلك أياما متتالية ، ثم انصرف الضيوف يوما ، فأحضر الأكل ، وكان دجاجا ، فقال يا أشعب هل إلى إسخان هذا الدجاج سبيل ؟ فقال له أخبرنى عن دجاجك هذا هل هو من آل فرعون ؟ فهو يعرض على النار غدوا وعشيا [٢] .

ومما يروى من فكاهاته أن امرأة قالت له : هب لى خاتمك أذكرك به ، قال : اذكرينى أن منعتك اياه فهو أحب الى [٣] . ويروى أيضا أن امرأة كان يتودد اليها ويدخل منزلها سألته أن يهديها شيئا ففر فزعا ومكث شهرين لايقرب منزلها ، ثم جاءها ذات يوم ، فأرسلت إليه قدحا ملآن ماء ، وقالت : اشرب هذا من الفزع ، فقال اشربيه أنت من الطمع [٤] .

وهكذا كان أهل المدينة يتناقلون فكاهات أشعب ، كما كانوا يتناقلون فكاهات مضحك آخر يسمى الناضرى [٥] . ولا شك أنهما كانا يشيعان فى المدينة جوا مرحا ، كله الضحك والهزل . وكان كثير من أهل المدينة أنفسهم ومن أشرافها يصنع صنيعهما لا من إضحاك الناس ، ولكن

---

(١) أغانى ١٠١/١٧
(٢) نفس المصدر ١٧٢/١٤
(٣) أغانى ٩١/١٧
(٤) أغانى ٩١/١٧
(٥) أغانى ٩٤/١٧

من العناية بالفكاهة ، وماذا نزيد إلى قوم فارغين حجورهم مملوءة بالمال ، وكل مايطلبونه مهيأ لهم . روى صاحب الأغانى أن الحسن بن الحسن ابن على كان يعبث بأشعب أشد عبث ، وربما أراه فى عبثه أنه قد ثمل وأنه يعربد عليه ، ثم يخرج إليه بسيف مسلول ، ويريه أنه يريد قتله ، فيجرى بينهما فى ذلك كل مستمَع [١] . ولم يكن الحسن وحده الذى يذهب هذا المذهب من الهزل ، فقد كان أبان بن عثمان والى المدينة لعبد الملك من أهزل الناس وأعبثهم ، وبلغ من عبثه أنه كان يجىء بالليل ، وهو وال على المدينة ، إلى منزل رجل فى أعلى المدينة له لقب يغضب منه ، فيقول له : أنا فلان ابن فلان ، ثم يهتف بلقبه ، فيشتمه أقبح شتم ، وأبان يضحك [٢] .

وهذا اللهو البرىء وجد بجانبه لهو ماجن ، وتلك عادة الترف وأصحابه ، فإنهم يعمدون كثيرا إلى ألوان ماجنة من اللهو والملاهى ، ولعل أول صورة تبدو واضحة من هذا اللهو الماجن لكل من يدرس المدينة فى العصر الأموى أن بعض أصحابها كانوا يشربون الخمر ، وكانوا على مايظهر ، يحلون منها نوعا خاصا هو نبيذ التمر والفضيخ من الزهر والرطب ، فقد روى عن حسان أنه قال فى مجلس من مجالس عزة الميلاء المغنية : « أنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ من الزهر والرطب » [٣] ويريد حسان أنهم لايحلون إلا هذين الصنفين ،

---

(١) أغانى ١٠٤/١٧ (٢) نفس المصدر ١٠٢/١٧

(٣) أغانى ١٥/١٥

أما خمر العنب فقد كانوا يحرمونها . وقد اعترض معاوية على مران ابن الحكم حين ضرب ابن أرطاة الشاعر فى نبيذ أهل المدينة ، وقال إنه ليس بحرام [١] . ويظهر أن ابن أرطاة وغيره تجاوزوا النوع الذى أحلّوه إلى النوع الذى حرّموه ، فقد تلوّم ابن أرطاة أخاه لشرب النبيذ وعدم شرب الخمر ، فقال :

دع ابن سريع شُرْبَ مامات مزّةً وخذها سُلافا حيةً مزّة الطعم
تدعُكَ على ملك ابن ساسان قادراً إذا حرّمت قراؤنا حَلَبَ الكَرْم
فشتان بين الحى والمَيْتِ فاعتزم على مُزّةٍ صفراء راووقها يهمى [٢]

وداء الخمر داء قديم ، حرمها الإسلام ، ولكن نفرا من المسلمين ولم يستجيبوا إلى تحريم الإسلام لها ، فهم يروون عن شخص يسمى نعيمان ، وهو ممن شهد بدرا ، أنه شربها بعد تحريمها ، ويقال إن النبى صلى الله عليه وسلم جلده أربع مرات [٣] . وقد عثر عمر فى إحدى الليالى ، وهو خليفة ، على جماعة يشربون فى المدينة [٤] . وحدّ فى الخمر كثيرين ، حد قدامة بن مظعون من أصحاب رسول الله وابنيه عبيدالله وعبد الرحمن [٥] . ونجد ، فى عهد عثمان ، الوليد بن عقبة واليه على الكوفة يصلى بالناس وهو سكران [٦] .

(١) أغانى طبع دار الكتب ٢٥١/٢ وانظر ٢٤٦/٢ .
(٢) نفس المصدر ١٥٦/٢ . (٣) المعارف لابن قتيبة ص ١٦٨ .
(٤) الطبرى : القسم الأول ص ٢٧٤٢ وما بعدها .
(٥) ابن عبد ربه ٤٠٧/٣ .
(٦) أغانى ٢٠/١ وانظر ابن عبد ربه ٤٠٦/٣ .

ولكن هذه كلها حوادث فردية ، فقد كان الناس فى صدر الإسلام يحافظون على وصايا الدين وتعاليمه ، غير أننا لا نمضى بعد ذلك حتى نجدهم ينفكون قليلا قليلا من هذه الوصايا والتعاليم ، ولعل من أهم الأسباب فى ذلك أن المدينة كانت خليطا من الناس عربا وموالى ، فكان الأخيرون يقبلون على الخمر حزنا على حياتهم القديمة ، والأولون يقبلون عليها فرحا بحياتهم الجديدة .

ويعجب الإنسان إذ يرى للمدينة فى عصر معاوية شاعراً يغنى بوصف الخمر ، وهو ابن أرطاة الذى تحدثنا عنه آنفاً ، وقد عقد له صاحب الأغانى ترجمة ذكر فيها مجونه وعبثه وطلبه للخمر ، كما ذكر ندماءه من قريش وعلى رأسهم عبد الرحمن بن الحكم [١] ، والوليد بن عثمان ، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان [٢] ، ويقول أبو الفرج : « كان كل من قدم من ولاة بنى أمية وأحداثهم ممن يصيب الشراب يدعوه وينادمه » [٣] .

وهذا تطور واسع فولاة المدينة من أمثال الوليد بن عتبة ، والى معاوية ويزيد ، يشربون الخمر ، ومن لم يشرب الخمر المحرمة شرب النبيذ ، وكان عبدالله بن جعفر سيد بنى هاشم يشربه [٤] . ونجد فى الأغانى جماعة من بنى هاشم يدعون ابن عائشة المغنى إلى نزهة ، ونراهم يأكلون ويشربون [٥] . وكان إبراهيم بن هشام المخزومى والى المدينة لهشام بن

---

(١) أغانى ٢٥١/٢ (٢) نفس المصدر ٢٤٥/٢ (٣) نفس المصدر ٢٤٧/٢
(٤) نفس المصدر ٢١٢/٤ (٥) أغانى ٢٢٩/١ .

عبد الملك ينادم ابن عائشة ويشرب هو ورفقاؤه معه[١] . واشتهر الحسن بن الحسن بن علىّ بالشراب[٢] ، ونجد ابن هرمة يكتب إليه فى طلب النبيذ[٣] . وابن هرمة أصله من المدينة ، وقد أدرك الدولة العباسية ، وكان مستهترا بالنبيذ ، ومن شعره فيه :

لا نبتغى لبنَ البعير وعندنا ماءُ الزبيب وناطفُ المعصارِ[٤]

وله عبث كثير فى هذا الجانب يرويه صاحب الأغانى فى ترجمته الخاصة به . وكأن شعر الخمر أو الخمريات التى نسبها الناس إلى العصر العباسى ، وجعلوها إحدى مميزاته ، ليست مقصورة عليه ، فقد عرفت الخمريات قبله ، لا عند شعراء الجاهلية من أمثال الأعشى ، ولا عند شعراء العصر الأموى المسيحيين من أمثال الأخطل ، بل عند شعراء المدينة المسلمين فى العصر الأموى من أمثال ابن أرطاة وابن هرمة ، ومن شعر الأخير فيها :

أســـأل الله سكرةً قبل موتى وصياحَ الصبيان ياسكرانُ[٥]

ونجد بجانب ابن أرطاة وابن هرمة شاعراً من الأنصار يسمى السرىّ بن عبد الرحمن كان يدمن على الشراب ، وقد ذكر ندماءه فى شعره وهم عتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف ، وجبير بن أيمن وخالد بن أبى أيوب الأنصارى ، فقال وغنى فى قوله :

إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيرا ونازعت الزجاجة خالدا

---

(١) أغانى ٢/٢٣٦ .
(٢) أغانى ٦/٩٨ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) نفس المصدر ٤/٣٧٢ .
(٥) نفس المصدر ٤/٣٩٧ .

أمنت بإذن الله أن تقرع العصا وأن يُنبهوا من نومة السكر راقدا[١]

ويذكر صاحب الأغانى من نباذى المدينة نباذا يسمى جونك، كان يعيش بها فى أواخر هذا العصر[٢]. وأكبر الظن أنه كان يقدم النبيذ والخمر فى دور الغناء على نحو ما هو معروف اليوم. وقد كان مما يساعد على انتشار ذلك فى المدينة أن كثيرا من خلفاء بنى أمية كانوا يشربون[٣]، وقلما أقاموا الحد فى الخمر. ويروى الرواة أن عمر بن العزيز أقامه على الوابصىّ، وهو الصلت بن العاص بن وابصة بن خالد بن المغيرة المخزومى، فأخذته العزة بالإثم وتنصر ولحق ببلاد الروم[٤].

كان فى المدينة أثناء العصر الأموى خمر ومجون، وأكبر الظن أنه كان للجوارى اللائى امتلأت بهن المدينة أثر فى ذلك، فقد كثرن فى بيوت الأشراف والنبلاء، وكان كثير منهن أجمل من المرأة العربية، كما كان كثير منهن ميالا إلى التهتك والخلاعة، وماذا يهمهن وقد أصبحن رقيقا فى بلد أجنبى؟ إنهن يرتكبن كل ماتسوله لهن نفوسهن. ونجد إثم الترف يتبع ذلك كله. ويخيل إلى الإنسان أنه لم تبق آفة من آفات الترف وما يجر اليه من الإثم إلا وعرفت فى المدينة، فقد غرق بعض أهلها فى الخمر، كما غرق آخرون فى ضروب مختلفة من الفساد والفسق[٥].

---

(١) أغانى طبع بولاق ١٨/٦٥—٦٧ (٢) أغانى طبع دار الكتب ٤/٣٧٣

(٣) التاج للجاحظ ص ١٥١. (٤) أغانى طبع دار الكتب ٦/١١٦.

(٥) انظر أغانى طبع بولاق ١٣/١٥٠، والتاج للجاحظ ص ١٣١ والأغانى ٧/٣٤١، ٤/٢٤٤ وكذلك انظر ٤/٢٧٠—٢٧٣، ١٧/١١٩

الفصل الثانى

الغناء فى المدينة

١

الغناء فى المدينة قديم

عرف العرب قديما بمحبتهم للغناء ، وهناك نصوص كثيرة متفرقة فى كتب التاريخ والأدب تشهد بأنهم كانوا يغنون من المهد إلى اللحد، إذ كانوا يرقصون أطفالهم بالغناء[١] ، كما كانوا يبكون موتاهم بالنواح[٢] ، وهو ضرب حزين من الغناء . وقد اشتهروا بحُداتهم للإبل فى مسيرهم وترحالهم ، كما اشتهروا بأغانيهم فى الحروب وأشعارهم الحماسية[٣] ويظهر أنهم كانوا يستخدمون الغناء فى عباداتهم ، ففى القرآن الكريم : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاء وتصْدية » ، والمكاء الصفير والتصدية التصفيق ونفس الحج فى الإسلام نجد فيه التلبية والتهليل . وأكبر الظن أن يهود المدينة استخدموا الغناء فى عباداتهم ، كما استخدموه عند سقى الزروع وفى الحصاد[٤] . ويقول ابن عبد ربه : « إنما كان أصل

---

(١) المسعودى ٨/٩٥ .

(٢) أغانى ١٩/٨٩ ونواح الخنساء على أخيها وأبيها معروف، وكذلك نواح هند بنت عتبة على أبيها وأخيها وعمها ، انظر أغانى ٤/٢١٠ .

(٣) الطبرى : القسم الأول ص١١١٦ .

(٤) Farmer, A History of Arabian Music (London 1929) p. 17.

الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً ، وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة [١] . ومعنى ذلك أن المدينة كانت إحدى مواطن الغناء المهمة فى العصر الجاهلى . ومن هنا لا يكون غريباً أن نسمع بعد ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة مهاجراً استقبله أهلها من الأنصار استقبالا حافلا ، وقد ألّف نساؤهم فى أثناء ذلك مايشبه الجوقات إذ كن يغنين جماعات بالدف والألحان [٢] . وفى طبقات ابن سعد أن الصحابة كانوا يتغنون ببعض الرجز فى أثناء حفرهم للخندق فى وقعة الخندق المعروفة ، وأن النبى نفسه كان يرفع صوته ببعض الشعر [٣] . ويروى صاحب الأغانى أن بنى النضير لما أجلاهم النبى عن المدينة ، فخرجوا يريدون خيبر ، كانوا يضربون بالدفوف ويزمرون بالمزامير [٤] .

وهذه كلها نصوص تؤكد أن الغناء كان شائعاً فى المدينة ، وأن نساء العرب كن يشتركن فيه على نحو ما صنع نساء الأنصار فى استقبال النبى صلى الله عليه وسلم . ونجد بجانب هذه النصوص نصوصاً أخرى تدل على أن القيان عُرِفْنَ فى المدينة أثناء العصر الجاهلى . ومعروف أن القيان كن أجانب ، وأنهن استخدمن فى الغناء أثناء العصر الجاهلى

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٤١ . (٢) إحياء العلوم للغزالى طبع بولاق ٢/٢٥٤

(٣) طبقات ابن سعد ، الجزء الثانى ، القسم الأول ص ٥٠ .

(٤) أغانى ٣/٣٨ .

فى مدن الجزيرة العربية ، وفى بعض القبائل (١) . ويرى ليال أنهن كن من الفرس أو من اليونان من سوريا ، ويقول إنهن كن يغنين بالعربية ، وربما كن يغنين بلهجة أجنبية ، ويذهب ڤون كريمر الى رأى أبعد من ذلك ، فيقول إنهن كن يغنين بلسانهن اليونانى أو الفارسى لا باللسان العربى (٢) . وليس بين أيدينا ما يؤيد قول ليال من أنهن كن يغنين بلهجة أجنبية ، فضلا عما يقوله ڤون كريمر من أنهن كن يغنين بلسانهن الأجنبى ، بل على العكس تؤكد جميع النصوص التى رويت فى الأغانى وغيره أنهن كن يغنين باللسان العربى ، ففى أخبار النابغة أن أهل المدينة أمروا إحدى القيان أن تغنيه بشعر له ، كان فيه إقواء ، فعرف موضع خطئه ولم يعد إليه (٣) . وطبيعى أن تكون هذه القينة قد تعلمت العربية وأحسنت لهجتها حتى استطاع النابغة أن يفطن إلى موضع خطئه . وفى أخبار عمرو بن الإطنابة الخزرجى أنه دعا بشرابه وقيانه فتغنين له بقوله :

عللانى وعللا صاحبيًّا ... واسقيانى من المروَّق ريًّا

إن فينا القيان يعزفن بالد ... ف لفتياننا وعيشا رخيًّا (٤)

ويقال إنه كان فى المدينة دار للبغاء اتخذها عبد الله بن أبىّ وجلب إليها ستاً من الإماء ، وفيهنّ وفيه نزل قوله تعالى «ولا تكرهوا

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى الطبعة الثانية ص ٣٠ .

(٢) انظر كتاب فارمر السابق ص ١٢ وما بعدها .

(٣) أغانى طبع بولاق ٩/١٦٤ . (٤) نفس المصدر ١١/١٢١ .

فتياتكم على البغاء»[1] وأكبر الظن أنهن كن يغنين، ويحترفن الغناء.

وينبغي أن نعرف أنه لم تكن هناك قواعد مرسومة للغناء في العصر الجاهلي، فهؤلاء المغنون من قيان أو غير قيان لم يكونوا يتبعون نظاماً خاصاً في غنائهم، بل كان كل يغني حسب شعوره وعواطفه وما يريد من تأثير على سامعيه، إذ كان العرب لا يزالون أميل إلى الفطرة في حياتهم وفنونهم.

ونحن نرى من كل ما سبق أن الغناء كان شائعاً في المدينة منذ العصر الجاهلي، وأغلب الظن أنه كانت هناك دور خاصة به، فقد كان القوم يشغفون بالغناء، وكان يوجد في حياتهم العامة، كما كان يوجد في حياتهم الخاصة.

٢

الغناء في المدينة أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين

لم تنقطع المدينة عن الغناء في عصر الرسول والخلفاء الراشدين وإن كانت لم تسرف فيه، إلا أنها على كل حال كانت تأخذ منه بنصيب، وهناك أحاديث كثيرة تؤكد أن النبي لم يكن يحرم الغناء، بل على العكس لعله كان يبيحه، فقد أُثِرَ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت»، وقال أيضاً: «لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته»، وقال في معرض

---

(١) انظر تفسير الزمخشري (الكشاف) في سورة النور آية ٢٣.

المدح لداود عليه السلام: «إنه كان حسن الصوت فى النياحة وفى تلاوة الزبور[١]». وعما أثر عنه أيضاً أنه قال: «زينوا القرآن بأصواتكم» وقد استمع إلى أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن فأعجب به، وقال: لقد «أوتى مزماراً من مزامير آل دواد».[٢]

لم يكره النبى أن يؤدى أبو موسى الأشعرى وغيره القرآن بتطريب فى أصواتهم. وهو كذلك لم يكره هذا التطريب فى الأذان، بل لقد كان يدعو إليه، ولكن فى صورة بسيطة بحيث لا يخرج إلى التلحين الموسيقى وما يقترن به من معازف، فإن النبى كان يكره أن يتصل القرآن بمظهر من مظاهر الوثنية، ومن هنا فصلوا بين الترنم بالشعر فسموه غناء، والترنم بالقرآن فسموه تغييراً[٣].

على أنه ليس معنى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حرّم الغناء بالشعر، فقد رُوِىَ أنه سأل عائشة فى زواج بعض الأنصار: «هل أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت نعم، قال فبعثتم معها من يغنى؟ قالت لا، قال أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل؟!»[٤]. وروى أيضا أنه دخل بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يغنين فسمع إحداهن تغنى بما معناه: وفينا نبى يعلم ما فى غد، فقال صلى الله عليه وسلم: «دعى هذا وقولى ما كنت تقولين»[٥]. وروى ابن عبد ربه أنه مر بجارية وهى تغنى:

---

(١) الغزالى ٢/٢٤٩.
(٢) نفس المصدر ٢/٢٧٤.
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥٦.
(٤) ابن عبد ربه ٣/٢٣١.
(٥) زالى ٢/٢٧٧.

هل على ويحكم إن لهوت من حرج

فقال صلى الله عليه وسلم لا حرج إن شاء الله [١] . وهناك حديثان يرويان عن عائشة ، وهما يدلان على عدم كراهية النبي للغناء ، أما الحديث الأول ففيه أن أبا بكر دخل عليها فى أيام منى ، وعندها جاريتان تدففان ، وتضربان ، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر رضى الله عنه . فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد [٢] . وأما الحديث الثانى فتروى فيه عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان بغناء بُعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، فدخل أبو بكر ، فانتهرهما ، وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : دعهما [٣] .

وهذه كلها أحاديث تؤيد أن النبي لم يكن يحرم الغناء ، أما ما روى من أنه أمر بقتل قينتين يوم فتح مكة ، وهما قينتا ابن خطل ، فإن ذلك يرجع إلى أنهما كانتا تغنيان بهجائه ، وقد فرت إحداهما ، وقتلت الأخرى [٤] . لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما إذن لأنهما مغنيتان ، وإنما أمر بقتلهما لأنهما كانتا تغنيان بشعر فيه هجاء له وللإسلام . ولعل مما يدل على عدم نهيه عن الغناء ، وأنه لم يكن يدعو ضده ، أننا نجد الأعشى حينما يفد عليه ليمدحه يرصده رجال قريش حتى إذا مر بهم تعرّضوا

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٣١ .
(٢) غزالى ٢/٢٥٤ .
(٣) غزالى ٢/٢٥٥ .
(٤) ابن هشام ٤/٥٢ .

له قائلين أين أردت يا أبا بصير ؟ قال : أردت صاحبكم لأسلم ، فقالوا إنه ينهاك عن خلال، ويحرمها عليك، وكلها بك رافق، ولك موافق، فلما سألهم عن هذه الخلال، ما هن؟ قال أبو سفيان بن حرب ، الزنا والقمار والربا والخمر [١]، ولم يذكر الغناء بين هذه الخلال ، ولو كان النبي حرمه لذكره حتى يردَّ الأعشى ، إذ كان مغنيا يغنى أشعاره على الصنج ولذلك سمى صناجة العرب [٢].

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يحرم الغناء ، ولا كان يدعو إلى نبذه . أما ما شاع بعد ذلك من كراهية الغناء فانما جاء متأخراً ومتأثراً بآراء شخصية لبعض الصحابة والتابعين من مثل عبد الله بن عمر وابن مسعود [٣] . وهكذا أخذ الناس مع مر الزمن يختلفون فى الغناء وفى إباحته وتحريمه . ويقول ابن عبد ربه : « اختلف الناس فى الغناء فأجازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق » [٤] . وقد أخذ رأى أهل العراق يسود فى العصور المتأخرة وخاصة عند المتشددين ، وقد عقد الغزالى فصلا طويلا فى الإحياء دلل فيه من وجوه كثيرة على إباحته ، وأنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس [٥].

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٩/١٢٥ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ٩/١٠٩ وانظر Nicholson : A Literary History of Arabs, p. 133.

(٣) غزالى ٢/٢٦٣ وانظر ابن عبد ربه ٣/٢٣١ حيث تجد سعد بن أبى وقاص يتغنى وهو محرم . (٤) ابن عبد ربه ٣/٢٣٠ (٥) غزالى ٢/٢٤٨

على كل حال لم يكن الغناء محرما فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا تركنا عصره إلى عصر أبى بكر وعمر وجدنا المدينة مشغولة بالحروب والفتوح ، وقد تم لها الغلب على الإمبراطورية الفارسية وعلى كثير من أطراف الإمبراطورية الرومانية ، ولا نكاد نسمع فى عصر أبى بكر شيئاً عن الغناء والمغنين سوى ما ذكره الطبرى والبلاذرى من أن المهاجر لما أخضع اليمن قطع أيدى الثنجاء الحضرمية وهند بنت يامين اليهودية ، ونزع أسنانهما ، حتى لا تغنيا ، ولم يصنع ذلك لأنهما كانتا تغنيان فقط ، وإنما لأنهما كانتا تغنيان أغانى ، فيها هجاء للمسلمين وذم للإسلام (١) .

وقد مر بنا فى حديث عائشة أن أبا بكر كان ينكر الغناء عندها ، ويظهر أنه كان يكرهه ، وكذلك كان يكرهه عمر ، وربما كان ذلك أحد الأسباب التى جعلت الغناء لا يشيع فى عصرهما . روى ابن الفقيه أن عمر خرج يوماً فإذا جوار يضربن بالدف ، ويغنين ، ويقلن :

تغنين تغنين فللهو خلقتن

فجعل عمر يضرب رءوسهن بالدرة ويقول : كذبتن ، كذبتن ، فأخزى الله شيطاناً رمى هذا إليكن (٢) . على أن عمر ربما لم يضربهن للغناء من حيث هو ، وإنما ضربهن لدعوتهن إلى اللهو وقولهن «للهو خلقتن» . وقد روى أنه استمع إلى ابنه عاصم وآخر ، وهما يغنيان غناء النصب ، فقال : أعيدا على ، فأعادا عليه ، فقال لهما : أنتما كحمارى العبادى قيل له : أى حماريك شر ؟ قال ذا ثم ذا (٣) .

---

(١) الطبري : القسم الأول ص ٢٠١٤ والبلاذرى ص ١٠٢ .
(٢) ابن الفقيه ص ٤٣ . (٣) ابن عبد ربه ٣/٢٣١ .

ومهما يكن فإن عمر كان متشدداً كسلفه ، فلم يتسع الغناء فى عصره ولا فى عصر أبى بكر ، إنما اتسع ، أو قل أخذ يتسع ، فى عصر عثمان فقد اكتظت المدينة بجماهير الأسرى التى أخذت تتعرب ، كما اكتظت بالكنوز والأموال العظيمة ولم تظهر نتائج ذلك فى عصر عمر ، وإنما ظهرت فى عصر عثمان ، إذ هدأت الفتوح ، وأخذ العرب يستجمون منها ، وقد حاولوا أن يهيئوا لأنفسهم شيئاً من الحضارة التى رأوها فى البلاد الأجنبية .

تحولت معيشة العرب إذن ، فقد أصبحت المعيشة الفخمة مألوفة لا فى العراق وسوريا ، بل فى المدينة نفسها ، إذ أخذت تتحضر بألوان الحضارة التى رآها العرب فى الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية ، فقد جاءوا بها إليها ، كما جاء بها الأسرى من فرس ومصريين وشآميين .

وقد بنى أشراف المدينة القصور على ما قدمنا ، وأخذت هذه القصور ، منذ عثمان ، تكتظ بالمغنين الذين جلبهم أهل المدينة من قريش والأنصار اليها . فكل شخص كان يأتى لنفسه بمغن أو مغنية ، وأحياناً يأتى بجوقة من المغنين أو المغنيات . روى صاحب الأغانى أن عبد الله ابن عامر والى عثمان على البصرة اشترى إماء صناجات وأتى بهن المدينة فكان لهن يوم فى الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن وأخذوا عنهن[1] .

وممن عرف بالغناء من الأجانب فى عصر عثمان طُوَيس المغنى[2] وهو أول من غنى بالعربية فى المدينة من الموالى وألقى الخنث بها[3] .

---

(١) أغانى ٨/٣٢١ .
(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٤١ .
(٣) أغانى ٣/٢٧ .

ومن مغنى هذا العصر قند ، وهو مولى لسعد بن أبى وقاص ، ويُرْوَى أنه ضربه فحلفت عائشة أم المؤمنين لا تكلمه ، حتى يرضى عنه قند ، فاسترضاه (١) .

وهكذا أخذت المدينة تستعد — بفضل هؤلاء الموالى الأجانب — لأن تصبح أهم مركز للغناء فى العصر الأموى . وتوقفت هذه الحركة قليلا فى عصر على لانشغال أهل المدينة بالحرب بين على ومعاوية ولكن لم تلبث الأمور أن هدأت ، فأقبلت المدينة على الغناء ، تسترد منه ما فاتها ، وقد حاولت حينئذ أن تشرب ما فى الكأس حتى الثمالة .

٣

المدينة أهم مراكز الغناء فى العصر الأموى

من المعروف أن الحجاز عنى بالغناء فى العصر الأموى عناية بالغة فقد طلبه أشرافه منذ عصر عثمان واهتموا به اهتماماً شديداً ، حتى أصبح إقليمهم أشهر الأقاليم العربية به . وفى الأغانى نصوص كثيرة تدل على أن أهل العراق لم يكونوا يعجبون بالغناء (٢) ، مع أن أحد وعاظهم ، وهو الحسن البصرى ، أثر أنه قال : نعم العون الغناء على طاعة الله ، يصل الرجل به رحمه ، ويواسى صديقه (٣) . أما الشام فإنها

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .

(٢) انظر الأغانى ١/٧١ وكذلك ٦/٣٣٩ .

(٣) ابن عبد ربه ٣/٢٣٢ ولم يعرف للعراق مغن مشهور فى هذا العصر سوى حنين ، انظر أغانى ٢/٣٤١ وما بعدها .

أيضا لم تعن بالغناء فى أوائل هذا العصر ، إذ كان معاوية لا يعجب به على ما يظهر . وقد اضطر عبد الله بن جعفر أن يقدم له مغنياً على أنه شاعر[١] . وأول من اتخذ الغناء وآوى المغنين من بنى أمية يزيد بن معاوية ، فقد طلبهم من المدينة ، وذهب إليه سائب خاثر[٢] مولى عبد الله بن جعفر .

لم تعن الشام بالغناء فى أول الأمر ، واستمرت العراق لا تعنى به طوال هذا العصر إلا قليلا . وأما الحجاز فقد غرقت فيه إلى ذنبها ، وكانت المدينة أسبق مدن الحجاز إلى العناية بالغناء ، فقد رأينا أنها أخذت تعنى به منذ عصر عثمان ، إذ ظهر طويس وقِنْد وغيرهما . أما ما يزعمه المسعودى من أن الغناء لم ينمُ فى المدينة ومثلها مكة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية[٣] فغير صحيح ، لأن النصوص التى تحت أيدينا تنكره بالنسبة للمدينة على الأقل .

ونحن لا نسمع عن مغن أجنبى فى مكة فى أثناء عصر الخلفا الراشدين ، ولعل فى هذا ما يؤكد أن المدينة سبقت إلى العناية بالغناء ، وهذا طبيعى ، لأنها هى التى سبقت إلى الثراء من الفتوح ، وهى أيضا التى سبقت إلى اتخاذ الرقيق ، وقد كانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ، فأسرعت اليها هذه الموجة من موجات الترف .

---

(١) أغانى ٣٢٣/٨ ، ولا نعرف للشام مغنيا مشهوراً قبل أبى كامل الغزيل مغنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك انظر أغانى طبع دار الكتب ٩١/٧ .

(٢) أغانى ٣٢٤/٨ .

(٣) المسعودى ١٥٧/٥ .

ومع ذلك فإن مكة لم تلبث أن عنيت بالغناء وأصبحت تنافس المدينة فيه ، فظهر عندها ابن مسجح[١] وتلاميذه . ولكن ينبغى أن نعرف أن المدينة ظلت هى المركز الأول فى الحجاز للغناء والمغنين وتخريجهم . ولعل مما يدل على ذلك دلالة واضحة أن نجد خلفاء دمشق يطلبون مغنيهم غالبا من المدينة ، بل إننا نجد مكة نفسها تطلب مغنيها من المدينة[٢] .

ومن المؤكد أن المدينة امتازت فى الغناء هذا الامتياز بسبب كثرة الموالى فيها منذ عصر الخلفاء الراشدين ، وساعد على ذلك أن أشرافها ونبلاءها كانوا يطلبونه ، بل نرى منهم من جعل داره أشبه بفندق للمغنين ، على نحو ما هو معروف عن عبد الله بن جعفر سيد بنى هاشم ، فقد كان الناس يؤمون داره لسماع من بها من المغنيات والمغنين[٣] .

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد فى المدينة إلا وكان يعجب بالغناء ، حتى ليقول صاحب الأغانى إن الغناء فى المدينة لا ينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم[٤] . وقد استمرت المدينة مشهورة بذلك حتى العصر العباسى إذ نرى أبا يوسف يقول لبعض أهلها : « ما أعجب

---

(١) انظر أغانى ٣/٢٧٦ وما بعدها .

(٢) فابن سريج أهم مغنيها بعد ابن مسجح أصله من المدينة . انظر ابن عبد ربه ٣/٢٤٢ حيث يجعله تلميذ الطويس وانظر أغانى ١/٢٤٩ وكذلك ١/٢٥١ حيث يجعله مولى لعبد الله بن جعفر . وكذلك كانت مكة تطلب بعض المغنيات من المدينة ، انظر أغانى ٨/٣٢٥ .

(٣) المسعودى ٥/٣٨٥ .

(٤) أغانى ٨/٢٢٤ .

أمركم يا أهـــل المدينة فى هـذه الأغانى ! ما منكم شريف ولا دنىء يتحاشى عنها [١] » . ويروى أبو الفرج أن العقيق كان إذا سال ، وأخذ المغنون يلقون فيه أغانيهم ، لم تبق فى المدينة مخبأة ، ولا شابة ، ولا شاب ، ولا كهل ، إلا خرج يبصره [٢] » .

وقد أخذ المغنون يؤلفون طبقة ممتازة فى هذا العصر ، ولا نعرف أكانت لهم نقابة أو لا ، لكن على كل حال كانت لهم جماعة ممتازة بسبب رقى فنهم ، لا بسبب احتقار العرب لصنعتهم ، فإننا نجد كثيراً من العرب يطلبون الغناء ، وقد برع فيه أثناء هـذا العصر مغن عربى معروف هو مالك بن أبى السمح الطائى . وقد حدث حسين بن دَحمان الأشقر قال : « كنت بالمدينة ، فخلا لى الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى :

مابالُ أهلكِ يا رباب ُ خُزُراً كأنهمُ غضابُ

قال : فإذا سَوْداء قد فتحت ، وإذا وجه قد بدا ، تتبعه لحية حمراء ، فقال : يا فاسق أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة ، ثم اندفع يغنيه ، فظننت أن طويسا قد نشر بعينه ، فقلت له : أصلحك الله من أين لك هـذا الغناء ؟ فقال : نشأت ، وأنا غلام حدث ، أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لى أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء ، واطلب الفقـه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء . . فقلت له : فأعد جعلت

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٣٣ . (٢) المصدر السابق ٣/٢٤٥ .

فداءك فقال : لا ، ولا كرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك بن أنس ، وإذا هو مالك بن أنس ، ولم أعلم (١) . وحدث غير ابن دحمان أنه رأى مالكا يغنى فى عرس ابن حنظلة الغسيل (٢) .

وهذا دليل واضح على أنّ العرب كانوا يجلّون الغناء فى هذا العصر ، ويبجّلونه . وقد أخذ يظهر فيه بوضوح عنصر الرجال من الموالى الأجانب ، ولم يكن هذا العنصر معروفا فى العصر الجاهلى ، إنما كان المعروف عنصر القيان ، أما فى هذا العصر فكان القيان ، وكان بجانبهم الرجال من الموالى . وقد تميزوا أول الأمر بأنهم كانوا من المخنثين (٣) ، وهى جماعة من الرجال كانت تذهب مذهب النساء ، فتلبس ملابسها ، وتقلدها فى عاداتها . وأول محترف للموسيقى والغناء فى المدينة كان من هذه الجماعة ، وهو طويس (٤)

على أن موجة الغناء لم تلبث أن اتسعت ، فشملت جماعات أخرى من الموالى غير المخنثين ، كما شملت جماعات من العرب أنفسهم ، بحيث نرى عمر بن عبد العزيز ، وهو والى على المدينة ، يصنع مجموعة من الأصوات يسجلها له صاحب الأغانى (٥) . وهكذا مع مضى الزمن أصبح الغناء فى المدينة عملا شريفا بحيث نجد كثيراً من العرب والموالى الممتازين

---

(١) أغانى ٤/٢٢٢ . (٢) ابن عبد ربه ٣/٢٣٣ وانظر أغانى ٢/٢٣٨ .
(٣) نفس المصدر ٤/٢٧٣ . (٤) أغانى ٣/٢٧ . (٥) أغانى ٩/٢٠٠ .

يقبلون عليه، فكان مالك بن أبى السَّمح الطائى يحترف الغناء، وكان البُرْدان، وهو مولى كان يتولى السوق فى المدينة ويحكم بين الناس، يحترف الغناء كذلك، وكان مَعْدَلا مقبول الشهادة[1]. وكان دَحمان صالحا كثير الصلاة، وهو من مغنى المدينة، ويُرْوَى أنه شهد، عند عبد العزيز ابن المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومى وهو يلى القضاء، لرجل من أهل المدينة على رجل من أهل العراق بشهادة، فأجازها وعدله، فقال له العراقى: إنه دحمان! قال: أعرفه، ولو لم أعرفه لسألت عنه، قال: إنه يغنى ويعلم الجوارى الغناء! قال: غفر الله لنا ولك، وأينا لا يَتَغَنَّى»[2].

وهكذا كان فقيه المدينة مالك بن أنس يتغنى، وكان قاضى المدينة ابن حنطبة يتغنى، وكان والى المدينة عمر بن عبد العزيز يتغنى. ويظن الإنسان أنه لم يبق فى المدينة أحد إلا وكان يتغنى، فإن لم يتغنَّ كان يستمع إلى الغناء، ويعجب به.

اندفع الموالى وغير الموالى فى المدينة من رجال ونساء يتغنون، واشتهر من الرجال كثيرون. وقد عقد لهم صاحب الأغانى فصولا طويلة فى كتابه، واهتم بتسجيل أخبار كثير منهم وأصواتهم، وعلى رأسهم طُوَيْس وسائب خاثر والدلال ومعبد وابن عائشة ومالك ابن أبى السمح الطائى ويونس الكاتب ودحمان وعطرَّد، وغيرهم كثير.

---

(١) أغانى ٨/٢٧٧.
(٢) نفس المصدر ٦/٢١.

أما النساء فكان على رأسهن عزة الميلاء ، وكان لها دار يقصدها أهل المدينة لسماع الغناء . ويلى عزة جميلة ، وكان لها الدار الكبرى للغناء فى المدينة . ويروى صاحب الأغانى أنها خرجت تحجّ ، ويصف موكب حجها . ويدل وصفه دلالة واضحة على مدى ما بلغته المدينة فى هذا العصر من ازدهار فن الغناء بها ، فقد خرجت جميلة فى مهرجان كبير يضم مجموعة من شعراء المدينه على رأسها الأحوص ، كما يضم مجموعة من المغنين والمغنيات ، أما المغنون فكان على رأسهم هيت والدلال وطويس وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ، وفند ، ورحمة ، وهبة الله ، ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير ، وأما المغنيات فكان على رأسهن الفرهة وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وخليدة وعقيلة والشماسية وفرعة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء . وقد كان فى ركبها لأهل المدينة من القيان زهاء خمسين قينة . ولما دنا هذا الركب من مكة استقبله مغنوها وعلى رأسهم ابن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز ، كما استقبله شعراؤها ، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة .

ويتهم أبو الفرج هذا الخبر[1] ، ومع ذلك فهو يرويه عن يونس الكاتب ، وهو أول من ألف فى الغناء ، وقد كان أحد شهود هذا المهرجان ، فلا مفر إذن من قبوله . ولا ريب فى أنه يصور مبلغ

---

(١) أغانى ٨/٢٠٨ .

ما وصلت إليه المدينة من أهمية هذا العصر فى فن الغناء ، فإن أصحابه يعدون فيها بالعشرات رجالا ونساءً . وقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يغنون الناس فى المدينة بدون ستارة تفصل بينهم ، فصاحب الأغانى يروى أن جميلة غنت عبد الله بن جعفر وجماعة كانوا معه بدون ستارة ؛ إذ ظهرت أمامهم هى وجواريها[١] ، وكذلك يروى أن عزة الميلاء غنت فى بيت سُكينة بنت الحسين أمام الجمهور بدون ستارة[٢] ، ويظهر أن الستارة كانت توضع إذا اجتمع الرجال والنساء للسماع ، ففى أخبار عائشة بنت طلحة أنها أقامت حفلا دعت فيه نبيلات قريش ونبلاءها ، وغنت فى هذا الحفل عزة الميلاء ، وكانت هناك ستارة تفصلها هى والنساء عن الرجال[٣] . وواضح أن الستارة اتخذت هنا من أجل النساء ، لا من أجل عزة .

٤

الغناء فى المدينة يصبح فنا له مصطلحاته وتقاليده

وهذه الجماعات الكثيرة التى احترفت الغناء لم تلبث أن حولته إلى فن له مصطلحاته وتقاليده . وكان أول من حاول السير فى هذه الطريق طُوَيْس شيخ المغنين فى المدينة ، فقد قال صاحب الأغانى : إنه أول من

---

(١) أغانى ١٩٧/٨ . (٢) أغانى طبع بولاق ١٣٢/١٥ وما بعدها.
(٣) نفس المصدر ٥٧/١٠ .

غنّى الغناء المتقن، وقال أيضا : إنه أول من صنع الهزج والرمل فى الإسلام [١] . ولا ريب فى أن هذا الغناء المتقن الجديد كان يخالف الغناء العربى القديم ، الذى كان يعتمد فى أغلب الأمر على عروض الشعر وذوق المغنى ، وقلما ذهب فيه المغنون إلى التلحين والتوقيع توقيعا يقوم على مصطلحات خاصة . ويقول ابن الكلبى إن غناء العرب قديما كان على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، فأما النصب فهو أغانى الركبان والقينات ، وأما السناد فهو أنغام ثقيلة ، وأما الهزج فهو غناء خفيف [٢] .

وواضح من كلام ابن الكلبى أنه يريد بالسناد والهزج الغناء الإسلامى الحديث ، أو كما يسميه صاحب الأغانى الغناء المتقن ، فالسناد هو الغناء الثقيل ، والهزج ضرب من الغناء الخفيف . وقد رأينا أبا الفرج ينسب الهزج إلى طويس ، وقد نسب الغناء الثقيل إلى سائب خاثر ، فقال إنه أول من غنى بالعربية الغناء الثقيل [٣]، وروى بجانب ذلك أن عزة الميلاء أول من غنت من النساء الغناء الموقع [٤] ، وهو يقصد هذا الغناء الجديد الذى يسميه تارة المتقن وتارة الموقع .

وقد أخذ هذا الغناء الموقع ينوع إلى ستة ضروب تجدها منتشرة فى أخبار مغنى المدينة لهذا العصر ، وهى : ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف الثقيل ، ورمل ، وخفيف الرمل ، وهزج . وهى ضروب ترجع

---

(١) أغانى ٤/٢١٩ .
(٢) المسعودى ٨/٩٣ .
(٣) أغانى ٨/٣٢٢ .
(٤) أغانى ١٦/١٠٣ .

إلى نوع النقرات، فقد تكون ثقيلة، والثقيلة على ألوان، وقد تكون خفيفة، والخفيفة على ألوان أيضا. وقد ميّزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع، فقالوا ثقيل أول بالوسطى، وخفيف ثقيل بالسبابة، وخفيف رمل بالبنصر، أو يقولون رمل بالسبابة فى مجرى البنصر ونحو ذلك مما نقرؤه فى الأغانى منسوبا إلى مغنى هذا العصر (١).

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن هذه المصطلحات التى تمت لفن الغناء وأصبح بها فنا قائما له رسومه إنما تكونت تحت أيدى الموالى، فهل معنى ذلك أن الغناء العربى تحول هذا التحول تحت تأثير نظريات جديدة أتته من الخارج؟.

هناك نصوص كثيرة فى الأغانى تثبت صلة واضحة بين هذا الغناء العربى وبين الغناء الأجنبى، فأبو الفرج يذكر أنه كان هناك إماء صنّاجات أحضرهن عبدالله بن عامر والى البصرة فى عصر عثمان، وكان لهن يوم فى الأسبوع يغنين فيه الناس (٢)، وربما تأثر بهن طويس، وربما تأثر بمغنين من الفرس لم يذكرهم أبو الفرج. على أنه ذكر مغنيا فارسيا، يسمى نشيطا، اشتراه عبد الله (٣) بن جعفر، وكان يغنى فى المدينة الغناء الفارسى، ويقول إن سائب خاثر أخـــذ عنه غناءه

---

(١) فى مسالك الأبصار نص طريف نزلت فيه ألقاب الأنغام والأصوات التى فى كتاب الأغانى على ألقاب المحدثين فى عصر صاحب الكتاب وأنغامهم من أصبهان وزيلكفند وزنكلاوراهوى وحسينى. انظر المسالك، نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية، الجزء الأول من المجلد السادس الورقة ٢.

(٢) أغانى ٨/٣٢١. (٣) نفس المصدر والصفحة وانظر نفس المصدر ١/٣٨.

الفارسى ، كما أخذ هو عن سائب خاثر الغناء العربى [١] . وفى ترجمة عزة يقول أبو الفرج إن نشـــيطا وسائب خاثر قدما المدينة ، فغنيا أغانى بالفارسية ، وأخذت عزة عنهما أنغاما ، وألفت عليها ألحانا [٢] .

وقد احتذى مغنو مكة حذو مغنى المدينة فى التأثر بالغناء الفارسى ، فأبو الفرج يروى أن ابن مسجح أقدم المغنين هناك استمع إلى الفرس يغنون ، وهم يبنون المسجد الحرام فى عصر ابن الزبير ، فنقل غناءهم من الفارسية إلى العربية [٣] . ويقول إن عود ابن سريج كان على صنعة عيدان الفرس ، وإنه أول من ضرب بالعود الفارسى فى مكة على الغنـاء العربى [٤] . ويروى أبو الفرج أيضا أن ابن محرز شَخَصَ إلى فارس ، فتعلم ألحان الفرس ، وكذلك شَخَصَ إلى الشام فتعلم ألحان الروم وألّف بين ذلك ، ونقله إلى الغناء العربى [٥] .

وإذن فهناك صلة مؤكدة بين الغنـاء العربى الذى شاع فى المدينة بل فى الحجاز كله ، وبين الغنـاء الأجنبى الفارسى والرومى . على أنه ينبغى ألا نبالغ فى هذه الصلة فنزعم أن العرب نقلوا نظريتهم الغنائية فى هذا العصر من لدن الأجانب . حقا هم تأثروا بهم ، ولـكنهم لم يذوبوا فى غناء غيرهم ، ولعل من طريف ما يلاحظ فى هذا الصدد أن المغنين مع أنهم كانوا من الأجانب لم يولدوا فى بلادهم ، وإنما ولدوا فى بلاد العرب ، أو على الأقل نشأوا فيها ، ما عدا مغنيا واحدا هو نشيط الفارسى .

---

(١) أغانى ٨/٣٢١ . (٢) أغانى ١٦/١٣ . (٣) أغانى ٣/٢٧٧ .
(٤) نفس المصدر ١/٢٥٠ . (٥) نفس المصدر ١/٣٧٨ .

وأيضا فإن هؤلاء المغنين الأجانب ، الذين تتردد أسماؤهم فى الأغانى والذين تمت تحت أيديهم وألسنتهم نظرية الغناء العربية الجديدة ، كانوا يبدأون دائما بالغناء العربى ، ثم يتعلمون الغناء الأجنبى بعد ذلك كما تعلم ابن محرز فى بلاد الفرس والشام . ونفس مصطلحات الغناء فى هذا العصر التى تتردد فى كتاب الأغانى كلها من الألفاظ العربية ، وإن فى هذا كله ما يشير إلى أن التأثير الأجنبى لم يكن واسعا . وأيضا فإن الآلات الموسيقية التى تتردد مع المغنين الأمويين أكثرها قديم من مثل الصنج والمزهر والقضيب والدف والطبل والمزمار وحتى العود والطمبور يظن أنهما عرفا فى العصر الجاهلى .

والحق أنه ينبغى أن لا نبالغ فى التأثير الأجنبى ، وما أثر به الغناء الرومى والفارسى فى الغناء العربى أثناء العصر الأموى ، فإن ذلك لم يتجاوز ، فى الأعم الأغلب ، بعض ألحان رومية وفارسية انتقلت إلى الغناء العربى . ونحن لا نجد للروم مغنيا فى الحجاز أثناء هذا العصر ! وربما كان التأثير الفارسى أهم ، وقد نقل العرب بعض ألحان من غناء عمالهم الذين استخدموا فى بناء الكعبة وبناء بعض القصور[1] ، وكان منهم نشيط الفارسى المغنى المشهور . ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول إن العرب استعاروا نظريتهم فى الغناء من الفرس . أما ما يزعمه ابن خرداذبه من أن العرب نقلوا الإيقاع منهم[2] ، فليس عليه دليل ،

---

(١) أغانى ٣/٢٨١ . (٢) المسعودى ٨/٩٠ .

خاصة إذا عرفنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن فى الشعر ، فإن هذه النظرية إنما انتقلت إليهم من العرب على نحو ما هو معروف فى تاريخ اللغة الفارسية الحديثة . وربما كان من أوضح الأدلة على ما نزعمه أن الحيرة ، وهى أقرب إلى بلاد الفرس من المدينة ومكة ، لا نجدها تأخذ شيئا واضحا من الغناء الفارسى ! وقد كان المعقول أن تكون أسرع إلى التأثر بالغناء الفارسى ، ومع ذلك فإننا لا نجد فيها هذا العصر سوى النَّصْب الذى عرف عن العرب منذ العصر الجاهلى ، ولذلك لم يدوَّن شىء من غناء أهلها لسقوطه ، وأنه ليس من أغانى الفحول[1] . ولعل فى هذا كله ما يدل على أن العرب لم ينقلوا من الفرس ولا من الروم نظريتهم الغنائية ، إنما نقلوا بعض الألحان . وبعض الأنغام وبعض الأدوات الموسيقية وخاصة فى العصر العباسى وقد عرض المسعودى لهذه الآلات فى كتابه مروج الذهب بالتفصيل[2] .

وإن من يقرأ أخبار جميلة فى الأغانى يلاحظ أن الغناء تمَّ له فى بيتها كل ما يتصوره الإنسان من رقى ، إذ كانت تغنى بمصاحبة جوقة كبيرة تضرب على العيدان والأوتار ، حتى لتبلغ الجوقة أحيانا خمسين نفرا ، وكانت تضرب فى أثناء غنائها ، وتضرب الجوقة على ضربها[3] . وكما عرف بيت جميلة الغناء المصحوب بجوقة كبيرة ، عرف كذلك الغناء المصحوب

---

(١) أغانى ٢/٣٥٢ .
(٢) المسعودى ٨/٩٠ وما بعدها .
(٣) أغانى ٨/٢١٨ .

بالرقص . روى أبو الفرج أنها جلست يوما ولبست بُرْنسا طويلا ، وألبست من كان عندها برانس دون ذلك . . . ثم قامت ، ورقصت وضربت بالعود ، وعلى رأسها البرنس الطويل ، وعلى عاتقها بُرْدَة يمانية ، وعلى القوم أمثالها ، وقام ابن سريج يرقص ومعبد والغريض وابن عائشة ومالك ، وفى يد كل منهم عود ، يضرب به على ضرب جميلة ورقصها ، فغنت وغنى القوم على غنائها ، ثم دعت بثياب مصبَّغة ، ودعت للقوم بمثل ذلك فلبسوا ثم ضربت بالعود وتمشَّت ، وتمشى القوم خلفها ، وغنت وغنوا بغنائها بصوت واحد[١] .

والحق أن المدينة لم تكد تبْقى للعصور التالية شيئا جديدا تضيفه إلى نظريتها الغنائية ، فإن الغناء بلغ فيها أثناء هذا العصر الأموى كل ما كان يحلم به العربى . ولعلنا بعد ذلك لا نعجب حين نسمع عن تأثر الناس بغناء مغنيها تأثرا يفوق الوصف ، إذ كان بعضهم يخر مغشيا عليه[٢] ، وكان بعضهم يصفق ويرقص[٣] . وقد سمع ابن أبى ربيعة صوتا من جميلة فبلغ به سحر الصوت أن شق جَيْبَ قميصه إلى أسفله فصار قَباء ، وهو لا يدرى[٤] . وغير ابن أبى ربيعة كان إذا سمع جميلة يجد شيئا يضغط قلبه ويحرقه فلا يملك عينه[٥] . ويُرْوَى أن مولى حبابة إحدى تلميذات جميلة بعد أن باعها إلى يزيد بن عبد الملك سمعها عنده

---

(١) أغانى ٨/٢٢٧ .
(٢) ابن عبدربه ٣/٢٥٧ .
(٣) أغانى ٤/٢٧٧ .
(٤) نفس المصدر ٨/٢٠٦ .
(٥) نفس المصدر ٨/٢٠٩ وكذلك ٨/٢٣٥ .

وكان بجواره شمعة فعرّض لحيته لها، فاحترقت من شدة الطرب، وهو لا يدرى[١]. ومن غريب ما يروى أن قاضى المدينة محمد بن عمران التَّيْمى استمع يوما إلى جارية عنده، تغنى، فوثب إلى نعله، فعلقها فى أذنه من شدة الطرب، وحَبَا على ركبتيه، وأخذ بطرف أذنه والنعل فيها، وجعل يقول: أهدونى أنا بدنة، أهدونى أنا بدنة![٢]. وإن فى هذا ما يفسر تولّه بعض العبّاد والنساك بهؤلاء المغنين والمغنيات، فقد حذقوا فنهم حذقا شديدا، وقصة عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمِى، الذى كان يلقب بالقَسّ لعبادته وفتنته بسلامة حتى سميت سلامة القس، شائعة معروفة[٣]. ويروى صاحب الأغانى أنه كان بالمدينة ناسك من أهل العلم والفقه، وكان يغشى عبد الله بن جعفر، فسمع جارية مغنية لبعض النخاسين تغنى (بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا) فاستهتر بها، وهام، وترك ما كان عليه... وبلغ عبد الله بن جعفر خبره، فبعث إلى النخاس، فاعترض الجارية، وسمع غناءها بهذا الصوت، وقال ممن أخذته؟ قالت: من عزة الميلاء، فابتاعها بأربعين ألف درهم، ثم بعث إلى الرجل، فسأله عن خبره، فأعلمه إياه وصدقه عنه، فقال له: أتحب أن تسمع هذا الصوت ممن أخذته عنه تلك الجارية، قال نعم، فدعا بعزة، وقال لها: غنيه إياه، فغنته، فصعق الرجل وخرّ مغشيا عليه... وأهدى عبد الله بن جعفر الجارية إليه[٤].

---

(١) أغانى ١/٣١٦.
(٢) نفس المصدر ٦/٣٣٨.
(٣) نفس المصدر ٨/٣٣٤ وما بعدها.
(٤) أغانى ١٦/١٩.

وهذا السحر إنما بلغته مغنيات المدينة بفضل إحسانهن للغناء حتى ليقال إن دحمان اشترى جارية بمائتى دينار وعلمها الغناء فباعها بعشرة آلاف دينار [١] . وقد اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة بعشرين ألف دينار [٢] ، واشترى حبابة بأربعة آلاف دينار [٣] . وإن من يرجع إلى أخبار المغنين فى كتاب الأغانى يجد خلفاء الأمويين منذ الوليد بن عبد الملك يستقبلونهم استقبالا ، لعله يتفوق على استقبالهم للشعراء ، إذ كانوا يجيزونهم جوائز جزيلة . ومما يروى فى هذا الجانب أن يزيد بن عبد الملك وفد عليه معبد ومالك بن أبى السمح وابن عائشة ، فأمر لكل منهم بألف دينار [٤] وقد توسع الوليد بن يزيد فى جوائز المغنين ، فيقال إنه أعطى معبداً اثنى عشر ألف دينار [٥] ، وقد استقدم جميع مغنى الحجاز ، وأجازهم جوائز كثيرة [٦] . وهكذا كانت الدولة تعترف بالغناء وأصحابه .

ولا ريب فى أن هذا التقدير كله إنما يرجع إلى ما أحرزه المغنون والمغنيات فى هذا العصر من مهارة وتفوق فى فن الغناء . وقد توّج هذه النهضة يونس الكاتب تلميذ معبد بكتاب فى الأغانى التى كانت متداولة فى عصره ، وهو أول من دوّن الغناء ، ويقول أبو الفرج : كتابه فى

---

(١) أغانى ٦/٢٥ .
(٢) نفس المصدر ٨/٣٤٣ .
(٣) أغانى ١٣/١٥٦ .
(٤) أغانى ٥/١٠٩ .
(٥) أغانى ١/٥٥ .
(٦) نفس المصدر ٥/١١١ .

الأغانى ونسبها إلى من غنى فيها هو الأصل الذى يعتمد عليه ويرجع إليه [١] . وهكذا أتيح لهذه الحركة أن يسجلها أحد أصحابها فى عصرها . ومن هنا كانت أخبار المغنين فى هذا العصر الأموى وما غنوا فيه ، كل ذلك لا سبيل إلى تهمته ، إلا إذا قامت قرائن واضحة ، وسنعرض فى إيجاز لأشهر مغنى العصر فى المدينه ومغنياته .

٥

أشهر المغنين فى المدينة

كان المغنون فى هذا العصر بالمدينة كثيرين كثرة مفرطة ، وقد ترجم صاحب الأغانى لكثيرين منهم ، ولكنا سنكتفى بالحديث عن مشهوريهم ، لأننا نعتقد أنهم أثروا فى الشعر العربى آثاراً كبارا . ولعل أشهر المغنين حينئذ طويس وسائب خاثر ومعبد وابن عائشة ويونس الكاتب ومالك بن أبى السمح الطائى

طويس

من موالى بنى مخزوم ، وطويس لقبه ، واسمه عيسى بن عبد الله ، وكنيته أبو عبد المنعم . وكان طويلا أحول ويقول ابن بدرون :

---

(١) أغانى ٤/٣٩٨ .

إنه اشتهر فى عصر عثمان [١] ، وكان لا يضرب بالعود ، وإنما ينقر بالدف [٢] ، وكان يضحك كل ثكلى حرّى . ويقول أبو الفرج إن أول غناء غناه ، وهزج به :

قد برانى الحبُّ حتى كدت من وجدى أذوبُ [٣]

وهو أول من تغنى فى المدينة غناء يدخل فى الإيقاع [٤] ، وهو ما يسميه أبو الفرج الغناء المتقن ، وهو أيضا أول من صنع الهزج والرمل فى الإسلام [٥] . ولما طلب مروان بن عبد الملك المخنثين وقال : من جاءنى بمخنث فله عشرة دنانير ، فرّ إلى السويداء ، وهى على ليلتين من المدينة فى طريق الشام ، فلم يزل بها عمره حتى مات فى ولاية الوليد ابن عبد الملك [٦] . ويذكرا بن عبد ربه من تلاميذه فى المدينة الدلال ونومة الضحى ، وفى مكة ابن سُرَيج [٧] .

سائب خاثر

هو أبو جعفر سائب بن يسار ، وهو مولى فارسى أصله من فَيْء كسرى ، واشترى عبد الملك بن جعفر ولاءه من مواليه ، وأعتقه ، وكان يلزمه بعد عتقه لا يفارقه [٨] . ويقال إنه آلى أن لا يغنى أحدا سوى ابن جعفر مولاه إلا أن يكون خليفة أو ولى عهد ، أو ابن خليفة [٩] .

---

(١) انظر شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون طبع ليدن ص ٦٤ .
(٢) أغانى ٣/٢٧ .
(٣) نفس المصدر ٣/٢٨ .
(٤) نفس المصدر ٣/٢٩ .
(٥) نفس المصدر ٤/٢١٩ .
(٦) أغانى ٣/٢٩ .
(٧) ابن عبد ربه ٣/٢٤٢ .
(٨) أغانى ٨/٣٢١ .
(٩) نفس المصدر ٨/٣٢٢ .

ولما جاء نشيط المغنى الفارسى المدينة، وأعجب به عبد الله بن جعفر، جاراه، ونقل ألحانه الى الغناء العربى، ليرضى سيده. ثم اشترى عبد الله ابن جعفر نشيطا بعد ذلك، فأخذ عن سائب خاثر الغناء العربى، وأخذ عنه سائب الغناء الفارسى[١].

وإذا كان طويس قد اشتهر بالألحان الخفيفة من الهزج والرمل، فإن سائب خاثر اشتهر بالغناء الثقيل، فكان أول من غنى به فى العربية. وهكذا وضع هذان المغنيان طويس وسائب خاثر أسس فن الغناء فى عصرهم بنوعيه من النقرات الخفيفة والثقيلة. وقد قتل سائب فى موقعة الحرة. ونجد بين تلاميذه معبدا[٢]، وجميلة[٣]، وعزة[٤] الميلاء.

معبد

هو معبد بن وهب مولى ابن قطن، وقد أعتقه، وكان أبوه عبدا حبشيا[٥]، وقد كان يشتغل فى أول حياته بالتجارة، وربما رعى الغنم لمواليه، ومع ذلك كان يختلف إلى نشيط الفارسى وسائب خاثر حتى اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت[٦]. ويقال إنه قدم مكة فى شبابه فوجد أحد نبلائها، ويسمى ابن صفوان، قد سَبَّق بين المغنين جائزة، فغناه صوتا فأعطاه الجائزة[٧].

ويظهر أن صنعة الغناء فى المدينة انتهت عند معبد إلى كل ما كان

(١) أغانى ٣٢١/٨ وانظر طبعة بولاق ١٣/١٦.
(٢) نفس المصدر ٣٢٢/٨.
(٣) نفس المصدر ١٧٧/٨.
(٤) أغانى ١٣/١٦.
(٥) أغانى ٣٦/١.
(٦) أغانى ٣٩/١.
(٧) نفس المصدر ٤٠/١.

ينتظر لها من حسن وإبداع حتى ليقول إسحق الموصلى : « هو فحل المغنين وإمام أهل المدينة فى الغناء[١] » . ويقولون إنه لم يكن ، فيمن غنى ، أحد أعلم بالغناء منه ، وفيه يقول الشاعر :

أجادَ طويسٌ والسَّرِيجىّ بعده وما قصباتُ السبق إلا لمعبدِ

وقد أثر عنه أنه قال : « والله لقد صنعت ألحانا لا يقدر شبعان ممتلىء ولا سقاء يحمل قربته على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحانا لا يقدر المتكىء أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم[٢] » . وسمع به يزيد بن عبد الملك فاستقدمه ، كما استقدم ابن سريج مغنى مكة ، ورُوِى أنه قال لمعبد : « إن الذى أجده فى غنائك لا أجده فى غناء ابن سريج ، أجد فى غنائك متانة . وفى غنائه انخناثا ولينا[٣] » . وهذا صحيح ، لأن ابن سريج تلميذ طويس ، وهو كان يغنى الغناء الخفيف : الهزج والرمل . أما معبد فتلميذ سائب خاثر ، وهو كان يغنى الغناء الثقيل . ولما تولى الوليد بن يزيد بعث فى طلبه ، واستقبله استقبالا حافلا حين وفد عليه[٤] .

وقد ترك معبد مجموعة كبيرة من الأصوات الملحنة رواها أبو الفرج ، ومن أهمها وأجملها خمسة تعرف بألقابها ، وهى الدوّامة ، سماه بذلك معبد لكثرة ما فيه من الترجيع ، ثم المُنْمَنَم ، ثم معقّصات القرون ، سماه بذلك لأنه يحرك خصل الشعر ، ثم المُتَبَخْتِر ، ثم مقطّع

---

(١) أغانى ١/٣٨ . (٢) نفس المصدر ١/٣٩ .
(٣) نفس المصدر ١/٦٨ . (٤) أغانى ١/٥٢ وما بعدها .

الأثقار [١] وبجانب هـــذه الأصوات الخمسة نجد له سبعة أصوات أخرى مشهورة وكانت تسمى مدن معبد أو حصون معبد ، وذلك أنه سمع رجلا يقول : إن قتيبة بن مسلم فتح سبعة حصون أو سبع مدن بخراسان فيها سبعة حصون صعبة المرتقى والمسالك لم يوصل إليها قط ، فقال : والله لقد صنعت سبعة ألحان كل لحن منها اشد من فتح تلك الحصون ، فسئل عنها فذكرها ، وقد رواها أبو الفرج كلها [٢] .

كان معبد فى عصره إمام المغنين فى المدينة غير منازع ، وقد اختلف إليه كثيرون يتلقون عنه صنعته مثل حكم الوادى [٣] وابن عائشة [٤] ، ومالك [٥] بن أبى السمح الطائى ، ويونس [٦] الكاتب ودحمان [٧] وحبابة [٨] وسلامة [٩] القس . وقد توفى فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده [١٠] ، وندبته تلميذته سلامة [١١] .

ابن عائشة

هو محمد بن عائشة ويكنى أبا جعفر ولم يكن يعرف له أب فكان ينسب إلى أمه ، وكانت أمه مولاة لكثير بن الصلت الكندى ، وقيل إنها مولاة لآل المطلب بن أبى وداعة السهمى ، وقد روى عنه أنه قال إن أمه كانت ماشطة [١٢] .

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٩/١٠٥ . (٢) نفس المصدر ٩/١٣٧ .
(٣) نفس المصدر ١/٤٥ . (٤) نفس المصدر ٢/٢٠٣ .
(٥) نفس المصدر ٥/١٠١ وما بعدها . (٦) نفس المصدر ٤/٣٩٨ .
(٧) أغانى ٦/٢٢ . (٨) أغانى ١٣/١٥٤ . (٩) أغانى ٨/٣٣٤ .
(١٠) نفس المصدر ١/٣٦ . (١١) أغانى ١/٣٧ .
(١٢) نفس المصدر ٢/٢٠٣ .

وكان ابن عائشة من أحسن الناس حلوقا ، ضربه يوما رجل فذهب إليه ابن أبي عتيق فضربه ، ثم خلاه ، وأقبل على من حضر ، وقال : هذا أراد أن يكسر مزامير داود[١] . وقال إسحاق الموصلي عنه : « ابن عائشة أحسن الناس ابتداء وتوسطا وقطعا بعد معبد[٢] » . وقال يونس الكاتب : « كان ابن عائشة يضرب بالعود ، ولم يكن مجيدا في الضرب ، وكان غناؤه أحسن من ضربه ، فكان لا يكاد يمس العود إلا أن تجتمع جماعة من الضراب ، فيضربون عليه ، ويضرب هو ويغني ، فناهيك به حسنا[٣] » . وقد طلبه يزيد بن عبد الملك فغناه صوتا فطرب حتى ألحد في طربه ، وقال فيما قال لساقيه : اسقنا بالسماء الرابعة[٤] ، وطلبه ابنه الوليد فغناه نفس الصوت ، فقال له : أحسنت والله يا أميري . . . ثم نزع ثيابه فألقاها عليه ، وبقي مجردا إلى أن أتوه بمثلها ، ووهب له ألف دينار ، وحمله على بغلة ، وقال : اركبها بأبي أنت وانصرف ، فقد تركتني على مثل المِقلى من حرارة غنائك[٥] . ويروى أنه غنى أهل المدينة يوما في العقيق فارتفعت أصواتهم أحسنت أحسنت ! وانصرفوا حوله يزفونه إلى المدينة[٦] . ويقال إنه غنى بموسم الحج فحبس الناس عن المسير ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكان أمير الموسم هشام ابن عبد الملك فأتوه به ، فكلمه ، فوجده تياها ، فقال : ارفق بتيهك .

---

(١) أغاني ٢/٢٠٤ . (٢) نفس المصدر والصفحة . (٣) نفس المصدر ٢/٢٠٥ .
(٤) المسعودي ٦/٩ . (٥) أغاني ٢/٢٢٦ وانظر المسعودي ٦/٨ .
(٦) أغاني ٢/٢٠٦ وانظر ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .

فقال: حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياها، فضحك منه وخلى سبيله [١]. وقد توفى ابن عائشة فى خلافة الوليد بن يزيد، ويقال إنه توفى مقتولا [٢].

يونس الكاتب

هو يونس بن سليمان بن كَرْد بن شهريار من ولد هُرْمز، وهو من موالى عمرو بن الزبير، وكان أبوه فقيها فأسلمه فى ديوان المدينة فكان من كتابه [٣]، ومن أجل ذلك سمى يونس الكاتب، ولم يكن فى أصحاب معبد أحذق ولا أقوم بما أخذ عنه منه [٤]. وإذا كان معبد قد اشتهر بحصونه أو مدنه السبع، فإن يونس اشتهر أيضا بزينبياته السبع، وهى كلها من شعر ابن رُهَيْمة فى زينب بنت عكرمة بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، وقد رواها أبو الفرج كلها فى أغانيه [٥]. وطلبه الوليد بن يزيد فذهب إليه، وغناه، وأعجب بغنائه وأجازه بثلاثة آلاف دينار [٦].

وأهمية يونس لا تأتى من أنه كان مغنيا فحسب، بل تأتى من أنه سجل لأول مرة الأغانى ونسبها إلى أصحابها، فكان كتابه فيها الأصل الذى يعول عليه فيما بعد [٧]، وقد اعتمد عليه إسحق الموصلى وابن المهدى

---

(١) أغانى ٢/٢٠٨.
(٢) انظر وفاته فى الأغانى ٢/٢٣٥ وما بعدها.
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٤/٣٩٨.
(٤) نفس المصدر ٤/٣٩٨.
(٥) أغانى ٤/٤٠٢ وما بعدها.
(٦) أغانى ٤/٤٠٠.
(٧) نفس المصدر ٤/٣٩٨.

فى كتابيهما عن المغنين والغناء ، وكذلك اعتمد عليه أبو الفرج نفسه فهو كثير الرواية فى أغانيه عنه . ويظهر أنه لم يؤلف فى الأغانى والمغنين كتابا واحدا ، فصاحب الفهرست يذكر له ثلاثة كتب كتاب مجرّد يونس ، وكتاب القيان ، وكتاب النغم[١] . وقد أخذ الغناء عن يونس سياط ، وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلى[٢] . وفى الفهرست أن إبراهيم تتلمذ ليونس مباشرة[٣] ، وإن فى ذلك ما يدل على أنه عاش الى أوائل العصر العباسى .

مالك الطائى

هو مالك بن أبى السَّمح الطائى ، فهو مغن عربى أصيل ، كان أبوه من طيء ، وكانت أمه ، ويقال أم أبيه ، من بنى مخزوم ، فهو طائى الأب قرشى الأم أو الجدة[٤] . وكان أبوه منقطعا إلى عبد الله بن جعفر ، فلما حضرته الوفاة أوصى به إليه ، فنشأ فى داره بين المغنين والمغنيات ، الذين كان يرعاهم ابن جعفر . ويظهر أنه لم يكن يكتفى بمن يسمع من المغنين فى دار ابن جعفر ، فقد لزم بيت جميلة[٥] يستمع إلى من عندها من المغنيات والمغنين ، وكذلك لزم باب حمزة بن الزبير ، وكان معبد منقطعا إلى حمزة يغنيه فى كل يوم ، فحمل عنه أصواته وغناءه[٦] ،

---

(١) الفهرست لابن النديم طبعة القاهرة ص ٢٠٧ .
(٢) أغانى ٦/١٥٢ . (٣) الفهرست ص ٢٠٧ .
(٤) أغانى طبع دار الكتب ٥/١٠١ . (٥) نفس المصدر والصحيفة .
(٦) أغانى ٥/١٠٢ وما بعدها .

ولم يلبث أن أخذ ينفرد بطريقة خاصة به ، وعرف ذلك حمزة ، فقربه منه وأمر معبـــدا أن يطارحه [١] ، وبذلك ذاع صيته فى المدينة وخارج المدينة .

وكان مالك يحوّر فى ألحان معبد ، يزيد فيها وينقص ، فيُظهر من الإتقان والجودة مايروع به سامعيه ، قال إسحق الموصلى : « كان مالك إذا غنى ألحان معبد الطوال خففها وحذف بعض نغمها وقال : أطاله معبد ومطّطه ، وحذفته أنا وحسّنته » [٢] وقال أبو الفرج إنه غنّى حمزة يوما صوتا لمعبد بعد أن زاد فيه ونقص منه ، فألقى عليه حلة كانت عليه قيمتها مائتا دينار [٣] .

ولما طارت شهرة مالك استقدمه إليه يزيد بن عبد الملك [٤] ، وكذلك الوليد ابنه ، وكان يعجب به ، وقد استمر عنده حتى قتل [٥] ، وعمّر مالك حتى أدرك دولة بنى العباس وقدم على سليمان بن على بالبصرة فمتّ إليه بخؤولته فى قريش وانقطاعه إلى ابن جعفر ، فوصله وأجزل جائزته [٦] . وقد عاد من فوره إلى المدينة ، ولا نسمع شيئا عنه بعد هذه الحادثة ، ويظهر أنه لم يعمّر طويلا بعدها .

عطرد

مولى الأنصار ، وكان جميل الوجه حسن الغناء طيب الصوت

---

(١) أغانى ٥/١٠٤ . (٢) أغانى ٥/١١٢ . (٣) أغانى ٥/١٠٥ .
(٤) أغانى ٥/١٠٩ . (٥) أغانى ٥/١١١ وما بعدها وكذلك ٦/٧٩ .
(٦) أغانى ٥/١٠٢ .

جيد الصنعة حسن الرأى والمروءة فقيها قارئا للقرآن ، وكان يغنى مرتجلا ، [١] وقد أدرك الدولة العباسية وانقطع إلى آل سليمان بن على ، وعاش إلى عصر المهدى ، وربما لحق عصر هرون الرشيد [٢] . وقد استقدمه الوليد بن يزيد من المدينة ، ويروى أنه لما سمع منه أحد أصواته شقّ حلة وشى كانت عليه ورمى بنفسه فى بركة خمر ، فما زال بها حتى أخرج كالميت سكرا ، فلما أفاق قال له : كأنى بك الآن قد أتيت المدينة فقمت بى فى مجلسها ومحفلها وقعدت وقلت : دعانى أمير المؤمنين ، فدخلت إليه ، فاقترح علىّ فغنيته وأطربته ، فشق ثيابه وفعل ، والله لئن تحركت شفتاك بشىء مما جرى فلغنى لأضربن عنقك ، ثم أعطاه ألف دينار ، فأخذها وانصرف إلى المدينة [٣] .

وكانت فى عطرد دعابة فإن واليا لبنى العباس شدد فى المغنين وأصحاب الملاهى ، وحبسهم ، وحُبس عطرد معهم ، فشفع له بعض أهل المدينة ، وقالوا : إنه من أهل المروءة والنعمة والدين ، فأطلقه الوالى ، وخرج ، وسرعان ماعاد إليه ، حين رأى المغنين يعرضون عليه ، وسأله أعلى الغناء حبست هؤلاء ؟ قال نعم ، قال فلا تظلمهم فوالله ما أحسنوا منه شيئا قط ، فضحك وخلى سبيلهم [٤] فانصرفوا يضحكون من عطرد وفكاهته .

ويبدو من روايات الأغانى لأصواته أنه كان يغنى دائما بالغناء الثقيل فهو من هذه الناحية تلميذ مخلص لفن أستاذه معبد الذى كان

---

(١) أغانى ٣/٣٠٣ .
(٢) أغانى ٣/٣٠٦ وراجع ٣/٣٠٣ .
(٣) أغانى ٣/٣٠٧ وما بعدها .
(٤) أغانى ٣/٣٠٧ .

يعنى بالألحان الثقيلة [١] .

وهؤلاء هم أشهر المغنين فى المدينة أثناء العصر الأموى ، ووراءهم كثيرون جدا كانوا متفوقين فى غنائهم تفوقا واسعا . وقد عقد صاحب الأغانى لبعضهم تراجم ألم فيها بأخبارهم ، وترددت أسماء كثير منهم أثناء حديثنا عن الغناء . وممن لم نذكره سعد بن هارون [٢] ومنهم يزيد حوراء وقد لحق عصر المهدى [٣] ، ومنهم البيذق الانصارى وقد طرب يزيد بغنائه وأجزل له العطاء [٤] ، ومنهم أبو سعيد مولى فائد وكان فاضلا مقبول الشهادة معدّلا وعمّر الى خلافة الرشيد والقيه ابراهيم الموصلى وابنه إسحق وذووهما [٥] ، وغير أولئك كثير .

وينبغى أن نعرف أن هذه الطبقة الأخيرة من مغنى المدينة هى التى نقلت الغناء إلى العراق ، أو قل هى التى نقل عنها الغناء إلى العراق أوائل العصر العباسى ، فإن كثيراً من أهل المدينة لم يذهب إلى العراق وكان يذهب إليهم المغنون للأخذ عنهم . وأول من اهتم بالغناء من الخلفاء العباسيين المهدى على ما هو معروف [٦] . ونحن لا نصل إليه حتى نجده يستقدم المغنين من الحجاز [٧] . وإن من يقرأ فى كتاب الأغانى يجد أكثر أسانيده تنتهى إلى مغنى الحجاز ومغنى المدينة بنوع

---

(١) أغانى ٣/٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ وكذلك أغانى ٨/١٨٥ ، ٢٠١ .
(٢) أغانى ١/٥٦ . (٣) أغانى ٣/٢٥١ . (٤) أغانى طبع بولاق ١٣/١٦٣ .
(٥) أغانى طبع دار الكتب ٤/٣٣٠ . (٦) البيان والتبيين ٣/٢٠٨ .
(٧) أغانى ٦/١٧٤

خاص ، مما يدل على أن المدينة أثر مغنوها وغناؤهم فى العصر العباسى تأثيرا واسعا جدا .

٦

أشهر المغنيات

رأينا المدينة مكتظة بالمغنين وليس معنى ذلك أن المغنيات كن قليلات ، فقد كن كثيرات أيضا كثرة مفرطة ، ولعل أشهرهن حينئذ عزة الميلاء وجميلة وسلامة القس وسلامة الزرقاء .

عزة الميلاء

مولاة للأنصار ، وهى أقدم مغنيات المدينة ، وكانت تغنى أولا أغانى القيان من القدائم مثل سيرين وزرنب وخولة والرباب وسلمى ورائقة ، وكانت أستاذتها ، فهى التى خرجتها . ولما قدم نشيط المدينة أخذت عنه ، وكذلك أخذت عن سائب خاثر ، فكانت أقدم من غنى الغناء الموقّع بالحجاز من الجوارى [١] .

وكانت عزة من أجمل النساء ، يقول طويس هى أجمل سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع [٢] . وكان لها دار اتخذتها تغنى فيها

---

(١) أغانى طبع بولاق ١٣/١٦ وانظر أغانى طبع دار الكتب ٣٢١/٨

(٢) أغانى ١٤/١٦

الناس [١] . وقد سمعها حسان بن ثابت وأعجب بها [٢] ، ويقال إنها فتنت رجال المدينة ونساءها فتنة شديدة [٣] ، وممن افتتن بها ابن أبي عتيق [٤] ، وقد قصدها هو ، وعبدالله بن جعفر ، وعمر بن أبي ربيعة يوما فغنتهم ، وغنت عمر فى شيء من شعره ، فشق ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة ، صعق معها من شدة الطرب [٥] .

وقد جمعت عزة بين الغناء القديم والحديث فكانت تضرب بالمزاهر والمعازف القديمة ، كما كانت تضرب بسائر الآلات الحديثة [٦] . ويذكر صاحب الأغانى بين تلامذتها ابن سريج وابن محرز [٧] فى مكة والبردان [٨] فى المدينة . وعاشت حتى لحقت جميلة وغنّت فى دارها [٩] .

جميلة

مولاة بنى جُمَح من بنى سُلَيم وكان لها زوج من موالى بنى الحارث ابن الخزرج ، وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولاء زوجها ، فقيل إنها مولاة الأنصار [١٠] . وهى أصل من أصول الغناء فى المدينة ، وقد

---

(١) أغانى ١٤/١٦ .
(٢) نفس المصدر ١٤/١٦ وما بعدها
(٣) نفس المصدر ١٩/١٦ وما بعدها وانظر ٥٥/١٠ .
(٤) نفس المصدر ١٩/١٦ وانظر ٣٨/١١ .
(٥) نفس المصدر ١٤/١٦ .
(٦) نفس المصدر ١٤/١٦ وانظر أغانى ٢١٢/٤ .
(٧) أغانى ١٤/١٦ وانظر أغانى ٣٧٨/١ .
(٨) أغانى ٢٧٧/٨ .
(٩) أغانى ١٤/١٦ .
(١٠) أغانى ١٦٨/٨ .

سئلت أنى لك هذا الغناء ، فأجابت : « كان أبو جعفر سائب خاثر لنا جارا وكنت أسمعه يغنى ويضرب بالعود فلا أفهمه ، فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائى . . . وسمعنى مولياتى يوما وأنا أغنى سرا ، ففهمننى ، ودخلن علىّ ، وقلن : قد علمنا فما تكتمينا ، فأقسمن على ، فرفعت صوتى وغنيتهن ، فحينئذ ظهر أمرى ، وشاع ذكرى ، فقصدنى الناس وجلست للتعليم ، فكان الجوارى يتكاوسننى (يتزاحمن حولى) فربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئا . ولقد كسبت لموالىّ ما لم يخطر لهن ببال ، وأهل ذلك كانوا وكنت »[1].

وقد اتخذت جميلة لنفسها فى المدينة دارا كبيرة ، وكانت هذه الدار تمتلىء بالمغنين والجوارى ، وتقام فيها حفلات باذخة للغناء ، وكان يشترك فى هذه الحفلات بعض المغنين من مكة أحيانا مثل ابن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز[2] . وكذلك كان يشترك فيها المغنون من المدينة من مثل معبد ومالك بن أبى السمح الظائى وابن عائشة ونافع ابن طنبورة وغيرهم كثير[3] . وكما كانت تكتظ دار جميلة بالمغنين كانت تكتظ كذلك بالمغنيات من مثل سلامة القس وسلامة الزرقاء وحبابة وخليدة وربيحة وعقيلة العقيقية وفرعة وبلبلة ولذة العيش[4] .

---

(١) أغانى ٨/١٨٧ .

(٢) نفس المصدر ٨/١٨٨ وما بعدها . (٣) أغانى ٨/١٨٨ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ٨/١٨٦ ، وانظر ٨/٢٠٩ حيث تجد ثبتا بأسماء من كان عندها من المغنيات والمغنين .

وقد بلغ الغناء فى دار جميلة كل ما كان ينتظره من رقى وازدهار إذ عرف الغناء المصحوب بالجوقات الكبيرة (١) ، كما عرف الغناء المصحوب بالرقص والضرب على الآلات الموسيقية الكثيرة (٢) . وكثيرا ما كانت جميلة تجمع سكان المدينة وتقوم باستعراض كبير يضم مشاهير المغنين والمغنيات ، لا فى المدينة فقط ، بل مكة أيضا (٣) . وكأن جميلة أبت أن تترك بعدها للمغنين ما يحدثونه ، ولعله من أجل ذلك كان معبد يقول أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين (٤) . وقد عاشت حتى عصر يزيد (٦) بن عبد الملك .

سلامة القس

مولدة من مولدات المدينة أخذت الغناء عن جميلة ومعبد وابن عائشة ، فمهرت (٦) . وإنما سميت سلامة القَسّ لأن أحد قراء أهل مكة وكان يسمى عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمِىّ ، ويلقب بالقس لعبادته سمعها ، فشغف بها وشُهِر ، وفيها وفى أختها رَيّا يقول ابن قيس الرقيات :

لقد فتنتْ رَيّا وسلاّمة القَسّا فلم تتركا للقسّ عقلا ولا نفسا
فتاتانِ أمّا منهما فشبيهة الـ ـهلال وأخرى منهما تشبه الشمسا (٧)

وكانت سلامة جميلة وقد طارت شهرتها ، فطلبها يزيد بن عبد الملك

---

(١) أغانى ٨/٢١٨ وكذلك ٨/٢٢٧ . (٢) نفس المصدر ٨/٢٢٦ .
(٣) انظر نفس المصدر ٨/١٨٨ وكذلك ٨/٢١١ — ٢١٢ .
(٤) نفس المصدر ٨/١٨٦ . (٥) أغانى ٩/٦٧ .
(٦) نفس المصدر ٨/٣٣٤ . (٧) أغانى ٨/٣٣٧ .

واشتراها من مولاها بعشرين ألف دينار ، ويقال إن أهل المدينة جاءوا يشيعونها ويودعونها حين أرادت الخروج ، فملأوا رحبة القصر ووراء ذلك ، فوقفت بينهم ، ومعها العود ، فغنتهم :

فارقونى وقد علمت يقيناً ما لمن ذاقَ ميتةً من إياب

ولم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت والناس وراءها ينتحبون ويبكون [١] وقد استمرت عند يزيد حتى توفى فرثته بشعر من تأليفها وناحت به عليه [٢] . ويروى أبو الفرج أن الوليد بن يزيد طلب إليها أن تغنيه شعرها فى أبيه فغنته ، وهى تتنغص من ذلك وتدمع عيناها [٣] ، وقد عاشت بعد الوليد [٤] ، ولكن يظهر أنها لم تعمّر طويلا .

سلامة الزرقاء

تلميذة جميلة [٥] ، وكان يقال إنه لم يرق النساء بعد القيان الحجازيات مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء [٦] ، ويظهر أنها كانت بارعة الحسن ، وقد قضت أول حياتها فى دار جميلة [٧] ، حيث كانت تعلم بعض الجوارى الغناء [٨] . واشتراها ابن رامين أكبر تاجر للقيان فى الكوفة ، ففتنت هناك كثيرا من الشباب والشعراء ، وعلى رأسهم محمد ابن الأشعث وفيها يقول :

---

(١) أغانى ٨/٣٤٣ . (٢) أغانى طبع دار الكتب ٨/٣٣٣ وكذلك ٨/٣٤٦ .
(٣) نفس المصدر ٨/٣٤٨ . (٤) نفس المصدر ٨/٣٣٤ .
(٥) نفس المصدر ٨/٢٠٨ وكذلك ٨/٢٣٠ .
(٦) أغانى ١٨/١٧٥ . (٧) أغانى ٨/٢٣٠ .
(٨) نفس المصدر ٣/٢٥٥ .

أمسى لسلامةَ الزرقاءِ فى كبدى صدعٌ مقيمٌ طوال الدهر والأبد[١]

واشترى ابن رامين من مغنيات المدينة أيضا ريحة وسعدة، وكان أهل الكوفة يغشون منزله يستمعون إليهما. وحج ابن رامين وأخذ جواريه معه فقال إسماعيل بن عمار الأسدى واصفا كيف علت حينئذ الحسرات نفوس أهل الكوفة وأفئدتهم:

أيَّة حالٍ يابن رامينِ حال المحبينَ المساكينِ
تركتهمُ موتى ولم يتثلفوا قد جُرَّ عنوانك الأمرَّينِ
وسرْت فى ركب على طيةٍ ركب تهامٍ ويمانينِ
يا راعىَ الذَّود لقد رعتهم ويلك من روْع المحبينِ
فرَّقت جمعاً لا يرى مثلهم بين دروب الروم والصينِ[٢]

وعادت الزرقاء إلى الكوفة مع صواحبها، وعادت معها الفتنة والأغراء، فكان يذهب إلى دار ابن رامين كثير من نبلاء القوم، وعلى رأسهم معن بن زائدة، وروح بن حاتم، وابن المقفع. ويقال إنهم استمعوا إليها وإلى سعدة يوما ثم خرجوا فأرسل معن إليها بدرة وكذلك روح، ولم يكن مع ابن المقفع مال فأرسل إليها بصك ضيعة له[٣]. ويقال إن أحد الصيارفة سمعها فأدخل يده فى ثوبه وأخرج لؤلؤتين قيمتهما أربعون ألف درهم وأعطاهما لها[٤]. وأخيرا اشتراها جعفر بن سليمان والى المدينة بثمانين ألف درهم[٥].

---

(١) أغانى ١٠/١٣٥.
(٢) انظر أغانى ١٣/١٢٧.
(٣) انظر أغانى ١٣/١٣٢.
(٤) انظر أغانى ١٣/١٣٢.
(٥) نفس المصدر ١٣/١٣١ وانظر ١٠/١٣٦.

وأظن أننا ليس فى حاجة هنا إلى أن نعيد ما قلناه فى خاتمة حديثنا عن المغنين من أن المدينة كان لها أكبر الفضل فى الحركة الغنائية التى ظهرت فى العراق أثناء العصر العباسى . وهـــذه سلامة الزرقاء ، وصاحبتاها ربيحة وسعدة يذهبن إلى الكوفة ، وقد أخذن معهن فن الغناء الذى كان قد استوى له فى المدينة كل ما يمكن من رقى وازدهار . ولا ريب فى أن هناك أخريات ذهبن إلى العراق وأثرن فيه مع هؤلاء الجوارى ، وقد استطعن هن وتلميذاتهن ، كما استطاع معهن من ذهب إلى العراق من المغنين وتلاميذهم هناك أن ينهضوا بالغناء هـذا النهوض الذى يقصه صاحب الأغانى عن إبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق ، وإسماعيل بن جامع ، وفليح بن العوراء ، وزلزل ، وعلوية من المغنين وفريدة ، وبذل ، وذات الخال ، ومتيم ، وعريب ، ودنانير ، من المغنيات .

والحق أن المدينة هى التى هيأت لنمو الغناء عند العرب هذا النمو الذى جعله يتحول من صناعة بسيطة إلى صناعة معقدة لها تقاليدها ورسومها ، وهى صناعة بلغت مبلغا عظيما من السحر والفتنة على أيدى وألسنة كثير ممن برعوا فى الغناء براعة هائلة .

الفصل الثالث

الشعر الغنائى فى المدينة

١

الشعر فى المدينة

من يرجع إلى المدينة منذ العصر الجاهلى يجد الشعر فيها كثيرا كثرة مفرطة . روى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال : «قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، قيل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا»[1]. ولعل مما يؤكد كثرة الشعر والشعراء فى المدينة حينئذ أن نجد ابن سلام يتحدث فى طبقاته عن شعراء القرى العربية مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ، فيقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة ، ويذكر أن شعراءها الفحول فى الجاهلية خمسة ، ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، فأما شعراء الخزرج فهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، وأما شاعرا الأوس فهما قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت[2] ، وقد عقد لهم أبو الفرج — عدا عبد الله بن رواحة — فصولا طويلة فى

(١) ابن عبد ربه ٣/١٢٣ . (٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٢ .

كتابه الأغانى[١]. وبجانب هؤلاء الشعراء العرب من الأوس والخزرج كان هناك شعراء من اليهود عرضنا لهم فى الفصل الأول من هذا البحث وكان على رأسهم الربيع بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف.

كان الشعر إذن أهم فنون الأدب فى المرحلة الجاهلية بالمدينة، وقد استمر له شىء غير قليل من أهميته فى ابتداء المرحلة الثانية التى مرت بها، مرحلة الرسول والخلفاء الراشدين، فإن قريشا أخذت تهجو رسول الله وأصحابه بعد هجرتهم منها إلى المدينة، فرأى أن يستعين عليها بشعراء الأنصار. روى أبو الفرج فى أغانيه أنه كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش عبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص، فقال النبى للأنصار: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»، فتصدّى لهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة[٢]. وقد كان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم: بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة[٣]. وقد استمع النبى صلى الله عليه وسلم يوما إلى حسان وهو ينشد بعض أشعاره فى هجاء قريش فقال «لهذا عليهم أشد من وقع النبل[٤]».

---

(١) أنظر أغانى ٣/١ وكذلك ٤/١٣٤ وانظر أغانى ١٥/٢٦ وأيضا ١٥/١٦٠.
(٢) أغانى ٤/١٣٧. (٣) نفس المصدر ٤/١٣٨. (٤) نفس المصدر ٤/١٤٣.

واستمرت هذه النبال تصوَّب من المدينة إلى مكة طوال حربها مع النبي، حتى إذا فتحت مكة وقفت هذه الحرب اللسانية وأخذ المسلمون وشعراؤهم يهدأون، بل لقد هجر بعض الشعراء نظم الشعر، هجره حسان بن ثابت، أو كاد، وهجره لبيد وهجره غيرهما. وهذا طبيعي لأن وُفُود الشعر العربي في المرحلة الجاهلية كما قدمنا الثأر، والإسلام ينهى عن الثأر، وأيضا فإنه ينهى عن الثلب والهجاء، ويدعو المسلمين إلى أن يكونوا إخوة متحابين. ومعنى ذلك أن دواعي الشعر أخذت تضعف، وساعد على هذا الضعف أن العرب شغلوا بعد وفاة النبي بالفتوح وتمصير الأمصار، وصرفهم ذلك عن الشعر إلا طائفة قليلة أخذت تقول الشعر كما كانت تقوله في الجاهلية، وكان على رأس هذه الطائفة الحطيئة.

وقصة الحطيئة مع الزبرقان، واستعدائه عليه عمر لما كان من هجائه إياه مشهورة، فقد حبسه عمر، واستعطفه الحطيئة بشعر، ذكر فيه أفراخه بذي مرخ، فعطف عليه عمر وأطلقه بعد أن أخذ عليه المواثيق ألا يعود إلى الهجاء، ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بعطاء [١]. وفي الأغاني أن عمر نهى الناس أن ينشدوا شيئا من مناقضة الأنصار ومشركي قريش، وقال: في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن [٢]، ويقال إنه انتهر حسان بن ثابت إذ سمعه ينشد بعض هذا الشعر [٣].

---

(١) أغاني ٢/١٨٩.
(٢) نفس المصدر ٤/١٤٠.
(٣) نفس المصدر ٤/١٤٣.

وكما كره عمر للشعراء أن يتعرضوا للمسلمين وأعراضهم بالهجاء، كذلك كره لهم أن يتعرضوا لنسائهم وبناتهم بالتشبيب والغزل، فتقدم لهم ألا يشبب أحد بامرأة إلا جلده، مما اضطر حميد بن ثور أن يشبب بسرحة، وأن يقول فى تشبيبه:

فهل أنا إن عللت نفسى بسرحة
من السرح موجود على طريق[1]

ويذهب عمر، ويأتى عثمان فيسير سيرة صاحبه من النهى عن التعرض للأعراض، وقد حبس ضابىء بن الحارث البرجمى لإقذاعه فى الهجاء، وبقى فى سجنه حتى مات[2].

وعلى هذا النحو أخذ فن الشعر يضعف بضعف دواعيه فى عصر الخلفاء الراشدين إلا ما كان فى حروب على ومعاوية، فقد رجع الشعراء يعيدون السيرة القديمة من السب والتنابذ بالألقاب[3]. لكن هذه الحركة لم تكن فى المدينة نفسها، إنما كانت فى العراق مع الجيوش المقتتلة هناك.

وإذا انتقلنا إلى العصر الأموى وجدنا الشعر ينهض فى المدينة نهضة واسعة، وكأن المدينة عادت فى هذا العصر إلى حال تشبه حالها فى الجاهلية، إذ كان الشعر أهم فنون الأدب التى تمارسها،

---

(١) أغانى ٤/٣٥٦.

(٢) ابن سلام ص ٤٠، وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة طبع ليدن ص ٢٠٢ وما بعدها (٣) المسعودى ٥/٤٦.

وقد هجرته فى عصر الخلفاء الراشدين أو كادت ، ولكنها سرعان ما رجعت إليه وأوغلت فيه .

ونحن نعرف أن الإسلام نفى اليهود عن المدينة وكانوا عنصراً مهماً فى شعرها الجاهلى ، ولكنها استعاضت عنهم بعنصرين جديدين لعل أصحابهما كانوا أكثر شاعرية ، فقد سكنتها جماعة كبيرة من قريش هاجرت إليها قبل النبى صلى الله عليه وسلم وبعده ، كما نزحت إليها جماعة كبيرة من الموالى الأجانب الذين استرقّهم أهلها فى فتوحهم وانتصاراتهم فى بلاد الفرس والروم والشام ومصر .

وهذا الخليط من قريش والأنصار والموالى فى المدينة كان له نشاط واسع فى الشعر أثناء هذا العصر ، وآية ذلك كثرة التراجم التى عقدها أبو الفرج فى أغانيه لشعرائهم جميعا ، وهى تراجم تتضمن أخبارهم ، كما تتضمن طرائف من أشعارهم ، وخاصة التى غنى فيها المغنون . وأشهر من ترجم لهم من قريش عبد الرحمن بن الحكم [١] ، من بيت بنى أمية ، وعبد الله [٢] بن الحسن بن الحسن بن علىّ من بيت العلويين ، وعبد الرحمن [٣] بن أبى بكر الصديق من بيت أبى قحافة ، وجعفر [٤] بن الزبير من بيت الزبيريين ، والحسين [٥]

---

(١) أغانى ١٢/٧٢ وكذلك ١٣/١٥٠ . (٢) نفس المصدر ١٨/٢٠٣ .
(٣) نفس المصدر ١٦/٩٣ . (٤) أغانى ١٣/١٠٤ .
(٥) نفس المصدر ١٠/١٦٩ .

ابن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب من بيت العباس[١]، وعروة بن أذينة من بنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانه. وأشهر من ترجم لهم أبو الفرج من حلفاء قريش ابن أرطاة[٢]، وعبيدالله[٣] بن عبدالله بن عتبة بن مسعود وهو من حلفاء بنى زهرة وعداده فيهم، ثم ابن هرمة[٤]، وهو من الخالج، ويقال إنهم من قريش، وأدرك العصر العباسى.

وقد ترجم أبو الفرج بجانب هؤلاء القرشيين وحلفائهم لجماعة من شعراء الأنصار المهمين، وقد كان شعراء الأنصار فى المدينة هذا العصر أكثر نفراً من شعراء قريش. وهذا طبيعى فقد كان فى الأنصار بيوت كثيرة تشتهر بالشعر منذ العصر الجاهلى، كبيت حسان بن ثابت، وقد ترجم صاحب الأغانى لشاعرين منه فى هذا العصر، وهما عبد الرحمن بن حسان[٥]، وابنه سعيد[٦]. وبجوار بيت حسان نجد بيت كعب بن مالك، يقول صاحب الأغانى: لكعب أصل أصيل وفرع طويل فى الشعر، ابنه عبد الرحمن شاعر، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر، ومعن بن عمر بن عبد الله بن كعب شاعر، وعبد الرحمن بن عبد الله شاعر، ومعن بن زهير

---

(١) أغانى ٢١/١٦٢.
(٢) انظر الأغانى ٢/٢٤٢.
(٣) نفس المصدر ٩/١٣٩.
(٤) نفس المصدر ٤/٣٦٧.
(٥) ترجم أبو الفرج لعبد الرحمن بن حسان ترجمة متداخلة مع عبد الرحمن ابن الحكم، انظر الأغانى ١٢/٧٢ وكذلك ١٣/١٥٠.
(٦) انظر أغانى ٨/٢٦٩.

ابن كعب شاعر ، وكلهم مجيد مقدم[١] . ووراء هذين البيتين الكبيرين للشعر فى هذا العصر نجد كثيراً من شعراء الأنصار ترجم لهم صاحب الأغانى مثل النعمان بن بشير[٢] والسَّرِيّ بن عبد الرحمن[٣] ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الأحوص شاعر المدينة فى هذا العصر غير مدافع .

ويأتى فى أثر هؤلاء الشعراء من قريش وحلفائهم ومن الأنصار طائفة من شعراء الموالى مثل موسى شهوات وكان يلقب بشهوات لأنه كان سئولا مُلْحِفاً ، وقيل لأن امرأته كانت تقول مايزال موسى يحيئنا بالشهوات ، فغلبت عليه[٤] . وأصله من أذربيجان ، وقيل ليس بالمدينة شاعر من الموالى إلا وأصله من أذربيجان[٥] ، وقد اشتهرت من هؤلاء الموالى أسرة بالشعر هى أسرة يسار النسائى ، فقد كان ابنه إسماعيل شاعرا مهما ، ترجم له صاحب الأغانى ترجمة مستفيضة[٦] ، وكذلك كان ابناه محمد وإبراهيم شاعرين[٧] ، وكانت فيهم جميعا نزعة إلى الشعوبية ، وقد روى صاحب الأغانى شعرا لإسماعيل يفصح فى وضوح عن هذه النزعة[٨] .

أرأيت إلى هذا الحشد الحاشد من الشعراء الذين عاشوا فى المدينة

---

(١) أغانى ١٥/٢٧ .
(٢) أغانى بولاق ١٤/١١٩ .
(٣) نفس المصدر ١٨/٦٥ .
(٤) اغانى ٣/٣٥١ .
(٥) الشعر والشعراء ص ٣٦٦ .
(٦) أغانى ٤/٤٠٨ .
(٧) نفس المصدر ٤/٤١٢ .
(٨) نفس المصدر ٤/٤١١ وكذلك ٤/٤٢٣ .

لهذا العصر وترجم لهم صاحب الأغانى ، وهو لم يترجم لكل شاعر نبت فى المدينة حينئذ ، إنما ترجم للمشهورين منهم . وليس من شك فى أن هـذا الحشد يدل دلالة قاطعة على مدى ما كان فى المدينة من نهضة للشعر ، وهى نهضة واسعة تجعل الإنسان يظن أن أهل المدينة كانوا جميعا يصطنعون الشعر فى هـذا العصر حتى الموالى منهم كانوا ينظمونه ويصنعونه .

٢

الشعر الغنائى فى المدينة

إذا أخـذنا نبحث الشعر العربى فى المدينة أثناء العصر الأموى وجدناه يتفرع إلى فرعين كبيرين : فرع تقليدى ، وفرع غنـائى ، ونقصد بالأول شعر الهجاء والمديح وما يتصل بهما ، وبالثانى الشعر الذى كان يغنى فعلا ، يغنيـــه المغنون والمغنيات فى المدينة ، وقد يصحبون غناءهم بالضرب على الأدوات الموسيقية ، وكان موضوعه غالبا الحب وما يتصل به .

وإذا أخذنا نقارن بين هذين الفرعين الكبيرين للشعر فى المدينة أثناء العصر الأموى ، عصر الغناء والمغنين ، وجدنا الفرع الثانى يتفوق على الفرع الأول تفوقا شديدا ، سواء فى كثرة من مارسوه ، أو فى كثرة ما جاء منه من نماذج فنية . وتحقيق هذه المسألة لا يحتاج إلى أكثر

من قراءة تراجم الشعراء السابقين فى كتاب الأغانى واستعراض ما خلفوه من شعر . ولعل أول ما يلاحظه قارىء الأغانى على هؤلاء الشعراء أن أغلب القرشيين منهم لم يعنوا بالشعر التقليدى أى عناية ، فعبد الله بن الحسن إنما يروى له صاحب الأغانى غزلا ، وكذلك هو يروى لعبد الرحمن بن أبى بكر ولجعفر بن الزبير وللحسين بن عبدالله ابن عبيد الله بن العباس . وطبيعى ألا يؤثر عن هؤلاء السادة مديح ، وفيمن يمدحون ؟ وهم يرون أنفسهم خليقين بالمدح ، وأنه كان أولى بالشعراء الذين يمدحون ملوك بنى أمية أن يمدحوهم ، وهم كذلك كانوا يرفعون أنفسهم عن الإسفاف وأن ينزلوا من سمائهم إلى السب والقذف ، لذلك كله لم يتركوا مديحا ولا هجاء ، وإنما تركوا شعرا يعبر عن عواطفهم الخالصة ، وسرعان ما يسمع به المغنون والمغنيات أو يُسْمِعونه لهم ، فيقبلون على غنائه والترنم به .

ولم يتورط أحد من نبلاء قريش فى الشعر التقليدى سوى عبد الرحمن بن الحكم فقد أغرم بهجاء عبد الرحمن بن حسان . ويظهر أنه اضطر إلى ذلك ؛ لأن عبد الرحمن كان يكثر من هجاء معاوية وبيته ، فرد عليه ، وسرعان ما استعر الهجاء بينهما [1] . ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن عبد الرحمن بن حسان حين أراد أن يهاجم معاوية ابتكر طريقة سار عليها كثير من شعراء الحجاز وهى أن يهاجمه

---

(١) أغانى ١٣/١٥٠ .

عن طريق الغزل بابنته وهكذا تغزل فى رملة بنت معاوية ، وغاظ ذلك أخاها يزيد فيما يقول الرواة [١] .

ويذهب عبد الرحمن بن حسان فلا يخلفه من يقوم على هجاء بنى أمية ، فقد أذعنت المدينة لهم منذ موقعة الحرة ، ولعلها من أجل ذلك لم يظهر بها شعر سياسى مما ظهر فى هذا العصر عند شعراء الأمويين من مثل الأخطل ، أو شعراء الشيعة من مثل الكميت ، وحتى ابن الزبير لم يكن له شاعر بالمدينة ، بل حتى عبد الله بن حنظلة لا نجد فى المدينة من يرثيه لاهو ، ولا قتلى الحرة ، إنما يرثيه ويرثيهم ابن قيس الرقيات بقصيدته المشهورة :

ذهب الصّبا وتركت غيّتيه ورأى الغوانى شيب لمتيه [٢]

لم ينم الشعر التقليدى فى المدينة هذا النمو الذى أتاح فى بيئات أخرى للشعر السياسى أن يظهر وأن يكثر ، لأن المدينة كانت تتخفف ، ولم ترد أن تتورط فى شغب قد يؤذيها .

أسلمت المدينة لعبد الملك ، ولم يعد يوجد فيها شاعر يعنى بهجاء بنى أمية ، بل إن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ينزع عن مذهب أبيه ، ويتخذ مذهب المدينة وما كان يشيع فيها من ملق للأمويين ، فيمدحهم ويصلونه [٣] . وكذلك كان الأحوص يمدح الأمويين وينال صلاتهم [٤] .

---

(١) أغانى ١٤/١٢٢ . (٢) ديوان ابن قيس الرقيات طبع فيينا ص١٨٦ .
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٨/٢٦٩ .
(٤) نفس المصدر ٤/٢٤٨ وما بعدها .

وقد تخصص ابن هرمة فى مديح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك عامل المدينة لمروان بن محمد ، وفيه يقول[١] :

يكاد بابُك من جود ومن كرم من دون بوّابه للناس يَنْدلق

وربما كان المدح أكثر شيوعا فى شعراء الموالى بحكم أنهم أجانب وأن مركزهم الاجتماعى يجعلهم فى حاجة إلى التكسب كما يجعلهم أكثر استعدادا للتذلل والتضرع . وقد كانوا يمدحون النبلاء الذين يجاورونهم من أهل المدينة ، ولم يكن هواهم على العموم مع بنى أمية ، لأن هؤلاء النبلاء الذين يعيشون معهم لم يكونوا من هوى بنى أمية ، ثم بنو أمية عرفوا بتعصبهم للعرب على الموالى ، فكان ذلك مدعاة لأن يكتفوا بمديح من يجاورونهم من الأشراف والسادة . ومع ذلك كله نجدهم يفدون على الامويين يمدحونهم وينالون جوائزهم ، ففى الأغانى أن خلفاء بنى أمية كانوا يحسنون إلى موسى شهوات ويدرّون عطاءه ، وتجيئه صلاتهم إلى الحجاز[٢] . وكذلك كان إسماعيل بن يسار يفد عليهم ويجيزونه ، مع أنه كان كالمنقطع إلى عروة بن الزبير[٣] .

على أننا إذا أخذنا نقيس مديح هؤلاء الشعراء إلى ما أنتجوه هم أنفسهم من شعر غنائى فى الحب والغزل غنى فيه المغنون والمغنيات فى المدينة لم نجده شيئا مذكورا . والحق أن من يبحثون عن شعر المديح فى هذا العصر ينبغى ألا يبحثوا عنه فى المدينة ، إنما يبحثون عنه فى العراق عند جرير والفرزدق وأمثالهما وفى الشام عند الأخطل

---

(١) أغانى ٦/١٠٣ . (٢) نفس المصدر ٣/٣٦٥ .
(٣) نفس المصدر ٤/٤٠٨ .

شاعر البلاط الأموى المشهور ومن نهج نهجه .

لم تكن المدينة متفوقة هذا العصر فى شعر المديح ، وهى كذلك لم تكن متفوقة فى شعر الهجاء ، وليس معنى ذلك أنه لم يوجد فيها هجاء ، فقد كان بعض هؤلاء الشعراء الذين سميناهم ومعهم الأحوص يعنون بالهجاء أحيانا ، ولكنهم لم يتخصصوا به على نحو ما نجد فى العراق التى أنتجت فى هذا العصر النقائض المعروفة بين جرير والفرزدق أو بين جرير والأخطل .

ولعل من الطبيعى ألا يسود الشعر التقليدى من هجاء وغير هجاء فى المدينة هذا العصر ، لأن المدينة لم تكن محافظة ، ولم تكن تسير فى حياتها على النهج الجاهلى ، كما سارت قبائل العراق ، بل لقد كانت مجددة ، وقد غرقت فى الترف والنعيم الى آذانها ، فكان من نتائج ذلك أن نفرت الى حد ما ، مما يمثل حياة العرب القديمة وخاصة هذه الحياة التى تقوم على الصعوبة فى الخلق والخشونة ، فيكون الهجاء ، ثم هى كانت من الثروة والترف بحيث لاتحتاج إلى مال بنى أمية وبحيث يضطرها هذا المال إلى أن تسرف فى مديحها للأمويين ، ثم هى كانت معارضة لبنى أمية ، فلم يطلب منها الأمويون شعراء المديح الذين يباهون بهم الأقاليم الأخرى وشعراءها .

وبجانب ذلك كله كانت المدينة مكتظة بدور الغناء والمغنين والمغنيات ، وكانت هذه الدور تطلب دائما شعرا يُغَنَّى ، وكان هذا الشعر هو الذى يشيع ، لأن أشراف المدينة وسادتها كانوا يطلبونه

لمغنيهم ومغنياتهم ، وكانوا إذا فقدوه فى المدينة طلبوه فى شعر البادية [١] وهل تظن أن أحدا من الشعراء الذين سميناهم اشتهر فى المدينة هذا العصر وهو لا ينظم شعرا غنائيا ؟ إنهم جميعا كانوا أصحاب شعر غنائى ينظمونه فى قصة الحب . وبهذا الشعر نالوا شهرتهم فى عصرهم ، بل إن كثيراً منهم لم يؤثر عنهم شعر تقليدى كأكثر شعراء قريش وبعض شعراء الأنصار من مثل السرىّ بن عبد الرحمن ، وفيه يقول صاحب الأغانى : « إنه كان أحد الغزلين » [٢] .

وعلى هذا النحو كان كثير من شعراء المدينة يقصر نفسه على الغزل وحكاية عواطف الحب ، إما لأنه من سادتها أو لأنه يريد أن يرضى دور الغناء فيها . وكان من يكون شاعرا من هؤلاء السادة يتخصص بشعره بعض المغنين أو المغنيات ، يغنيه له ، فقد روى صاحب الأغانى أن مالك ابن أبى السمح كان يتغنى [٣] فى أشعار الحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن العباس .

وكما كان يتخصص بعض المغنين بشعر بعض سادة المدينة كان يتخصص بعض آخر بشعر شاعر ممتاز ولو لم يكن من كبار الأشراف والسادة . وقد كانت المغنيات خاصة تتعلق بشعر الأحوص إذ كن يعجبن به وبشعره . كانت تعجب به جميلة [٤] وسلامة [٥] وغيرهما .

---

(١) أغانى ٤/٢١٣ .
(٢) أغانى ١٨/٦٥ .
(٣) نفس المصدر ١٠/١٧٠ .
(٤) أغانى ٨/٢٠١ .
(٥) نفس المصدر ٨/٢٣٧ .

وقد أخذ المغنون يشتهرون بمجموعات من هذه الغزليات التى كان ينتجها الشعراء، وكانوا هم يغنون فيها، فيونس الكاتب يشتهر بزينبيات ابن هرمة، وهى قطع كلها فى زينب بنت عكرمة بن عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام[١]، وحتى عمر بن عبدالعزيز وهو وال على المدينة نجده يشتهر بسعادياته، وهى سبعة ألحان تذكر فيها كلها سعاد[٢].

ومهما يكن فإن هذا الشعر الغنائى كان هو الشغل الشاغل للمدينة فى هذا العصر، وكان الشعراء يهتمون به اهتماما شديدا، وقد توفروا عليه من قرشيين وأنصار وموال كل يريد أن يحدث فيه ما يشتهر به بين أبناء عصره، واستطاعوا أن ينهضوا به نهضة واسعة إذ حشدوا أنفسهم له، وكادوا ألا يستبقوا من ملكاتهم شيئا لفن آخر، لا لخطابة ولا لكتابة ولا حتى لشعر تقليدى. ولعل من أطرف مايروى فى هذا الصدد أن أحد أبناء المدينة سأل جريرا أن يسمعه بعض شعره، وشعره كله على ما نعرف تقليدى: مدح وهجاء، فأبى عليه أن يسمعه شيئا قائلا: إنكم ياأهل المدينة إنما يعجبكم النسيب[٣].

كانت المدينة بلدة النسيب كما يقول جرير فى هذا العصر، أو كما نقول نحن بلدة هذا الشعر الغنائى الذى كان يغنيه طويس وسائب خاثر ومعبد وجميلة وسلامة وغيرهم من المغنين والمغنيات. وقد استطاعت المدينة أن تظفر بطائفة كبيرة من الشعراء تجد عندها مايغنيه هؤلاء

---

(١) أغانى ٤/٤٠٥.
(٢) نفس المصدر ٩/٢٥٤.
(٣) أغانى ١/٧٦.

المغنون الكثيرون ، بل قل ما يوقّعه هؤلاء المغنون الكثيرون على أدواتهم الموسيقية المختلفة . وسقف قليلا نتحدث عن هذا الشعر ونتعرض لأهم ميزاته .

٣

خصائص الشعر الغنائى فى المدينة ومميزاته

لعل أول مايلاحظ على الشعر الغنائى الذى كان يغنيه المغنون والمغنيات فى المدينة أنه كان مقطوعات قصيرة ، فهم لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون بيتين أو ثلاثة أو أربعة ، ومهما أطالوا فلن يتجاوزوا سبعة أبيات إلا فى النادر . على أن بعض المغنين كان يأبى أن يغنى فى أكثر من بيتين [١] .

وهذه القطعة الصغيرة التى كانت تغنى كانت تختار من الشعر التقليدى أحيانا ، فقد تكون مديحا أو تكون حماسة أو رثاء أو حكمة ، ولكن ليس هذا هو الغالب ، إنما الغالب أن تكون غزلا ، بحيث إذا قلنا إن الغزل كان موضوع الشعر الغنائى فى المدينة لم نبعد ، وهو غزل قصير لم يستطع الشعر القديم أن يمد المغنين والمغنيات منه إلا بقطع قليلة ، لأن الغزل لم يكن الموضوع الغالب على الشعر الجاهلى ، إنما كان يغلب عليه الحماسة والهجاء . ومن ثم كان من الضرورى أن يجد المغنون والمغنيات حاجتهم من شعر حديث يؤلف لهم ، شعر يكون موضوعه الحب ، حياته وموته ووقائعه ، وليس من الضرورى أن يكون قصائد طويلة ،

---

(١) انظر الأغانى ١/٣٧٩ .

بل يكفى أن يؤلف الشاعر طائفة صغيرة مختارة من الأبيات فيغنيها المغنون والمغنيات ويجدوا فيها طَلِبَتهم .

وقد أقبل شعراء المدينة على هـذا الغزل يؤلفونه ، وأقبل من ورائهم شعراء البادية وشعراء مكة . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد فى المدينة إلا وهو ينظم من هذا الشعر الذى تطلبه دور اللهو وقصور النبلاء والأشراف من رجال ونساء كى يغنيه مواليهن من مغنيات ومغنين . وهكذا لم تعد المدينة تعنى بالشعر الذى كان يقال فى حروبها القديمة ، حرب بُعاث وغيرها ، وكذلك لم تعد تعنى بالشعر الذى كان يقال فى حروبها مع مكة ، بل إنها لم تعد تعنى بالشعر القديم كله ، فقد صبت عنايتها على هـذا الشعر الجديد الذى كان يحكى قصة الحب ، ويصور لواعجه وحوادثه . وقد يعنى شاعر المدينة بالمديح فلا يعنى به الناس ، ولا يعنى به المغنون إلا أن يكون فى خليفة أو أمير كبير ، ويذهبوا إليه يطلبون جائزته ، فيغنوا له بهذا الشعر الخاص[1] .

ونقول الخاص لأنه فقد الآذان التى تعنى به فى المدينة ولم تعد هناك أذن تحب أن تسمع سوى الشعر الحديث الذى يغنى فيه طويس ومعبد وجميلة وسلامة ومن إليهم ، فهو الشعر العام الذى يستهوى جميع القلوب والأفئدة .

أصبحت المدينة لاتعنى إلا بهذا الغزل الجديد ، وقد كان يخالف — إلى حد كبير — نسيب القدماء ، الذين لم يكونوا يخصون

---

(١) أغانى ١/٢٩٧ وكذلك ٤/٢٤٩ وما بعدها .

نسيبهم بمقطوعات خاصة على نحو ما نعرف فى هذا العصر ، بل كانوا يسوقون النسيب فى مطلع قصائدهم كأنه ليس غايتهم من أشعارهم ، انما هو يأتى تبعا ، أما فى هذا العصر فقد أصبح الغاية كلها . وأيضا فإنهم كانوا يعنون ببكاء الديار ووصف أثر ارتحال المرأة مع قومها ، أما فى هذا العصر فقد كان أهل المدينة مستقرين ، وكذلك كانت ديارهم ، فلم يعد لشعرائهم ولا لمغنيهم حاجة بهذه الصورة القديمة من النسيب إلا حين يريدون أن يقلدوا القدماء .

كان غزل المدينة يختلف فى صورته عن النسيب القديم لا مما قدمنا فقط ، بل أيضا من أن الشاعر كان يقصد فى القطعة التى يعالجها إلى تصوير حبه وما يلقى فيه من وَصَب وعذاب . وبذلك كان غزله معنويا أكثر من النسيب القديم ، فالشاعر يعنى فيه بحكاية خواطره ، وقلما عنى فيه بوصف المرأة وصفا حسيا ، وينبغى أن لا نفهم من ذلك أن أغلب غزل المدينة فى هذا العصر كان غزلا عفيفا ، ففرق بين أن يكون الغزل معنويا وأن يكون عفيفا ، وقد مر بنا ما كانت تنغمس فيه المدينة من حضارة وترف ، وما كان يشعر به أهلها من حرية فى اللهو والعبث والمجون ، وهى حرية جعلت الغزلين منهم يعبرون فى صراحة عن متعتهم بالمرأة فى شعرهم . وماذا يمنعهم من هذا التعبير ؟ وهم قوم لا عمل لهم إلا الفراغ والا اللهو ، فتلك هى وظيفتهم فى الحياة ، وهى وظيفة نعموا بها حينا من الدهر ، وكان لا بد للغزل الذى يعبرون به

عن خلجاتهم أن يفصح عن وظيفتهم ، بل قل عن حياتهم ، وهى حياة صريحة لا يتكلفون فيها حشمة ولا يصطنعون فيها وقارا .

كانت صورة الغزل فى المدينة هذا العصر صورة صريحة لا التواء فيها ولا عوج ، بل يحكى فيها الشاعر كل ما يقع له مع صواحبه من عبث ومجون فى استهتار واضح ، ومن هنا كنا إذا قلنا إن غزل المدينة فى هذا العصر غزل إباحى لم نكن مخطئين .

وليس معنى ذلك أن المدينة انتفى منها الغزل العفيف ، وإنما معناه أن هذا هو الكثير الغالب ، وقد يوجد بجانب هذا الكثير الغالب شعر عفيف فيه تَسَامٍ وفيه طهر ، فقد كان من زهاد المدينة وفقهائها من تغزلوا وعبروا فى غزلهم عن مثالية من العفاف والنبل دون سقوط فى حكاية رغبات جنسية أو لذائذ جسدية على نحو ما نعرف عند فقيه المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

وأيضا ينبغى أن نعرف أن غزل الإباحيين أنفسهم كان يختلف باختلاف المرأة التى يتغزلون فيها ، فالمرأة العربية الكريمة من قريش أو من الأنصار لا يتغزلون بها فى حرية على نحو تغزلهم بالقيان من الجوارى المغنيات اللائى كن يُبَعْن فى الأسواق .

وليس من شك فى أن هؤلاء القيان كان لهن أثرهن فى شيوع الغزل الإباحى بالمدينة وانتشاره ، وكذلك كان شأنهن بمكة فقد كانت البيئتان تتشابهان من حيث الحضارة والترف ومن حيث وجود دور اللهو وهؤلاء القيان .

ولعلنا نستطيع بذلك أن نفهم شيوع الغزل العفيف فى البادية عند جميل وكُثَيِّر وأصحابهما ، فقد كانت البيئة غير متحضرة ، ولم يكن هناك هؤلاء القيان ولا هؤلاء الشبان من أهل المدينة الذين خلعوا كل حشمة ووقار .

على كل حال كان غزل المدينة فى هذا العصر يتميز بألوان من الإباحية والحرية ، فالشاعر فيه مرسل طليق لا يعوقه شىء عن التصريح بكل مايدور فى نفسه ومع صاحبته . وقد شاع بين الشعراء بِدْع جديد هو أن يقصّوا حوادثهم من غير تحفظ ولا تكلف ، واستمع إلى هذه القصة ينظمها إسماعيل بن يسار أحد الموالى هناك[1] :

كَلْتُمُ أنتِ الهمُ يا كَلْتُمُ ... وأنتُمُ دائى الذى أكْتُمُ
أكاتمُ الناس هوًى شفَّنى ... وبعضُ كتمان الهوى أحْزَمُ
قد لُمْتِنى ظلماً بلا ظِنَّةٍ ... وأنت فيما بيننا ألْوَمُ
أبدى الذى تُخْفِينه ظاهرًا ... أرتدُّ عنه فيك أو أقْدِمُ
إما بيأسٍ منك أو مطمعٍ ... يُسْدَى بحسن الودِّ أو يُلْحَمُ
لا تتركينى هكذا ميِّتاً ... لا أُمْنَح الودَّ ولا أُصْرَمُ
أوفى بما قلتِ ولا تندمى ... إنَّ الوفىَّ القولَ لا يَنْدم
إيه بما جئتُ على رِقْبَةٍ ... بعد الكرى والحىُّ قد نَوَّموا
أخافت المشىَ حِذار العِدَا ... والليلُ داجٍ حالكٌ مظلمُ

(١) أغانى ٤/٤١٦ .

ودون ما حاولتُ إذ زرتكم أخوك والخالُ معاً والحَمُ
وليس إلا الله لى صاحبٌ إليكمُ والصارمُ اللَّهْذَمُ
حتى دخلت البيت فاستذرفت من شَفَقٍ عيناك لى تَسْجُمُ
ثم انجلى الحزنُ وروعاته وغُيِّبَ الكاشحُ والمُبْرِمُ
فبتُّ فيما شئت من نعمةٍ يَمْنَحُنيها نَحْرُها والفم
حتى إذا الصبح بدا ضَوْؤهُ وغارتِ الجوزاءُ والمِرزمُ
خرجتُ والوطء خفىٌّ كما ينسابُ من مكمنِه الأرْقَمُ

وواضح أن إسماعيل يبدأ قصته بمخاطبة صاحبته كلثم، وهو يعلن أنه حاول أن يكتم هواها، ويذكر ما كان من لومها إياه ويصف ما كان منه بعد ذلك، فهو يتردد بين اليأس والطمع. وما يزال بها يطالبها بما وعدته، ثم يقص علينا وَعْدًا معها، فيروى كيف أنه زارها خلسة ذات ليلة وقد نام أهلها ورقباؤها، ويصف كيف كان يخفّف مشيه حتى لا يشعر به أحد، وما يلبث أن يدخل بيتها فتبكى وتبلّل خدودها بالدموع، ثم ينجلى الحزن، أو قل ينجلى أثر المفاجأة، فينعم كل منهما بصاحبه، حتى إذا بدا ضوء الصباح انصرف إسماعيل كما أقبل، يخفف من مشيه وسيره، كأنه أرقم ينساب من مكمنه.

أرأيت الى هذه القصة القصيرة وما تصف فى حرية وصراحة؟ إنها مثال هذا الغزل الإباحى الذى شاع فى المدينة والذى لم يكن إسماعيل ابن يسار خير من يمثله، وإنما كان الأحوص الشاعر الأنصارى هو خير من يمثله حقاً، فقد شاعت فى شعره الحرية والصراحة.

وسنعرض للأحوص بالتفصيل فى غير هذا الموضع ومهما يكن فإن كثيرا من غزل المدينة هذا العصر كان غزلا إباحياً مكشوفا .

٤

خصائص ومميزات موسيقية

تحدثنا عن خصائص الشعر الغنائى فى المدينة ومميزاته من حيث الموضوعات والمعانى التى كان يعالجها ، ولكن لم نتحدث عن موسيقاه ، ولعل الحديث فى هذا الجانب أوفر شُعْباً ، وأكثر فروعاً ، فهذا الشعر الغنائى كان مقطوعات تُغَنَّى ، أو قل - كما كانوا يقولون - كان أصواتاً تغنى . ومعنى ذلك أن المغنين والمغنيات كانوا يُقَطِّعونه ويمدّدونه أو يَمْطُطونه ويضربون عليه بآلاتهم الموسيقية ، وقد تُضْرب عليه جوقة ، وقد يرقصون ، عليه كما قدمنا فى حديثنا عن دار جميلة ، فقد كان غناء الشعر فى هذه الدار يصحب بجوقة تضرب على الآلات الموسيقية بينما يغنى المغنون وقد لا يكتفون بذلك ، فإذا هم يرقصون فى أثناء هذا الضرب .

وليس هذا كل ما مر بنا فى فصل الغناء السابق ، فقد مر بنا أيضاً أن هؤلاء المغنين والمغنيات نقلوا إلى العربية أنغاما وألحانا أجنبية عن نشيط وغيره ، وأنهم استطاعوا أن ينقلوا الغناء العربى من حال بسيطة ساذجة إلى غناء متقن ، أو قل إلى فن له مصطلحاته وتقاليده ، فإذا بنا نسمع عن ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف ثقيل ، ورمل ، وخفيف رمل ، وهزج ، وإذا بنا نسمع عن أصابع ، فهذا ثقيل بالبنصر أو

بالحنصر فى مجرى البنصر ، ونحو ذلك مما عرضنا له فى غير هذا الموضع.

وإنما نذكر ذلك الآن لنتساءل هل أحدث هذا الفن الجديد من الغناء عند العرب تجديداً أو تغييراً فى موسيقى الشعر الغنائى أثناء هذا العصر الأموى . وأكبر الظن ، بل أكبر اليقين أن تجديداً أو تغييراً فى هذه الموسيقى قد حدث ، ويتضح ذلك لمن يقرن موسيقى هذا الشعر الغنائى الذى كان يُغَنَّى فى المدينة لهذا العصر الى موسيقى الشعر الجاهلى القديم ، ونقصد طبعاً موسيقى الشعر الغنائى الذى كان يؤلف حينئذ للمغنين والمغنيات ، لا ما كانوا يغنون فيه من الشعر كله ، فبعض ما كانوا يغنون فيه كان يختار لهم من الشعر القديم نفسه .

ولعل أول ما يدركه قارىء الأغانى فى هذا الصدد أن موسيقى الشعر الغنائى الجديد كانت أكثر صفاء من موسيقى الشعر القديم ، وكانت لغته أكثر قرباً للناس من لغة الشعر القديم ، فهى تختار من اللغة المألوفة ، وقد كان ذلك من أهم الاسباب فى أن يصبح هذا الشعر الغنائى الجديد شعراً شعبيا .

ويأتى الوزن بعد اللغة ، وهو الآخر قد طرأ عليه كثير من التعديل إذ كان المغنون والمغنيات يضطرون مع ألحانهم أن يطيلوا ويمدّدوا فى بعض حروف تفعيلات البيت وأن يقصروا أو يهمسوا فى حروف أخرى من هذه التفعيلات . وإن ذلك يجعلنا نؤمن بأن موسيقى الشعر القديم نفسها تطوّرت تحت تأثير هذا المد والهمس فطالت المسافات

الزمنية فى بعض الحروف وقصرت فى أخرى . وقد أتاحت هذه الصورة من الغناء للشعراء المعاصرين ، أو قل نبهتهم ، أن يحدثوا زحافات وعللا كثيرة فى شعرهم . وإن من يدرس هذا الباب فى عروض الخليل يعرف الى أى حد يتغير البحر عن صورته حين تدخل فيه هذه الزحافات والعلل . فالرمل مثلا ووزنه فاعلاتن ثلاث مرات ، حين يلم به الزحاف فى جزئه الأول ويصبح فعلاتن يتغير عن صورته القديمة ، ويصير سريعا لسرعة حركاته . ومن المعروف أن الحركات القصيرة تجعل البحر سريعا ، بخلاف الطويلة فتجعله بطيئا ، وتلائم الأولى الموضوعات العنيفة التى تعبر عن عواطف ملتهبة ، بينما تلائم الثانية الموضوعات الهادئة التى تعبر عن عواطف فاترة أو محزنة . وعلى هذا النحو كان الشعراء فى المدينة أثناء هذا العصر يُحَرِّفون فى صورة الوزن القديم تحت تأثير الغناء المعاصر لهم ، تحريفا يضيق ويتسع فى تفعيلات الشعر . وإن من يرجع إلى عروض الخليل يدرك مدى هذا التحريف ، فهو أكثر وأوسع من أن نلم به فى هذا المكان .

وليس هذا كل ما أثَّر به المغنون والمغنيات فى الشعر الغنائى وأوزانه ، فقد أثروا فيه من طريق آخر ، وذلك أنهم كانوا يقبلون على الأوزان الخفيفة ، ويطلبونها ، مما جعل أصحاب الشعر الغنائى فى عصرهم يهجرون ، الى حد ما ، الأوزان الطويلة من مثل الطويل والكامل ويقبلون على الأوزان السهلة من مثل الوافر والخفيف والرمل والمتقارب والهزج ، ولم يكتفوا بذلك ، فقد توسعوا فى تلبية نداء المغنين والمغنيات ، فإذا هم يجزئون لهم

الأوزان الطويلة المعقدة ، كما يجزئون لهم الأوزان السهلة البسيطة ، حتى يخفّفوا عليهم ما وسعهم التخفيف ، وحتى يهيّئوا لهم الفرصة لتطبيق ألحانهم وأنغامهم على ألفاظ الشعر كما يريدون . واستطاع المغنون حقاً أن ينفذوا من ذلك إلى كل ما كانوا يتمنونه ويحلمون به من الوصول ببعض أصواتهم إلى أروع صورة ممكنة لفنهم وغنائهم . ولعل القارىء يذكر ما مر بنا فى فصل الغناء عند معبد وأنه كان يقول : « لقد صنعت ألحانا لا يقدر شبعان ممتلىء ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، ولقد صنعت ألحانا لا يقدر المتكىء أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم » وقد ذكر أبو الفرج لحنا من هذه الألحان التى لا يستطيع أن يغنيها متكىء حتى يحثو ولا قاعد حتى يقوم وهو :

ولقد قلتُ والضمير كثيرُ البلابلِ
ليت شعرى تمنّيا والمُنى غيرُ طائلِ
هل رسولٌ مبلّغٌ فيؤدّى رسائلى

وكان لحن معبد فيه خفيف ثقيل بالسبابة فى مجرى الوسطى [١] ، وواضح أن هذا اللحن الذى توفرت فيه كل هذه القيم الموسيقية فى الغناء والذى كان يقيم الناس ويقعدهم ، وزنه مجزأ أو معدل ، فهو من مجزوء الخفيف . ومن يقرأ الأغانى يخيل إليه أن أصحاب الشعر الغنائى لم يتركوا فى هذا العصر وزنا قديما معقداً أو بسيطا إلا جزأوه ، ابتغاء تحريف

(١) أغانى ٩/١٢٧

صورته بحيث تتعادل مع الغناء الحديث . وقد مر بنا فى فصل الغناء أن يونس الكاتب اشتهر بغنائه فى الزينبيات السبع ، وهى سبع مقطوعات لابن رهيمة فى زينب بنت عكرمة على ما قدمنا . ومن ينظر [1] فيها يجد ثلاثاً من الأوزان غير المجزأة ، وأربعا من الأوزان المجزأة وهى قوله :

أقصدتْ زينبُ قلبي وسَبَت عقلي ولبّي

وهو من مجزوء الرمل ، وقوله :

إنما زينب همّي بأبي تلك وأمّي

وهو أيضاً من مجزوء الرمل ، وقوله :

وجَدَ الفؤاد بزينبا وَجْدًا شديداً مُتْعِبا

وهو من مجزوء الكامل ، وقوله :

إنما زينب المُنَى وهيَ الهمُّ والهَوَى

وهو من مجزوء الخفيف ، فكثرة زينبيات ابن رهيمة من الأوزان المجزأة ، وإن فى هذا ما يرمز إلى العصر كله ، إذ كَثُرَ الشعر على الأوزان المجزأة ، وكان الشعراء يصنعون ذلك إرضاء للمغنين والمغنيات فإن تركوه فإلى أوزان تشبه هذه الأوزان المجزأة كالهزج والمتقارب ، وكان المغنون والمغنيات يطلبون ذلك بأنفسهم ويلحون فى طلبه . روى صاحب الأغانى أن ابن عائشة المغنى تعرض لعروة بن أذينة ، وطلب منه

---

(١) أغانى ٤/٤٠١ وما بعدها .

قطعة من الهزج يغنى فيها ، وما زال به حتى صنع له قوله :

سُلَيْمَى أزْمَعَتْ بَيْنا فأيْنَ بوصْلِها[١] أينا[٢]

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أن بعض المغنين والمغنيات كان ينظم الشعر ، ومعنى ذلك أن من المغنين والمغنيات أنفسهم من كان يقوم بإحداث الملائمة بين الشعر وما يريد من نغم وتلحين. وربما كان أشهر من صنع الشعر منهم فى هذا العصر سلامة القس، وقد روى صاحب الأغانى من شعرها الذى غنت فيه قولها تندب يزيد بن عبد الملك مولاها ، وهو من مجزوء الرمل :

قد لعَمْرى بتُّ ليلى كأخى الدّاءِ الوَجيعِ[٣]

وبجانب سلامة نجد أبا سعيد مولى فائد ، وكان مغنياً وشاعراً[٤] . وما من ريب فى أن أبا سعيد وسلامة ومن لف لفهما من شعراء المغنين أحدثوا تغييراً كثيراً فى أوزان الشعر تحت تأثير ألحانهم وأنغامهم .

ونحن نلاحظ من طرف آخر أن الدورة تمت ، فكما أن بعض المغنين والمغنيات تعلّم الشعر ، كى ينظمه حسب مايريد للحنه ونغمه . فكذلك تعلّم بعض الشعراء الغناء ومصطلحاته ، كى يوفر لشعره مايريد من نغم ولحن . وخير من يمثل ذلك عروة بن أذينة أحد فقهاء المدينة ومحدثيها[٥] ، فقد كان يصوغ الألحان والأنغام على شعره ، وقد روى

---

(١) هكذا فى ابن عبد ربه ٣/٢٣٣ ورواها أبو الفرج تقولها بمعنى تظنها .
(٢) أغانى ٢/٢٣٧ وما بعدها . (٣) أغانى ٨/٣٣٣ .
(٤) نفس المصدر ٤/٣٣٠ . (٥) أغانى ٢١/١٦٢ .

له ابن عبد ربه صوتين مما يغنى فيه الحجازيون [١] .

ولعل فى هذا كله ما يوضح كيف أن الشعر الغنائى فى المدينة لهذا العصر كان يمتاز بخصائص موسيقية كثيرة سواء فى لغته أوفى أوزانه فقد دخلها تعديل كثير ، تارة عن طريق الزحافات والعلل وتارة عن طريق اختيار الأوزان السهلة البسيطة ، وتارة ثالثة عن طريق تجزئتها بحيث تصبح خفيفة على الفم والسمع ، وبحيث يستطيع المغنون أن يحمّلوها من قيم الغناء وألحانه وأنغامه مايريدون .

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٣٣

الفصل الرابع

اتساع موجة الشعر الغنائى

١

الشعر الغنائى بين المدينة ومكة

رأينا المدينة تنهض بالشعر الغنائى فى هذا العصر نهضة واسعة وهى نهضة كانت تشاركها فيها مكة ، بل قل كانت تنافسها منافسة شديدة ، وطبيعى أن تنافس مكة المدينة ، فقد كان بها كثرة من المغنين . حقاً هى تأخرت عن المدينة قليلا فى النهوض بفن الغناء ، ولكنها لم تلبث حين عرفته أن أسرفت فيه ، فكان لها مغنون ممتازون مثل ابن مسجح وهو أقدم مغنيها ، وقد اشتهر بنقله إلى العربية ألحاناً وأنغاماً من الغناء الأجنبى : الفارسى والرومى[١] ، وكذلك صنع تلميذه ابن محرز[٢] .

وينبغى أن لا نفهم من ذلك أن مكة استقلت عن المدينة فى غنائها ، إذ كانت تستمد دائما منها . وآية ذلك أن أشهر مغنيها بعد ابن مسجح وابن محرز وهو ابن سُرَيج ، تتلمذ على طُوَيْس فى المدينة[٣] ، وهو أول من ضرب فى مكة بالعود الفارسى على الغناء العربى[٤] ، وكان يغنى

---

(١) أغانى ٣/٢٧٦ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٧٨ .
(٣) ابن عبد ربه ٣/٢٤٢ .
(٤) أغانى ١/٢٥٠ .

فى الثقيل والخفيف[١]، فيستوفى النغم الطوال ويحسن النغم القصار. وليس ابن سريج فقط هو الذى كان يأخذ عن أصحاب الغناء فى المدينة فقد كان ابن مسجح وابن محرز يذهبان إليها لأخذ بعض الأصوات من المغنين والمغنيات هناك[٢].

على كل حال كانت مكة تتأثر المدينة فى غنائها، وقد اشتهر فيها بجانب من قدمنا الغريض تلميذ ابن سريج، وكان غناؤه أشجى من غناء أستاذه، وهو مولى الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الاصغر صاحبة عمر بن أبى ربيعة، وكان من مواليها أيضا يحيى قيل وسُمَيَّة[٣]. وبجانب هؤلاء نجد مغنين آخرين مشهورين، وقد ترجم لهم صاحب الأغانى من مثل الهذلى[٤] وعبادل[٥] وابن عباد[٦] ويحيى المكى[٧] وإسماعيل بن الهِرْبذ[٨] وعمر الوادى[٩]. وكما اكتظت مكة بالمغنين اكتظت بالمغنيات[١٠]، وإن كانت لم تستطع أن تظفر بمثل جميلة وسلامة وغيرهما من مغنيات المدينة الممتازات.

ومكة إن لم تستطع أن تتفوق على المدينة تماما فى فن الغناء فإنها نافستها فيه، كما نافستها فى فن الشعر الغنائى، فقد كان لها فيه شعراء

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ١/٢٧٦ (٢) نفس المصدر ٨/١٨٨.
(٣) انظر ترجمة الغريض فى الأغانى ٢/٣٥٩.
(٤) الأغانى ٥/٦٥. (٥) نفس المصدر ٦/٩٦.
(٦) نفس المصدر ٦/١٧١ (٧) نفس المصدر ٦/١٧٣
(٨) نفس المصدر ٧/١٠٤. (٩) نفس المصدر ٧/٨٥.
(١٠) نفس المصدر ١/٣١٣ وكذلك ٨/٢١٠.

كثيرون ، وأهم شعرائها عمر بن أبي ربيعة وعبيدالله بن قيس الرقيات والحارث بن خالد المخزومى ، والعرجى . وعمر هو أكبر شاعر غنائى أنتجته حركة الغناء فى مكة لهذا العصر ، وقد ساعدته ظروف مختلفة على أن ينبغ فى هذا الفن ويشتهر فيه ، فقد كان ثريًّا ثراء واسعاً فكان ابن سريج والغريض يعيشان فى كنفه ويغنيان فى أشعاره ، وكان له جاريتان فى بيته يغنيانه فى شعره يقال لإحداهما بَغوم وللأخرى أسماء [١] . ولم يساعده ثراؤه على اتخاذ المغنين والمغنيات وعنايتهم بغناء شعره فقط ، بل ساعده على شيء آخر مهم وهو أن يقصر نفسه على الغزل وبذلك لم يتكلف مديحا ولا فناً آخر من فنون الشعر التقليدى . روى صاحب الأغانى أن سليمان بن عبد الملك قال له : « ما يمنعك من مدحنا ، فقال إنى لا أمدح الرجال ، إنما أمدح النساء » [٢]

تخصص عمر فى فن الغزل وهو أهم موضوعات الشعر الغنائى فى عصره ، وشعره فى هذا الجانب يعتبر طَرَفاً خالصة فى جمال موسيقاه وفى صراحته واستهتاره ، أو قل إباحيته . ويخيل إلى الانسان أن عمر لم يترك فتاة جميلة فى مكة إلا شبَّب بها وذكرها ونوَّه باسمها ، فهو يشبب بزينب بنت موسى الجمحية ، [٣] وبابنة عمها نُعْم ، [٤] وبالثريا بنت على ابن عبد الله ، ويقول صاحب الاغانى إنه كان مغرَماً بها ، وكانت

---

(١) أغانى ١٦٥/١ (٢) نفس المصدر ٧٤/١ .
(٣) نفس المصدر ٩١/١ وما بعدها (٤) أغانى ٢١٣/٤ .

عُرْضَة ذلك جمالا وتماما[١]. ولم يكتف عمر بذلك فقد كان يتعرض للنساء الحواجّ فى الطواف وغيره من مشاعر الحج، ويشبب بهن[٢]. ومن أشهر من شبب بهن ليلى بنت الحارث البكرية[٣]، ورملة[٤] بنت عبدالله بن خلف الخزاعية، وفاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية[٥] وزوجة[٦] شيخ النحو أبى الأسود الدؤلى. وهكذا لا يكاد يترك سيدة أو فتاة تشتهر بميسم جمال وتقصد إلى مكة حتى يتعرض لها وينظم فيها غزله.

ولم يكن عمر يتعرض للسيدات والفتيات فى مناسك الحج فقط بل بلغ به عبثه أن كان يخرج لاستقبالهن فى طرقهن إلى مكة. روى صاحب الأغانى أنه خرج مع ابن سريج على نجيبين رحالتاهما ملبستان بالديباج، وقد خضبا النجيبين، ولبسا حلتين، فجعلا يتلقيان الحاج ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل[٧]. وروى صاحب الأغانى أيضا أنه كان يعتمر فى ذى القعدة، ويحل، ويلبس تلك الحلل والوشى، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويُسْبِل لمته، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات، ويتلقى المدنيات إلى مَرّ، ويتلقى الشاميات إلى السكديد[٨]. وكل حوادث عمر مع هؤلاء الحواج وكل

---

(١) أغانى ١/٢١٢
(٢) الشعر والشعراء ص ٣٤٩.
(٣) أغانى ١/١٥٧
(٤) نفس المصدر ١/٢١٤ وما بعدها
٥) نفس المصدر ١/٨٤
(٦) نفس المصدر ١/١٤٧.
(٧) نفس المصدر ١/٢٥٨
(٨) نفس المصدر ١/٢٢١.

وقائعه مع غيرهن من فتيات مكة ونسائها ، كل ذلك مصور فى شعره أجمل تصوير ، وهو شعر ينساق كله فى التشبيب والغزل .

وكان يعاصر عمر عبيدالله بن قيس الرقيات ، وهو « أشد قريش أسْرَ شعر فى الإسلام [١] » . وإنما لقب الرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة ، سمين جميعا رقية [٢] . وكان زبيرى الهوى ، وله فى آل الزبير مدائح كثيرة . وقد مدح من بعدهم عبد الملك بن مروان . ومعنى ذلك أنه لم يقصر نفسه مثل ابن أبى ربيعة على الغزل ، يقول ابن سلام : « كان غزلا ، وأغزل من شعره شعر عمر بن أبى ربيعة ، وكان عمر يصرح بالغزل . . وكان عبيـــد الله يشبب ولا يصرح ، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر ، وكان انقطاعه الى آل الزبير » [٣] .

ويأتى بعد ابن قيس الحارث بن خالد المخزومى ، وهو أحد شعراء قريش الغزلين فى هذا العصر ، « وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة ، لا يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها [٤] حين تلم بمكة فى حجها . وكان على طريقة عمر يشبب بالحواج [٥] ، وقد ولاه عبد الملك مكة فحج بالناس وحجت عائشة ، فأرسلت اليه : « أخِّر الصلاة حتى أفرغ من طوافى فأخرها »

---

(١) ابن سلام ص ١٣٧ (٢) أغانى ٥/٧٣
(٣) ابن سلام ص ١٣٧ (٤) أغانى ٣/٣١٢ .
(٥) نفس المصدر ٣/٣٢٩ .

وأنكر أهل الموسم ذلك منه ، وعلم عبد الملك فعزله [١] . وغزل الحارث غزل طريف ، لكنه لا يلحق غزل عمر فى صراحته ولا فى تأثمه وكثرة وقائعه .

وربما كان العرجى أشبه الشعراء المكيين بعمر ، وهو من أبناء عثمان بن عفان ، فهو من بيت ثروة ويسار ؛ وسمى العرجى لأنه كان ينزل عرج الطائف ، وقيل بل لمال كان له فى العرج [٢] . وقد نحا نحو عمر فى الغزل وتشبه به فأجاد ، وكان يعيش مثله معيشة لاهية ، وساعده على ذلك ثراء ضخم ، فقد روى الرواة أن بجاعة حدثت فأمر بإطعام الناس وإعطائهم ، وبلغ ما أخرجه حينئذ عشرين ألف دينار ، كما روى أنه كان يلبس الحلتين قيمتها خمسمائة دينار [٣] .

وكان من سوء حظ العرجى أن هجا محمد بن هشام هجاء مقذعا ، وكان محمد خال هشام بن عبد الملك . فلما ولى الخلافة ولاه مكة ، فمازال يطلب سبيلا إلى العرجى حتى وجده [٤] ؛ فأخذه وقيده وضربه ، وأقامه للناس ثم حبسه ، ومكث فى حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات [٥] . وفى حبسه يقول [٦] :

أضاعونى وأى فتًى أضاعوا ليوم كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ

وهؤلاء هم أهم شعراء مكة فى هذا العصر ، وكلهم من قريش وقد

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٣/٣١٧ . (٢) أغانى ١/٣٨٥ .
(٣) انظر نفس المصدر ١/٣٩٥ . (٤) نفس المصدر ١/٤١٠ .
(٥) نفس المصدر ١/٤٠٩ . (٦) أغانى ١/٤١٣ .

كان وراءهم شعراء كثيرون مثل كثير بن كثير[١] السهمى ، والفضل ابن العباس اللهبى[٣] ثم أبى العباس الأعمى ، وكان من الموالى .

على كل حال أحدث الغناء فى مكة ، كما أحدث فى المدينة ، نشاطاً واسعاً فى الشعر الغنائى ، فقد كثر أصحابه وكثر ما يقدمون من أصوات أو كما نقول الآن من أدوار ، يغنى فيها المغنون والمغنيات فى مكة . وينبغى أن نلاحظ هنا شيئاً مهماً وهو أن هذه الأصوات أو الادوار لم تكن تقدم إلى أصحاب الغناء فى مكة فقط ، بل كانت تقدم أيضاً إلى أصحاب الغناء فى المدينة ، وكان عمر نفسه يذهب بشعره إلى المدينة ويقدمه إلى المغنين ليغنوه فيه ، وكان يعطيهم فيكثر فى عطيته من أجل ذلك[٤] . وكما كان يقصد المغنين بشعره كان يقصد دور المغنيات وخاصة دار جميلة[٥] ، وكان العرجى يصنع صنيعه[٦] . وإن من يرجع إلى ترجمة ابن قيس الرقيات فى الأغانى يجد أكثر من غنى فى شعره كانوا مدنيين ، وعلى رأسهم مالك بن أبى السمح الطائى ، ولذلك ترجم له أبو الفرج بعده مباشرة . وغير ابن قيس مثل عمر والعرجى كانوا شركة بين المغنين فى مكة والمدينة .

ويحسن أن نلاحظ هنا أيضا ملاحظة ثانية بجانب الملاحظة السابقة ، وهى أن شعر عمر وغيره من شعراء الغزل فى مكة كان فى فتيات بلدتهم

---

(١) انظر أغانى ٢٤٦/١ وكذلك ٣١٩/١ وأيضاً ١٧٧/٩ .
(٢) أغانى طبع بولاق ٢/١٥ (٣) نفس المصدر ٥٩/١٥ .
(٤) أغانى طبع دار الكتب ٢٩٦/٤ . (٥) نفس المصدر ٢٠٦/٨ .
(٦) نفس المصدر ٢٣٠/٨ وما بعدها .

ونسائها من الأحرار ، وإن تركوهن فإلى الحواج من شريفات العرب ونبيلاتهن ، وقلما تغزلوا فى أمة من الإماء .

ومهما يكن فإن مكة شاركت المدينة فى الشعر الغنائى هذا العصر ، وقد افتنّ فيه أصحابه على صور مختلفة .

٢

فتنة أهل المدينة بالشعر الغنائى

قدمنا فى الفصل الثانى من هذا البحث مدى تعلق أهل المدينة بالغناء ومدى تقديرهم له وإعجابهم به ، وكان الغناء يقترن بهذا الشعر الغنائى الذى يغنى فيه ، فكان طبيعيا أن ينسحب إعجاب أهل المدينة بالغناء على الشعر الذى يصحبه . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أحد فى المدينة إلا وهو يروى هذا الشعر ويرفع صوته به إن كان له صوت ممتاز ، ومن يرجع إلى كتاب الأغانى لأبى الفرج ير هذا الشعر يروى فى كل مكان بالمدينة ، حتى فى المسجد ، وعلى لسان أشهر الفقهاء فى العصر ، وأكثرهم تحرجا ، فقد روى صاحب الأغانى أن سعيد بن المسيب كان ينشد الشعر فى مسجد رسول الله ، وقال أبو الفرج : إنه كان كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر[1] .

وإذا كان ابن المسيب يروى الشعر فى المسجد فقد كان أهل المدينة

---

(١) أغانى ٥/٩٣ .

شبابُهم وكهولهم يروونه فى الطرقات ، وفى ضواحى المدينة ، يدفعهم فى ذلك إعجاب شديد بهـــذا الشعر ، بل قل فتنة شديدة . روى أبو الفرج أن إنسانا أنشد عند إبراهيم بن هشام ، وهو والى المدينة قول الأحوص :

إذ أنت فينا لمن ينهاك عاصيةً ... وإذ أجرُّ إليكم سادرا رسَنِي

فوثب أبو عبيدة بن عمار بن ياسر قائما ، ثم أرخى رداءه ، ومضى يمشى على تلك الحال ، ويجره ، حتى بلغ العِرْض[1] ، ثم رجع فقال له إبراهيم بن هشام حين جلس ما شأنك ، فقال : أيها الأمير إنى سمعت هذا البيت مرة فأعجبنى فحلفت لا أسمعه إلا جررت رسنى[2] . ولعل خير من يمثل فتنة أهل المدينة بالشعر الغنائى أبو السائب المخزومى ، وكان من عبادها ، وكان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة[3] ، ومع ذلك كان إذا استمع إلى مقطوعات الشعر الغنائى ، وخاصة مقطوعات الغزل طرب طربا شديدا . روى أبو الفرج أنه سمع رجلا ينشد قول أبى دهبل الجمحى :

أليس عجيباً أن نكونَ ببلدةٍ ... كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلَّمُ

فقال له أبو السائب : قف يا حبيبى ، فوقف ، فصاح بجارية : يا سلامة اخرجى ، فخرجت ، فقال له : أعد بأبى أنت البيت فأعاده ، فقال : بلى والله إنه لعجيب عظيم ، وإلا فسلامة حرة لوجه الله اذهب فدينك مصاحبا[4] . وروى أبو الفرج أن رجلا كان يثقل عليه أنشد

---

(١) واد من وديان المدينة فيه زروع ونخيل . (٢) أغانى ٤/٢٦١ .
(٣) أغانى ١/٢٧٧ . (٤) نفس المصدر ٧/١٢٠ .

أمامه غزلا فأقبل عليه يقول ، بأبى أنت ! كنت والله لا أحبك وتثقل على ، فأنا الآن أحبك وتخف[1] علىّ ، وقد أنشده يوما إسماعيل ابن أبى أويس لقيس :

تعلّق روحى روحها قبل خلقنا
ومن بعد ما كنّا نطافاً وفى المهد
فزاد كما زدنا وأصبح نامياً وليس إذا متنا بمنتقض العهد
ولكنه باقٍ على كل حادث وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

فخلف لا يزال يقوم ويقعد حتى يحفظها ويرويها[2] . وروى ابن عبد ربه أنه خرج يوما هو وابن أبى عتيق يتنزهان ، فمال أبو السائب لبعض حاجته وعليه طويلته فانصرف دونها ، فقال له ابن أبى عتيق : ما فعلت طويلتك ؟ قال : ذكرت قول كثير :

أرى الإزار على لبنى فأحسده
إنّ الإزار على ما ضمّ محسود

فتصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا البيت على لسانه ، فأخذ ابن أبى عتيق طويلته ، فرمى بها وقال له : أتسبقنى أنت إلى بر الشيطان[3] . وروى ابن أبى الزناد قال : « كنت ليلة عند الحسن ابن زيد ببطحاء[4] ابن أزهر نصف الليل جلوساً فى القمر ، وأبو السائب

(١) أغانى طبع دار الكتب ٧/١٤٣ (٢) نفس المصدر ٩/١٩٦ .
(٣) ابن عبد ربه ٣/٢٣٩ . (٤) موضع على ستة أميال من المدينة .

المخزومى معنا ، وكان ذا فضل ، وكان مشغوفا بالسماع والغزل ، وبين أيدينا طبق عليه فريك ، فنحن نصيب منه ، فأنشد الحسن قول داود بن سلم:

ومن يُطِعِ الهوى يُعْرَفْ هواهُ
وقد يُنْبيك بالأمر الخبيرُ

وجعل يمدّ به صوته ويطرّبه ، فأخذ أبو السائب الطبق ، فرمى به إلى السماء فوقع الفريك على رأس الحسن بن زيد فقال له : مالك ويحك أجننت ؟ فقال له أبو السائب : أسألك بالله وبقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ماأعدت إنشاد هذا الصوت ومددته كما فعلت ! فما ملك الحسن نفسه ضحكا[1] . وروى أبو الفرج أنه مضى مع بعض أصحابه إلى العقيق فتناشدا وتحدثا ولم يلبث صاحبه أن أنشده للعرجى :

بانا بأنعَمِ ليلةٍ حتى بدا
صُبْحٌ تلوَّحَ كالأغرّ الأشقَرِ
فتلازما عند الفراق صبابةً
أخْذَ الغريم بفضل ثوب المُعْسِرِ

فقال لصاحبه : أعده على ، فأعاده ، فقال : أحسن والله ! امرأتى طالق إن نطقت بحرف غيره حتى أرجع إلى بيتى ، ومضى مع صاحبه فلقيهما عبد الله بن حسن بن حسن فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ، فقال له :

---

(١) أغانى ٦/١٦ .

فتلازما عند الفراق صبابةً
أخْذَ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت عبد الله إلى صاحبه ، وقال له : متى أنكرت صاحبك ؟ فقال منذ الليلة ، فقال إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضى هو وصاحبه فلقيهما محمد بن عمران التيمى قاضى المدينة . . . فسلم ثم قال كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عند الفراق صبابةً
أخْذَ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت محمد بن عمران إلى صاحبه ، فقال له : متى أنكرت صاحبك قال : آنفا ، فلما أراد المضىّ . قال له صاحب أبى السائب : أفتدعه هكذا ؟ والله ما آمن أن يتهوّر فى بعض آبار العقيق ، قال : صدقت ، يا غلام قيدَ البغلة فأخذ القيد ، ووضعه فى رجله ، وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه ، يُرِى أنه يفهم عنه قصته ، ثم نزل الشيخ وقال : يا غلام احمله على بغلتى ، وألحقه بأهله[1] .

ويقول أبو الفرج « كان أبو السائب رجلا صالحاً زاهداً متقللا يصوم الدهر ، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلا ، توجه ابنه يوماً يأتيه بما يفطر عليه ، فأبطأ الغلام إلى العتمة ، فلما جاء ، قال له : يا عدو نفسه ، ما أخرك إلى هذا الوقت ؟ قال : جزت بباب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بنى ، فوالله لئن كنت

(١) أغانى ٣٩٧/١

أحسنت لأحبونك ولئن كنت أسأت لأضربنك ، فاندفع يغنى بشعر كثير :

ولما علوا شغباً[١] تبينت أنه تقطع من أهل الحجاز علائق
فلا زال حسرى ظلعاً لم تحملنها إلى بلد ناء قليل الأصادق

فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل ، فقالت له زوجته : يا هذا قد انتصف الليل وما أفطرنا ، فقال لها : أنت طالق إن كان فطورنا غيره فلم يزل يغنيه إلى السحر ، فلما كان السحر ، قالت له زوجته : هذا السحر وما أفطرنا ، فقال : أنت طالق إن كان سحورنا غيره ، فلما أصبح قال لابنه : خذ جبتى هذه وأعطنى خلقك ليكون الجباء فضل ما بينهما ، فقال له : يا أبت ! أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا أقوى على البرد منك ، قال : يا بنى ما ترك صوتك هذا للبرد علىّ سبيلا ما حييت »[٢] .

وإذا كان أبو السائب على صلاحه وزهده وصومه الدهر يطرب للشعر هذا الطرب ، فغيره ممن لم تكن حياتهم تقوم على الزهد والمبالغة فى الصوم والصلاة كان يطرب طرباً ، لعله أشد من طربه ، حين يستمع إلى ما كان يحدثه الأحوص وغيره من شعراء المدينة ومكة ، وما كان يحدثه كثير وغيره من شعراء البادية ، ويغنى فيه المغنون .

وكما كان شباب المدينة وشيوخها يعجبون بهذا الشعر الغنائى

---

(١) الشغب : منهل بين طريق مصر والشام

(٢) أغانى ٧/٢٩٠ .

وخاصة الغزل منه ، كان نساء المدينة أيضاً يعجبن به إعجابا واسعاً ، وقد بلغ من إعجابهن به أنهن كن يروينه ، وكانت السيدة سكينة بنت الحسين من أهم النساء اللائى تعلقن به وبروايته ، وكان يفد عليها فى دارها المسماة بالبريدى بالعقيق كبار الشعراء المعاصرين لها ، فينشدونها ومن معها من نساء المدينة غزلهم[١] ، وكانت تجيزهم ، وتعلق عليهم بنقد يدل على ارتفاع ذوق المرأة فى المدينة لهذا العصر[٢] . وكانت عائشة بنت طلحة مثل سكينة تعجب بهذا الشعر الغنائى[٣] الذى شغل عصرها وأهل بلدتها .

وكانت المرأة الشريفة فى المدينة لا تجد حرجا فى أن تذكر بهذا الشعر ، وأن يتغنى الشعراء بها ، لأن فى هذا اعترافا بجمالها وفتنتها ، وكما قيل الغوانى يغرهن الثناء ، وأى ثناء أوقع فى روع المرأة من الثناء على جمالها وحسنها البارع . وكأن المرأة فى المدينة كانت ترى فى ذكر الشعراء لها ما يعبر عن هذا الثناء ، وعما بها من إغراء ، ولم تكن ترفض ذلك إلا أن يخرج الشاعر عن وقاره إلى نوع من الحرية والإباحية[٤] .

ولعل فى هذا ما يفسر رضا عائشة بنت طلحة وسكينة وغيرهما على الشعراء حين يذكرون اسمهن فى غزلهم ، وكأنما كان هذا الغزل

---

(١) انظر أغانى ١/١٥٠ و ٢/٣٧٦ وانظر طبعة بولاق ١٤/١٧٣ وما بعدها .
(٢) أغانى ١٤/١٧٤ وما بعدها .
(٣) انظر الأغانى ٣/٣٢٠ وما بعدها .
(٤) أغانى ٦/٢٥٤ وما بعدها .

حينئذ يشبه صحافتنا الحديثة ، فكما أنك قلما تجد الآن سيدة تطلب الشهرة ترفض أن ترسم صورتها فى صحيفة يومية أو أسبوعية ، فكذلك كان هذا الشعر الغنائى فى العصر الأموى صحافة العصر ، فهو الذى يسجل أخبار النساء الجميلات ، وهو الذى تظهر فى مرآته صورهن المغرية . وما من ريب فى أن ذلك هو الذى جعل المرأة العربية الشريفة تطلبه ، حتى نساء الخلفاء وشريفات بيت بنى أمية كن يطلبنه ، فقد روى صاحب الأغانى أن أم محمد بنت مروان بن الحكم حجت فأرسلت إلى عمر بن أبى ربيعة ألف دينار كى يتغزل بها[١] ، وروى أيضاً أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك حجت فطلبت إلى الشعراء الغزلين أن ينظموا فيها شعرا ، فبعضهم تشجع ونظم فيها ، وبعضهم جبُن فاكتفى بالنظم فى بعض جواريها[٢] .

وقد أشاع إعجاب نساء المدينة وفتياتها بهذا الشعر رقة عامة فيهن ، كما أشاع ظرفا ودماثة ، ولعل مما يصور ذلك أدق تصوير ما رواه صاحب الأغانى من أن تاجرا من أهل الكوفة قدم المدينة بخُمُر فباعها كلها ، وبقيت السود منها ، فلم تنفق ، وكان صديقا للدارمى أحد[٣] شعراء مكة ومغنيها ، فشكى ذلك إليه وكان قد نسك ، وترك الغناء وقول الشعر ، فقال له لا تهتم بذلك فإنى سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ، ثم قال :

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ١/١٦٦ .

(٢) أغانى طبع بولاق ١١/٤٩ (٣) أغانى ٣/٤٥

قُلْ للمليحة فى الخمار الأسْوَدِ ماذا صنعْتِ براهبٍ متعبِّدِ
قد كان شمَّر للصلاة ثيابه حتى وقَفْتِ له بباب المسجدِ

وغنى فيه ، وغنى فيه أيضاً سنان الكاتب ، وشاع فى الناس ، وقالوا قد فتك الدارمى ورجع عن نسكه ، فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود حتى نفد ما كان مع العراق منها[1] . وليس من شك فى أن هذا حادث بالغ الدلالة على مدى ما كان للشعر الغنائى فى هذا العصر من تأثير على أهل المدينة . والحق أنهم كانوا يفتنون بهذا الشعر فتنة شديدة ، وكانت فتنتهم به تزداد حين يغنى فى دور النبلاء والأشراف ودور المغنين والمغنيات ، ومن أجل ذلك لم يكن غريباً أن يعجب به الزهاد والنساك ، وأن يطلبه الرجال والنساء ، وأن يغرقوا جميعاً فى إعجابهم وطلبهم .

٣

فقهاء المدينة يساهمون فى الشعر الغنائى

رأينا الناس فى المدينة يفتنون بالشعر الغنائى ويعجبون به إعجاباً شديداً ، وعلى رأسهم الناسك المشهور أبو السائب المخزومى . وكان من مظاهر هذا الإعجاب وتلك الفتنة أن كثر من ينظمون فى الشعر الغنائى فى المدينة كثرة مفرطة ، كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وحتى فقهاء

---

(١) أغانى ٣/٤٥ .

المدينة أخذوا يشتركون فى هذا النظم ، فكان لهم شاعران مشهوران فى هذا العصر ، هما عروة بن أذينة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

أما عُرْوَة فقد كان معدوداً فى الفقهاء والمحدثين ، روى عنه مالك بن أنس وعبيد الله بن عمر العدوى[1] . وقد تحدثنا عنه فى غير موضع ، وقلنا إنه كان يغنى شعره ، وله فيه أصوات معروفة ، وهو شعر كله ينساق فى الغزل ، فهو شاعر غَزِل من شعراء المدينة وهو شاعر يغنى شعره ويوقعه ، ويحدث فيه ما يريد من تقطيعات وتمديدات ، وكان لهذا كله أثر فى غزله ، فهو غَزَل غنائى بالمعنى الدقيق ، يكتظ بالموسيقى ، وتتوفر له منها قيم صوتية كثيرة . واستمع إلى هذه القطعة :

إنَّ التى زعمتْ فؤادك مَلَّها ... جُعلتْ هواكَ كما جعلتَ هوًى لها

فبك الذى زعمتْ بها وكلاكُما ... يبْدى لصاحبه الصبابةَ كلها

ويبيت بين جوانحى حبٌّ لها ... لو كان تحت فِراشها لأقلَّها

ولعمرها لو كان حبُّك فوقها ... يوماً وقد ضحيَت إذنْ لأظلَّها

وإذا وجدْت لها وساوسَ سلوةٍ ... شفعَ الفؤادُ إلى الضمير فسلَّها

بيضاءُ باكرها النعيم فصاغها ... بلباقةٍ فأدقَّها وأجلَّها

لما عرضْتُ مسلِّماً لى حاجةً ... أرجو معونتها وأخشى ذلَّها

منعَتْ تحيَّتَها فقلت لصاحبى ... ما كان أكثرها لنا وأقلَّها

فدنا فقال لعلها معذورةٌ ... من أجل رِقْبَتِها فقلت لعلَّها

---

(١) أغانى ٢١/١٦٢ .

كان شعر عروة يزخر بالموسيقى على هذا النحو ، فهو شعر مهيأ للغناء ، يغنى فيه صاحبه ، ويغنى فيه غيره . وليس هذا كل ما يميز شعر عروة ، بل هناك ميزة تتصل بمعانيه، وقد تحدثنا عنها فى خصائص الشعر الغنائى بالمدينة وميزاته ، وقلنا إن هذا الشعر كان ينصب على الغزل غالباً ، وإن الغزل فى المدينة كان على ضربين : غزل إباحى فيه صراحة ، وفيه حرية ، وغزل عفيف فيه طهر ، وفيه مثالية . وما من ريب فى أن غزل عروة كان من الضرب الثانى ، وتعليل ذلك واضح فهو فقيه ، وله من تدينه رادع يقيه أن يكون آثما فى حبه ، أو صريحا صراحة تؤدى بغزله إلى أن يكون إباحيا مكشوفا .

وكان يذهب هذا المذهب نفسه فى الغزل العفيف عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعداده فى قريش مثل ابن أذينة ، وجده عتبة أخو عبد الله بن مسعود وله صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وليس من البدريين ، وأبوه عبد الله كان رجلا صالحا استعمله عمر بن الخطاب فأحمده[1] . وعبيد الله أحد وجوه الفقهاء الذين روى عنهم الفقه والحديث ، وهو أحد السبعة الفقهاء المقدمين من أهل المدينة ، وهم القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن المسيب ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسليمان بن يسار .

وكان عبيد الله ضريرا ، وقد روى عن جماعة من وجوه الصحابة

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٩/١٣٩ .

مثل ابن عباس وعمه عبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وروى عنه الزهرى وابن أبي الزناد وغيرهما من نظرائهما . وكان عبد الله بن عباس يقدمه ويؤثره[١] ، ويقول الزهرى : « أدركت أربعة بحور ، عبيدالله بن عبدالله أحدهم ». ويقول أيضا : سمعت من العلم شيئا كثيرا فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله كأنى كنت فى شعب من الشعاب فوقعت فى الوادى ، وقال مرة « صرت كأنى لم أسمع من العلم شيئا » ، وقد أثنى عليه عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة ، فقال « لو كان عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة حيا ما صدرت إلا عن رأيه ، ولوددت أن لى بيوم من عبيد الله غُرّما[٢] » .

كان عبيد الله بن عبد الله فقيها ممتازا فى عصره ، ويكفى أنه كان أحد فقهاء المدينة السبعة الذين حمل عنهم الدين والعلم ، وكان إلى ذلك موضع إجلال من الخلفاء والأمراء . ومن يرجع إلى ترجمته فى الأغانى يجده رقيقا ، شديد الحساسية جدا ، فقد روى هشام بن عروة أنه استأذن على عمر بن عبد العزيز وهو وال على المدينة فرده الحاجب وقال له : عنده عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وهو مُخْتَلٍ به ، فانصرف غضبان وأرسل إلى عمر :

أَبِنْ لى فكُنْ مثلى أو ابتغ صاحباً
كمثلكَ إنّى تابعٌ صاحباً مثلى
عزيزٌ إخائى لا ينال مودّتى
من الناس إلا مسلمٌ كامل العقل

(١) أغانى طبع دار الكتب ٩/١٤٠ (٢) نفس المصدر ٩/١٤١

وما يلبث الفتيانُ أن يتفرّقوا
إذا لم يؤلِّفْ روحُ شكل إلى شكل

فبعث عمر إليه من يعذره عنده ويقول: إن عمر يقسم بالله ما علم بأبياتك ولا برد الحاجب إياك فعذره[١]. ويقال إن أبا بكر بن حزم مرَّ عليه وهو وال على المدينة فلم يسلم عليه، فتلومه[٢].

كان عبيد الله رقيقا مرهف الإحساس، وقد هيأه ذلك لأن يصبح من شعراء عصره الغزلين. وقصة غزله قصة مثيرة، فقد روى الرواة أنه تزوج امرأة تسمى عَثْمة، فعتب عليها فى بعض الأمر فطلقها ثم ندم على طلاقها إذ كان يحبها حبا شديداً، ولكن ماذا يصنع، لقد قضى الأمر وخرجت من يده، ويظهر أنه لم يستطع إرجاعها، فتولع بها وهام، وأسف أسفا شديداً على ما فاته منها، وتكلف فى ذلك ألواناً من الخطوب وتعرض لضروب من الألم.

والرواة يمرون بهذا الحادث فى حياة عبيد الله مراً سريعاً، فلا يذكرون لنا شيئاً بعد ذلك، لا يذكرون لنا كيف كانت علاقة عبيد الله بزوجه فى أثناء زواجهما، ولا كيف تم هذا الزواج، وحتى ما رووا من أشعار عبيد الله رووه عارياً من حوادثه وأخباره، فأصبحنا لا نستطيع أن نَفْصِل فى غزله، فنرجع بعضاً منه إلى ما قبل زواج عثمة وبعضا إلى أيام زواجهما، وبعضاً ثالثاً إلى أيام فراقهما.

ومهما يكن فإن عبيد الله كان شاعراً عاشقا أقيمت حواجز بينه

(١) أغانى ٩/١٤٣ (٢) نفس المصدر ٩/١٤٤

وبين من عشقها، فتولع بها وأغرم غراماً شديداً، وحاول، فيما يظهر، السلوى فلم يجد إلى ذلك سبيلا، ماذا يصنع؟ لم يجد إلا الغزل ينفس به عما فى نفسه، واستمع إليه يقول [١]:

كتمت الهوى حتى أضرّ بك الكتمُ
ولامك أقوامٌ ولومهمُ ظلمُ

فيامن لنفسٍ لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياةً لها طعم
أأترك إتيانَ الحبيب تأثّماً ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فذق هجرَها قد كنت تزعم أنّه رشادٌ ألا يا ربما كذب الزعم

كتم عبيد الله الهوى، ولم ينفعه كتمانه، فقد أضر به ضرراً بليغاً فأعلن حبه، فلامه الناس، حينئذ تمنى الموت حتى يخلص من تلك الحياة التى لم يكن يعرف لها لوناً، والتى أصبح لا يجد لها طعما، وهو يعود إلى نفسه فيجده لا يزال حيا، وقد هجر صاحبته، بل هى التى هجرته، وهو يذوق الآن هجرها وما قدمت يداه من طلاقها، فحياته كلها أحزان وهموم، أو كما يقول هو عن نفسه [٢]:

أروحُ بهمٍّ ثم أغدو بمثله ويُحْسَبُ أنى فى الثياب صحيحُ

وأى صحة؟ إنها صحة تشبه المرض، بل قل إنها مرض خالص، فقد تركته صاحبته ولم تحاول أن ترجع إليه، وهو ينتظر أن تلم به فلا تلم، فيتحرق حسرة ولوعة، وسرعان ما تجيش نفسه بالشعر فيقول [٣]:

---

(١) أغانى ٩/١٤٩ وما بعدها وانظر ابن عبد ربه ٣/١٢٦.
(٢) أغانى ٩/١٣٨. (٣) أغانى ٩/١٥١.

تَغَلْغَلَ حبُّ عَثْمَةَ فى فؤادى
فبادِيه مع الخافى يَسِيرُ
تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ ولا حُزنٌ ولم يبلغ سرورُ
صدعتِ القلب ثمّ ذَرَرْتِ فيه
هَواكِ فليمَ فالتأم الفطورُ
أكاد إذا ذكرتُ العهد منها أطير لو انّ إنساناً يطير
غنىّ النفس أن أزداد حبًّا ولكنى إلى صلةٍ فقير

وعلى هذا النحو كان عبيد الله يتغزل بصاحبته هذا الغزل الرقيق الذى يعبر به عن لواعج حبه ، وكان يُسْأل أتقول الشعر فى فضالك ونسكك ؟ فيقول : إن المصدور إذا نفث برأ . وأظنه لم يبرأ أبداً ، فقد كان برؤه دائما إلى حين ، ثم يصدر ، فيعمد إلى هذا الشعر يصف فيه ما يعانى من الحب وما يلقى من آلامه .

وواضح فى هذا الغزل الذى رويناه لعبيد الله أنه يخلو من الرغبات واللذائذ الحسية ، وهذا طبيعى ، فهو فقيه ، بل هو من كبار الفقهاء فى عصره ، وهو من أجل ذلك لا تلم به نزوات الجسد أو قل بعبارة أدق لا يستطيع التعبير عنها فهو متحرج ، وهو فى سريرته متمسك بدينه وطهارة خلقه ، لذلك كنا نشعر عنده — كما شعرنا من قبل عند عروة — بسمو فى عاطفته ، بل لعله يتفوق على عروة فى ذلك ، فهو أكثر منه تحرجا ، وأيضا فإنه أكثر منه عشقا ، إذ لم يعرف عروة بعشق على نحو ما عرف صاحبه ، ولعل ذلك ما يجعلنا نحس فى شعره

بحرارة ولهفة أكثر من إحساسنا إزاء شعر عروة رغم ما فيه من توفر الموسيقى وجمال الأصوات .

ونحن إنما نسجل هذا كله لننفذ منه إلى أن موجة الشعر الغنائى لهذا العصر ، وخاصة ما اتصل منها بالغزل كانت عنيفة وأنه لم يسلم من الإعجاب بها أحد ، بل لقد ساهم فيها الفقهاء ولم يجدوا فيها حرجا ، بل لقد توسعوا فى مساهمتهم، فلم يكن منهم أصحاب غزل فقط كعبيد الله ، بل كان منهم من ينظمون هذا الغزل ويضعون له الأصوات كما رأينا عند عروة فى غير هذا الموضع

٤

الشعر الغنائى يصبح شعرا شعبيا عاما

لعل من الظواهر المهمة فى الشعر الغنائى هذا العصر أنه أصبح شعرا شعبيا عاما تتردد مقطوعاته فى جوانب العالم العربى ، إذ لم يكن للعرب حينئذ صحف يقرأونها سوى الشعر ، فهو صحفهم التى يقرأون فيها حوادثهم وأخبارهم ، ويروون فيها عواطفهم وشعورهم . وكلنا نعرف قصة جرير حين أساء إليه الراعى وابنه فى البصرة فنظم فيه قصيدة طويلة ختمها بقوله :

فغضَّ الطرْفَ إنك من نميرٍ فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

وقد غدا فى المِرْبد فأنشدها ، فثبت الراعى ساعة ، ثم رحل إلى

الشُّرَيف وهو أعلى دار بنى نمير ، فوجد القصيدة قد سبقته [١] .
ويروى أيضاً أن الحكم بن عَبْدَل الأسدى كلم محمد بن حسان بن سعد التميمى ، وكان على خراج الكوفة ، أن يترك لرجل ثلاثين درهما من خراجه ، فقال : أماتنى الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئا ، فانصرف ابن عبدل غاضباً ، وهجاه بقصيدة جاء فيها :

يقـــول أماتنى ربّى خِداعًا
أماتَ اللهُ حسَّانَ بْنَ سَعدِ

فاشتهرت القصيدة حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو حماره فيقول : عَدْ (كلمة لزجر الدواب) ثم يقول بعدها أمات الله حسان بن سعد . وكان أبوه يسمع ذلك فيقول : بل أمات الله ابنى محمداً ، فهو عَرَّضنى لهذا البلاء فى ثلاثين درهما [٢] .

وهذان الحادثان اللذان يرويهما صاحب الأغانى يدلان على شدة شيوع الشعر عند العرب ، ومع ذلك فقصيدة جرير وقصيدة ابن عبدل لم تكونا من الشعر الغنائى الذى يغنى فى هذا العصر ، بل كان يتناقلهما الناس والرواة . وإنما سقنا ذلك لندل على قابلية العرب لرواية الشعر وحفظه وإنشاده .

وقد توفر للشعر الغنائى مع هذه القابلية العامة عند العرب شىء

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٨/٢٩ وما بعدها .
(٢) نفس المصدر ٢/٤١٢ .

مهم ، بل لعله كان أكثر أهمية من هذه القابلية فى حد ذاتها ونقصد أنه كان يغنى . وقد عمل هذا الغناء على إشاعته بين الناس بوسيلتين : الأولى غناؤه فى موسم الحج ، فنحن نقرأ دائما فى أخبار المغنين أنهم حبسوا الناس فى الموسم ، فهذا الغريض بالمزدلفة يغنى الناس ويحبسهم عن مناسكهم [١] ، وهذا ابن سُرَيج يغنى فيجعل الحاج يركب بعضهم بعضا [٢] ، وكذلك كان يصنع ابن عائشة [٣] وغيره . وهذه كانت الوسيلة الأولى إلى إذاعة الشعر الغنائى بين الناس ، والوسيلة الثانية كانت انتقال الأصوات نفسها من المدينة ومكة إلى الحواضر والبوادى المجاورة فى الحجاز ، ثم الحواضر البعيدة فى العراق والشام . ولنتخذ الطائف مثلا لحواضر الحجاز ، فإنها كانت تتخذ مصيفا لنبلاء المدينة ومكة ، فكان المغنون فى البلدتين ينزلون فيها ، ومن أمثلة ذلك الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة ومولاة الغريض وقيل وسمية ، فإنها كانت تصيف هناك [٤] ، وأيضا فإن العرجى كان ينزل فى عرج الطائف ، وكان يصحبه بعض المغنين وعلى رأسهم قَنْد ، مولى عائشة بنت سعد ، وقد ذكر ذلك فى شعره [٥] . وليس من شك فى أن هؤلاء المغنين جميعاً كانوا يذيعون هناك شعر الأحوص وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما ممن يغنى فى شعره بالبلدتين الكبيرتين . ومن الأدلة التى توضح ذلك عمر الوادى

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٢/٣٦٢ .

(٢) نفس المصدر ١/٣١٧ .

(٣) نفس المصدر ٢/٢٠٨ .

(٤) نفس المصدر ١/٢١٢ .

(٥) أغانى ١/٣٩٣ .

مغنى الوليد بن يزيد فقد كان من أهل وادى القرى بالحجاز ، ويقول صاحب الأغانى إنه ذهب إلى الحَرَم فتعلم الغناء ، ثم رجع إلى وادى القرى ، فأخذ عنه حكم وذووه من أهل الوادى [١] . ومعنى ذلك أننا نجد فى وادى القرى ما نجده فى الطائف من أن المغنين ينقلون الغناء من المدينة ومكة بما فيه من شعر وما فيه من موسيقى . وليس ذلك كل ما نلاحظه فى الحجاز ، فقد كان هذا الشعر الغنائى بما فيه من أصوات لا يشيع فى الحواضر فقط ، بل كان يشيع فى البوادى ، فقد روى عمر الوادى أنه كان يسير ليلة بين الروحاء والعرج ، فسمع إنسانا يغنى صوتا لم يسمع قط أحسن منه ، وهو :

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعْدَى بأرضها
أرى الأرضَ تُطْوَى لى ويدنو بعيدها
من الخَفِراتِ البِيضِ ودَّ جليسُهَا
إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تُعيدها

وكاد يسقط عمر من راحلته طرباً وتبع الصوت ، فإذا هو برجل يرعى غنما ، وإذا هو صاحب الصوت ، فأعاده الذى أقصده اليه ، وسأله إعادته عليه ، فأعاده عليه مراراً حتى أخذه ، وهو من خفيف الرمل ، وقد قال الراعى فى بعض حديثه لعمر الوادى إنى ربما ترنمت به وأنا جائع فأشبع ، وكسلان فأنشط ، ومستوحش فآنس ، ويروى الرواة أن

---

(١) أغانى ٧/٨٥ .

عمر كان يشعر إزاء الصوت نفس شعوره [١] .

وعلى هـذا النحو كانت أصوات المغنين فى المدينة ومكة تنقل لا إلى الحواضر فى الحجاز ، بل إلى البوادى وبين الرعاة . ولم يكن هذا كل ما اتخذ فى نقلها ، فقد نقلت بعيداً حيث المغنون فى العراق والشام ، ولعل مما يدل على ذلك أننا نجد حنيناً الحيرى يغنى فى العراق بشعر للأحوص [٢] ، كما يغنى بشعر لكثير بن كثير السهمى [٣] الشاعر المكى . وقد أمضى الغريض أيامه الأخيرة باليمن [٤] وغنى هناك فيما كان يغنى به فى مكة من شعر الغزلين فى الحجاز . وسنعرف أن كثيراً من المغنين والمغنيات فى المدينة ومكة قصدوا إلى دار الخلافة فى دمشق حيث غنوا الخلفاء ، ولا بد أنهم كانوا فى طريقهم وفى القوافل التى يركبونها يتغنون أغانيهم .

وليس من شك فى أن القوافل لعبت دوراً مهماً فى إشاعة هـذا الشعر الغنائى وذيوعه ، فبعد أن كانت هـذه القوافل فى الجاهلية تستخدم الحُداء أثناء سَراها ، أخذت فى هذا العصر تستخدم الغناء ، فابن مسجح يقص علينا أنه ذهب إلى دمشق وكان فى القافلة التى ذهب فيها جوار مغنيات [٥] . وأوضح من ذلك أننا نجد من أصحاب هذه القوافل مغنياً من مغنى المدينة اشتهر فى هذا العصر وهو دَحْمان وكان يُكْرى إلى المواضع ويتجر ، وليس من شك فى أنه كان يغنى

(١) أغانى ٨٦/٧ وما بعدها .
(٢) أغانى ٣٤٢/٢ .
(٣) نفس المصدر ٣٤٣/٢ .
(٤) نفس المصدر ٣٩٩/٢ .
(٥) نفس المصدر ٢٨٢/٣ .

فى قافلته ، بل كان يشركه بعض الجوارى . وقد استمع الوليد بن يزيد إلى جارية تغنى فى إحدى قوافله فاشتراها منه بعشرة آلاف دينار (١).

وهذا كله أحدث ما نريد أن نصل اليه وندل عليه من أن الشعر الغنائى أصبح فى هذا العصر شعراً شعبياً عاماً ، فالمغنون يرددونه فى مواسم الحج وفى حواضر الحواجز وبواديها ، وفى حواضر العراق والشام ، وفى القوافل ، والناس من ورائهم يصنعون صنيعهم .

وقد ساعد على شعبية هذا الشعر أن الشعراء أخذوا يهذبون ألفاظه وموسيقاه على نحو ما قدمنا فى غير هذا الموضع ، وقد جعلوا لغته أكثر قرباً للناس من لغة الشعر القديم ، وحتى من لغة الشعر التقليدى المعاصر عند الفرزدق وجرير . ولم تكن لغته هى القريبة من نفوس الناس فقط ، بل كانت معانيه أيضاً ، فهو يدور حول الحب ووقائعه ، بينما يدور الشعر التقليدى حول وقائع قديمة حيث نجد الشعراء يفتخرون بوقائع آبائهم فى الجاهلية وحروبهم . ومن الغريب أنهم تركوا وقائع الإسلام وفتوحاته واستمروا يتحدثون عن أيام الجاهلية وحروبها ووقائعها ، وكان ذلك كله لا يقرب من نفوس الناس قُرْبَ معانى الشعر الغنائى التى دارت فى أكثر أحوالها على الحب ووقائعه .

على كل حال كان الشعر الغنائى فى هذا العصر يدور على ألسنة الناس فقد أشاعه المغنون وأشاعته سهولته وقرب لغته ومعانيه . وليس من شك فى أن ذلك كان إيذاناً بأن يقتحم على الشعر التقليدى عُقْر داره فى العراق ، ويظفر به ظفراً محققاً على ما سنرى .

---

(١) أغانى ٦/٢٥ وما بعدها .

٥

تفوق الشعر الغنائى على الشعر التقليدى

رأينا الشعر الغنائى يصبح شعراً شعبياً عاماً ، وكان من آثار ذلك أن أخذت موجته تتسع ، بل قل أخذت تعلو وترتفع وتسير قدماً إلى الأمام ، فإذا هى تكتسح كل الموجات التى تقابلها من موجات الشعر التقليدى ، ونقصد موجات الهجاء والمديح وما يتصل بهما ، وهو اكتساح بدأ فى الحجاز ثم أخذ يمتد إلى الشام ثم العراق عقر الشعر التقليدى .

وأكبر الظن أن القارىء لم ينس ما قدمناه من أن الشعر العربى كان صحف العرب فى هذا العصر ، وهى صحف مختلفة ، تارة تكون رجزاً وتارة تكون شعراً ، وتارة تكون غزلا وتارة تكون مديحاً أو هجاء ، وقد أخذت تتركز هذه الصحف المختلفة فى دارين كبيرتين : دار الحجاز ودار العراق ، وكانت الدار الأولى مركز الشعر الغنائى ، بينما كانت الثانية مركز الشعر التقليدى . فأما الدار الأولى فقد كانت تُصدِر صحيفتها منذ أوائل العصر الأموى ، وكان يوجد بجانبها صحف صغيرة للشعر التقليدى فى الحجاز ، غير أنها لم تلبس أن ابتلعتها أو كادت ، وحولتها جميعا — إلا فى القليل — إلى شعر غنائى .

وعلى هذا النحو أخذت صحف الشعر التقليدى فى الحجاز تختفى واحدة وراء الأخرى ، فكانت لا تظهر إلا فى فترات قليلة ثم ما تلبث أن تنقطع ، وقد تعود إلى الظهور ولكنها سرعان ما تعود

إلى الانقطاع . أما صحيفة الشعر الغنائى فكانت هى الصحيفة الكبرى ، وآية ذلك أن الشعراء لم يكونوا يشتهرون فى هذه البيئة إلا بغزلهم ، فكثير ، مع أن له مدائح فى الأمويين والهاشميين ، إنما يشتهر بشعره فى عَزَّة ، وابن قيس الرقيات ، مع أن له مدائح فى الأمويين والزبيريين ، إنما يشتهر بغزله فى الرقيات ، وهكذا الأحوص إنما يعرف بغزله فى أم جعفر أو فى جميلة أو سلامة . وليس هذا كل أدلتنا على مانزعمه فهناك دليل ثان وهو أن الشعراء فى الحجاز أخذ بعضهم يقصر نفسه على الغزل الذى كانت تطلبه بيئته ، فلا يتركه إلى غيره من فنون الشعر التقليدى ، على نحو ما هو معروف عن عمر بن أبى ربيعة .

وبينما كانت هذه الدار الأولى تعنى بإصدار صحيفة الشعر الغنائى وقد أخذت تنتصر على ماحولها من صحف الشعر التقليدى حتى اكتسحتها جميعا ، كانت الدار الثانية ، دار العراق ، لاتصدر إلا صحيفة واحدة هى صحيفة الشعر التقليدى ، وخير مايمثلها نقائض جرير والفرزدق التى كانا ينشدانها فى المِرْبَد بالبصرة ، فتذيع على ألسنة العامة والخاصة هناك لسبب بسيط وهو أنها صحيفتهم اليومية .

ونحن نلاحظ أن أخبار هذه الصحيفة الثانية ، صحيفة الشعر التقليدى فى العراق ، لم يكن لها طرافة أخبار الصحيفة الأولى ، صحيفة الشعر الغنائى بالحجاز ، لأنها انصبت فى الغالب على ذكر وقائع وأحداث وأيام كانت للقوم فى الجاهلية ، وقلما عرضت لشىء من حياتهم الجارية ، أو حياتهم اليومية الحاضرة . أما صحيفة الشعر

الغنائى فقد كانت صحيفة يومية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فيها يقرأ الناس ما يقع فى مواسم الحج بين شعراء الحجاز والحواج ، وفيها يقرأون ما يقع بين هؤلاء الشعراء وصواحبهم فى المدينة ومكة .

كانت الصحيفتان تختلفان صحيفة تاريخية ، تتحدث عن الماضى البعيد ولا تكاد تلم بالحاضر إلا فى النادر ، وصحيفة إخبارية كل أحاديثها عن الحاضر ، أو قل بعبارة أدق ، إنها مرآة الحاضر بكل ما فيه من أحداث ووقائع . وليس هذا كل ما بين الصحيفتين من خلاف ، فقد كانت الصحيفة التقليدية تخلو من الصور ، فهى جافة ، وإن أتت بصور فهى صور جاهلية ، صور حرب ومتحاربين قدماء ، أما الصحيفة الغنائية فصحيفة حية تمتلىء بالصور وأى صور : صور العذارى والجوارى الجميلات اللائى فتنّ عبّاد الحجاز ، واستصبين شعراء المدينة ومكة .

وخلاف ثالث بين الصحيفتين عرضنا له قبل ذلك وهو أن إحداهما كانت تعتمد على التلوين ، فهى تعتمد على التصوير من جهة ، وتعتمد على التلوين من جهة ثانية ، بخلاف الصحيفة الثانية ، ونقصد بالتلوين ما كان يصحب صحيفة الشعر الغنائى من موسيقى .

كانت صحيفة الشعر الغنائى تتميز بخصائص كثيرة تتيح لها الانتصار والظفر على الصحيفة التقليدية وكل ما يمثلها ، وقد بدأ هذا الانتصار فى الحجاز نفسه فأصبحت هى الصحيفة التى تتلى هناك ، ولم تعد تظهر صحف للشعر التقليدى إلا لماماً . ولم يقف انتشار هذه الصحيفة

وتغلبها على الصحيفة الثانية صحيفة الشعر التقليدى عند الحجاز ، فقد أخذت دمشق تسمع بها وكذلك العراق . ولم تطلبها العراق تواً لأنها كانت محافظة مغرقة فى المحافظة ، وكانت تجد لذتها فى الاستماع إلى ما يتلى فى صحيفتها التقليدية ، ومع ذلك فإن أصحاب هذه الصحيفة نفسها أخذوا يشعرون بما للصحيفة الأولى ، الصحيفة الغنائية ، من خطر . ولعل ذلك ما جعل الفرزدق ، وهو أحد أصحاب هذه الصحيفة يقول حين استمع إلى بعض الشعر الذى سجلته الصحيفة الغنائية : هذا الذى كانت الشعراء تطلبه، فأخطأته ، وبكت الديار[١] ، وكذلك قال صاحبه جرير : « إن هذا الذى كنا ندور عليه فأخطأناه[٢] » . ومع ذلك فالفرزدق وجرير لم يُعَدّا شيئا فى صحيفتهما التقليدية ، بل استمرا يُصدرانها على النمط القديم .

لم تسرع العراق إذن إلى التعديل فى صحيفتها التقليدية القديمة ، ولعل الشام كانت أكثر منها إسراعاً ، وقد أتاح لها ذلك اتصالها بالمغنين والمغنيات منذ أوائل هذا العصر الأموى، فإن يزيد بن معاوية كان له ذوق موسيقى، وهو ابن مَيْسون بنت بَحْدل الكلابية ، وكانت تنظم الشعر ، وقد رفضت معيشة دمشق كما يقول الرواة ، وآثرت عليها البادية ، ونشأ ابنها على غرارها يحب الشعر ، وكان يحب الغناء ويطرب للموسيقى وقد طلب المغنين من المدينة فذهبت إليه عزة الميلاء[٣] . ومن ذلك الوقت نجد الخلفاء يستقبلون كثيراً من المغنيات والمغنين فى دمشق .

(١) أغانى ١/٧٥ . (٢) نفس المصدر ١/١٠٦ .
(٣) خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٣/٥٩٢ .

ومعروف أنه تلا عصر يزيد عصر مضطرب ، فلا نسمع عن مغنين ومغنيات ذهبوا من المدينة إلى الشام ، حتى تهدأ الأمور ، ويعتلى عرش الخلافة عبد الملك بن مروان فنجده يستقبل ابن مسجح مغنى مكة ويسأله أن يغنيه الغناء المتقن [١] وكذلك استقبل بُدَيْح المليح مولى عبد الله بن جعفر ، واستمع إليه وأثابه [٢] . وقد أقام الوليد ابنه برغم اشتغال جيوشه فى فتوح الهند بقيادة محمد بن القاسم والأندلس بقيادة موسى بن نصير حفل استقبال فى دمشق لابن سريج ، مغنى مكة [٣] . ولم يكن سليمان بن عبد الملك يعجب بالغناء وكذلك عمر بن عبد العزيز ، ولكن لا يلبث يزيد بن عبد الملك أن يتولى الخلافة فيرسل فى طلب المغنين من المدينة ويفد عليه معبد ومالك وابن عائشة [٤] ، وقد اشترى سلامة القس وحبابة .

وهذه الصلة بين الخلفاء فى دمشق وبين المغنين والمغنيات فى الحجاز كانت تؤذن بانتصار صحيفة الشعر الغنائى فى هذا الإقليم الذى دخلته ، إقليم الشام ، وهو إقليم لم يكن يشارك مشاركة ذات قيمة فى الشعر الغنائى حتى عصر يزيد بن عبد الملك ، إذ كان يكتفى بقراءة ما يصله من صحيفة الشعر الغنائى الحجازية على أيدى الناشرين من المغنين والمغنيات .

وسرعان ما تحدث المفاجأة فإذا الوليد بن يزيد يُخْرِج ، أو يحاول أن يخرج ، صحيفة للشعر الغنائى فى دمشق نفسها ، كأنه يريد لها أن

(١) أغانى ٣/٢٨٤ (٢) أغانى ١٤/١٠ وما بعدها .
(٣) أغانى ١/٢٩٧ (٤) أغانى ٥/١٠٩ .

تكتفى بهذه الصحيفة الجديدة ، وأن تجد فيها ما تريده من غذاء الشعر والغزل .

وقد كان الوليد شاعرا ممتازا ، وفى كتاب الأغانى ترجمة مطولة له عرض فيها أبو الفرج لشعره الغنائى وماغنى فيه المغنون والمغنيات[١] ، وفى موضع آخر حيث يتحدث عن الخلفاء وأولادهم الذين تركوا أصواتاً ، نراه يضع فى أعلى طبقاتهم الوليد إذ كان يضرب بالعود ويُوَقِّع بالطبل ويمشى بالدف على مذهب أهل الحجاز[٢] .

وإذن فالوليد كان من أصحاب الشعر الغنائى ، وكان أيضاً من المغنين الذين يؤلفون الأصوات ، لم يكن يغنى للناس ، ولكن الناس تناقلوا غناءه . وما من ريب فى أن هذا يعطى صحيفة الشعر الغنائى عنده طرافة . فإن الشعر الذى يخرج فيها شعر غنائى تام . ومن يرجع إليه فى الأغانى يجده يتعلق بالأوزان القصيرة المعدلة والمجزوءة ، وليس ذلك فقط ، فقد روى له صاحب الأغانى قطعة من وزن المجتث[٣] ، وهو وزن قصير حديث نظن أنه كان أول من نظم فيه .

واستمرت هذه الصحيفة الغنائية فى الشام تَصْدر طوال حياة الوليد قبل خلافته ، وفى أثناء خلافته ، ويظهر أنه لم يكن لها أنصار كثيرون ، فنحن لا نجد شاعرا غنائيا فى الشام بجانب الوليد بن يزيد ، وكان من نتائج ذلك أن صحيفته التى كان يصدرها هناك انقطعت بمجرد

---

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١/٧ وما بعدها .

(٢) أغانى طبع دار الكتب ٢٧٤/٩ . (٣) أغانى ١٧/٧ .

قتله ولم تعد للظهور ، إنما تظهر هذه الصحيفة فى إقليم جديد يتناولها من أيدى شعراء الحجاز والوليد بن يزيد ، ويحقق لها من النجاح كل ما كان يحلم به أصحابها سواء فى الشام أو فى الحجاز ، ونقصد إقليم العراق الذى أخذ يتصل بحركة الغناء والمغنين فى الحجاز على نحو ما بينا ذلك فى فصل الغناء والمغنين .

ونحن لا نصل إلى العصر العباسى حتى نجد كثيرين من أهل العراق عربا وموالى يتعاونون على إصدار صحيفة الشعر الغنائى هناك ، وساعد على ذلك أن الدولة اهتمت بهذه الحركة ، وأصبحت لا تجد مغنيا مشهورا فى الحجاز إلا وهو يفزع إلى العراق . وقد تكونت هناك مدارس للغناء والموسيقى ، وكثر فيها الأساتذة والتلامذة كثرة مفرطة ، بحيث غطّت هذه المدارس على حركة الغناء القديمة فى الحجاز .

لم يعد للحجاز شأن فى الغناء والموسيقى حينئذ ، فقد تركهما للعراق كما ترك معهما صحيفة الشعر الغنائى التى كان يصدرها ، فلم نعد نسمع عن شاعر غنائى كبير يظهر فى الحجاز مثل عمر بن أبى ربيعة أو الأحوص ، بل اقتصر ذلك على العراق وشعرائه من مثل بشار ومطيع بن إياس وأبى نواس والعباس بن الأحنف وهلم جرا .

ولا نستطيع أن نعرض ببيان واضح لمدى ما كان للصحيفة الغنائية فى العراق من شيوع وانتشار ، ونشاط وازدهار ، لأن ذلك يخرج عن موضوعنا ، لكن يكفى أن نقول إننا لا نجد فى العراق ،

شاعراً مشهوراً فى القرن الثانى إلا وتؤسس شهرته على ما يخرج من الشعر الغنائى . ومعنى ذلك أن صحيفة الشعر الغنائى انتصرت أخيرا فى العراق على الشعر التقليدى ، وقد جدد الشعراء ، تحت تأثير الغناء والموسيقى ، كثيرا فى الأوزان ، كما جددوا فى اللغة والأساليب ، وليس هنا مكان الإفاضة فى ذلك . على أنه ينبغى ألا نظن أن صحيفة الشعر التقليدى انقطعت تماما فى العراق ، فقد بقى منها بقايا ، أهمها ما يتصل بالمديح وكانت تصدر هذه الصحيفة أعدادا ممتازة حين يقف الشعراء بأبواب الخلفاء والوزراء والأمراء فيمدحونهم ويأخذون جوائزهم .

ونرى من كل ماسبق أن صحيفة الشعر الغنائى انتصرت انتصاراً واسعاً على صحف الشعر التقليدى ، سواء فى الحجاز أو فى العراق أخيرا ، فقد أصبحنا لا نكاد نسمع عن نقائض جرير والفرزدق ، إذ هجرها الناس والشعراء إلى هذا الشعر الجديد الذى يخف على الأسماع والأفواه .

الفصل الخامس

الأحوص

أكبر شاعر غنائى فى المدينة

١

نسب الأحوص وحياته وصفاته

هو عبدالله بن محمد بن عبدالله[١] بن عاصم بن ثابت من بنى ضُبَيْعة ابن عمرو بن عَوْف من الأوس[٢]. وكان يقال لبنى ضبيعة فى الجاهلية بنو كِسَرِ الذهب[٣]. ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن حياة الأحوص إلا ما يروى عن جده عاصم من أن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه بعثا فقتله المشركون، وأرادوا أن يصلبوه فحمته الدَّبْرُ، وهى النحل، فلم يقدروا عليه، حتى بعث الله عز وجل الوادى فى الليل، فاحتمله السيل فذهب به، ولذلك يقال له حمى الدبر[٤]، وقد افتخر الأحوص بذلك فقال:

---

(١) هكذا نسب الأحوص فى الأغانى طبع دار الكتب ٤/٢٢٤، وفى طبقات بن سلام ص ١٣٧ أنه ابن عبد الله بن محمد بن عاصم، وانظر ابن سعد القسم الثانى من الجزء الثالث ص ٣٣.

(٢) يقول ابن سلام إنه خزرجى، انظر الطبقات ص ١٣٧.

(٣) أغانى ٤/٢٢٤. (٤) انظر ابن سعد فى الجزء السابق ص ٣٣.

وأنا ابن الذى حَمَتْ لَحْمَه الدَّبْـ
ـرُ قتيلِ اللِّحْيانِ يوم الرَّجيعِ (١)

وليس فى كتب التاريخ ما يروى بعد ذلك عن جد الأحوص الأدنى عبد الله ولا عن أبيه . أما أمه فهى أُثَيْلة بنت عُمير بن مَخْشِيّ ، وليس بين أيدينا ما يوضح شخصيتها ولا شخصية أسرتها وقد افتخر الأحوص بخال له فقال :

غسَّلَتْ خالَ الملائكةُ الأبْـ
ـرارُ مَيْتاً طوبى له من صريعِ (٢)

وغسيل الملائكة هو حنظلة بن عامر من بنى ضبيعة (٣) بن عمرو ابن عوف من الأوس ، قتل فى وقعة أحد ، فقال عنه النبى إن حنظلة لتغسله الملائكة (٤) . وإذا صح أنه خال أدنى للأحوص وأن أمه من أسرته يكون أوسيا أبا وأما .

واسم الأحوص — كما رأينا — عبد الله ، وإنما لقب الأحوص لحَوَصٍ كان فى عينيه وهو ضيق يعترى مُؤْخِر العين . وكان الأحوص — إلى ذلك — أحمر شديد الحمرة ، ووصفه الفرزدق فقال : كأنه وَحَرَة (٥) ، والوحرة يَعْسوب أحمر ينزل الأنبار .

---

(١) أغانى ٤/٢٢٤ وكذلك ٤/٢٣٤ واللحيان حى من هذيل .
(٢) أغانى ٤/٢٣٤ . (٣) طبقات ابن سعد ٥/٤٦ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٧٩ .
(٥) أغانى ٤/٢٣٢ .

ومن يقرأ أخبار الأحوص فى كتاب الأغانى يحس أنه كان فيه نزق ، بل حمق وطيش ، فقد روى الرواة أن سكينة بنت الحسين ذكرت النبى صلى الله عليه وسلم وافتخرت به ، فافتخر هو عليها بأبيه حمى الدبر وخاله غسيل الملائكة[1] . وبأبى سكينة حمت أباه الدبر وغسلت خاله الملائكة ! . ويروى الرواة أنه قدم البصرة فتزوج ابنة رجل من تميم ، وخرج بها إلى المدينة ، وكانت أختها عند رجل فى طريقها ، فقالت له : اعدل بى إلى أختى ، ففعل ، فذبح لها وأكرمتهما ، ثم جاء زوجها ، وكان فى إبله ، فلما رآه الأحوص اقتحمته عينه وازدراه لقبحه ، وقال توا[2] .

سَلامُ اللهِ يا مطرٌ عليها ... وليس عليكَ يامطرُ السلام
فطلّقها فلستَ لها بكفءٍ ... وإلا عضَّ مفرقَكَ الحسامُ

وليس كل مايلاحظ على الأحوص الطيش والحمق ، فنحن نلاحظ عليه أيضا ميلا إلى الخصومة والشر مما يدل على أنه كان حادَّ الشعور ، وهى حدة تحولت إلى هجاء كل من حوله ، وبذلك ملأ قومه شرا . روى صاحب الأغانى أنه أقبل يوما حتى وقف على مَعْن بن حُمَيْد الأنصارى أحد بنى عمرو بن عوف بن جَحْجَبَى فقال :

رأيتك مزهُوًّا كأن أباكمُ
صُهَيْبَةَ أمسى خير عَوفٍ مُرَكَّبَا

---

١) أغانى ٤/٢٣٤ .
٢) أغانى طبع بولاق ١٤/٦٤ .

تُقِرُّ بكم كُوثَى (١) إذا ما نُسِبْتُمُ
وتُنْكِرُكم عمرو بن عوف بن جَحْجَبِي
عليك بأدنى الخطب إن أنت نلته
وأقْصِرْ فلا يذهب بك التيه مذهبا

فقام إليه بنوه ومواليه، فقال: دعوا الكلب، خَلّوا عنه، لا يمسه أحد منكم، فانصرف، حتى إذا كان عند أحجار المِراء بقُباء لقيه ابن جرير أحد بني العجلان، وكان ضابطا، فقال له الأحوص:

إنَّ بقومٍ سَوَّدوك لحاجةً إلى سَيِّدٍ لو يظفرون بسيدِ

فألقى ثيابه، وأخذ بحلق الأحوص، ومع الأحوص راويته، وجاء الناس ليخلصوه، فحلف لئن خلصه أحد من يديه ليأخذنه، وليدعن الأحوص، فخنقه حتى استرخى، وتركه حتى أفاق، ثم قال له: كل مملوك لي حر، لئن سمع أو سمعت هذا البيت من الناس لأضربنك ضربة بسيفي أريد بها نفسك، ولو كنت تحت أستار الكعبة، فأقبل الأحوص على راويته فقال: إن هذا مجنون، ولم يسمع هذا البيت غيرك، فإياك أن يسمعه منك أحد (٢).

وعلى هذا النحو كان الأحوص يسير مع الأنصار هذه السيرة من هجائهم، وكانوا يسيرون معه هذه السيرة من إهانته وازدرائه، ولم يكونوا وحدهم الذين يزدرونه، فقد كان بعض القرشيين يزدرونه أيضا، روى صاحب الأغاني أنه مرَّ بعباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير

(١) كوثى: محلة بمكة لبني عبد الدار (٢) أغاني ٤/٢٤١

ومحمد بن مصعب بن الزبير بخيمتى[١] أم معبد، وهما يريدان الحج وكان آيبا من عند يزيد بن عبد الملك، وهو على نجيب له فاره ورحل فاخر وبزة مرتفعة، فحدثهما أنه قدم على يزيد بن عبد الملك، فأجازه وكساه وأخدمه[٢]، فلم يرهما يهشان لذلك، فجعل يقول: خيمتى أم معبد، عباد ومحمد، كأنه يروض القوافى للشعر يريد قوله، فقال له محمد بن مصعب: إنى أراك فى تهيئة شعر وقوافى، وأراك تريد أن تهجونا، وكل مملوك لى حر إن هجوتنا بشىء إن لم أضربك بالسيف مجتهدا على نفسك، فقال الأحوص: جعلنى الله فداك! إنى أخاف أن تسمع هذا فىّ عدوا، فيقول شعرا يهجوكما به فينحلنيه وأنا أبرئكما الساعة، كل مملوك لى حر إن هجوتكما ببيت شعر أبدا[٣].

ولعل فى هذا كله ما يدل على أنه كان ذا عاطفة جامحة، وأن هذه العاطفة تحولت إلى هجاء من حوله من قرشيين وأنصار، حتى أصدقائه. روى صاحب الأغانى أنه لما أراد الخروج إلى يزيد بن عبد الملك نهض صديق له كان هو صديقه الوحيد من بنى جحجبى، فجهزه وقام بحوائجه وشيعه، فلما ركب الأحوص أقبل عليه فقال: لا أخلف الله عليك بخير، فقال مه غفر الله لك! فقال الأحوص: لا والله أو أعلقها حربا[٤]،

وطبيعى أن يكون الأحوص بسبب هذا الشر كله منبوذا من قومه فى المدينة، وأيضا فانه كان ضعيف الخلق لا يبالى

---

(١) موضع بين مكة والمدينة (٢) أعطاه خادما.
(٣) أغانى ٤/٢٤٢. (٤) أغانى ٤/٢٤٠.

أحداً [١] ، فتحاماه الناس وابتعدوا عنه لسفاهة لسانه وسفاهة خلقه جميعاً .

وأحس الأحوص أنه غريب فى قومه ، فهم يزورّون عنه كلما لقوه ، فماذا يصنع ؟ لقد رأى أن يُوَلّى وجهه نحو دمشق وأن يتصل ببنى أمية ، فهم الذين يستطيعون إذا قربوه أن يفرضوه على قومه فرضا . وهكذا ذهب يستعين بهم ، ودفعه إلى ذلك أنه لم يكن مُشْرِياً ، وأنه أراد أن يدفع بهم شر الحاجة . وقد قربوه منهم ، وأجزلوا له فى مكافآتهم ، حتى لنراه يقول [٢] :

وما كان مالى طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتْلَدَا
ولكنْ عطايا من أمامٍ مبارك
تملأ الأرض معروفا وجوداً وسُؤْدَدا

فبنو أمية هم ثروة الأحوص وتجارته التى يستمد منها ما ينفقه . ويظهر أنها كانت ثروة وتجارة ممتازة ، فقد روى صاحب الأغانى أنهم أعطوه فى إحدى قصائده لهم عشرة آلاف دينار [٣] ، وأعطوه فى أخرى مائة ألف درهم [٤] ، ومن هنا كان الأحوص يكثر من مديحهم . ولعل ذلك كان من أسباب كراهية أهل المدينة له ، فقد عرفنا قبلا أنهم لم يكونوا من هوى بنى أمية ، بل إن بنى أمية كانوا يستأجرون الشعراء

---

(١) أغانى ٤/٢٣٣ .
(٢) أغانى ٩/٨ .
(٣) نفس المصدر ٩/٨ .
(٤) نفس المصدر ٩/١٧٢

من أمثال الأخطل لهجائهم. وكان شعراء المدينة من أمثال عبدالرحمن ابن حسان يردون على الأخطل وأمثاله هجاءهم، ويهجون معهم معاوية وابنه يزيد.

أما اليوم، فقد ظهر الأحوص، ودفعه قومه، فاندفع إلى الأمويين يتقرب إليهم بقصائده ومدائحه، التي يبالغ فيها ماشاءت له المبالغة، حتى ليمكن أن نعده من شعراء البيت الأموى فى هذا العصر، ولو أن ديوانه بين أيدينا لاستطعنا أن نفهم فى وضوح هذا الجانب من شعره ولكنه مفقود، ولم يبق منه إلا قطع فى كتب الأدب، وأهمها الأغانى، ومع ذلك فقد رُوى له شعر فى الوليد بن عبد الملك وفى يزيد أخيه، وهو فى هذا الشعر لايقف عند وصفهما بأنهما كريمان شجاعان من بيت شريف، بل ينفذ إلى إمامتهما الدينية فى الناس، واستمع إليه يقول فى الوليد (١)

إمامٌ أتاه الملك عَفْواً ولم يُشَبْ ... على ملكه مالاً حراما ولا دَما
تخيره ربُّ العباد لخلقه ... وليًّا وكان الله بالناس أعلما
فلما ارتضاه الله لم يدْعُ مسلما ... لبيعته إلا أجاب وسلَّما
ينال الغنى والعزّ من نال ودّه ... ويرهب موتا عاجلا من تشأما
وإنّ بكفيه مفاتيح رحمةٍ ... وغيث حيا يحيي به الناس مُرْهِماً (٢)

وهذه نغمة لاشك فى أن الوليد وغيره من بنى أمية كانوا يعجبون بها، وكان المغنون مايفتأون يغنونهم فيها. والحق أن الأحوص كان

(١) أغانى ١/٢٩٧. (٢) الحيا: الخصب والمطر. ومرهما: لا يكف.

يغالى فى مدحهم ، إذ كان يمدحهم على نحو ما يمدح الشيعة أئمتهم. لا يمدحهم بالسياسة والحزم ، كما يمدحهم الأخطل مثلا ، وإنما يمدحهم بأنهم أئمة الله ، اختارهم لخلقه ، وكأنه يرد بذلك على الشيعة الذين يزعمون أن النبى أوصى لعلى ، واستمرت الوصية تتابع فى أبنائه . وهو أيضا يرد عليهم مايدعونه على الأمويين من سفك الدماء والظلم على نحو مانجد عند الكميت فى هاشمياته ، فهذا الوليد لم يسفح دما ولم يشب مالا حراما ، وإن بكفيه مفاتيح رحمة يفتح بها على الناس أبوابها ، وسحب كرم يرسل بها على الناس غيثها .

وبمثل هذا الشعر كان الأحوص يأخذ من بنى أمية الألوف وكانوا يرسلون فى طلبه[1] . وتروى كتب[2] الأدب أنه مدح عبد العزيز ابن مروان ، ويظهر أنه طلبه وهو فى مصر ، كغيره من شعراء الحجاز ، فذهب إليه . وتدل أخباره أنه كان كثير التقلب فى البلاد وأنه كان يذهب إلى العراق ، وأكبر الظن أنه كان يذهب لمديح بشر بن مروان كعبة الشعراء ومقصدهم هناك . وليس بين أيدينا مايدل على أنه قصد عبد الملك بن مروان ، ولكن المعقول أن لا يمدح أخاه عبد العزيز والى مصر ويترك الخليفة وراءه .

وليس من شك فى أن هذه الصلة التى عقدها بينه وبين بنى أمية كانت تتيح له أن يسير سيرته المعوجة التى عرف بها فى المدينة ، فليس هناك وال يستطيع أن ينال منه لأنه شاعر سادته الذين يولونه ، ومازال

(١) أغانى ٤/٢٥١ .
(٢) ابن سلام ص ١٣٨ .

هذا شأنه حتى تولى سليمان بن عبد الملك ، وكانت فيه شدة ، فولّى على المدينة أبا بكر بن حزم ، وكان هو الآخر لا يقل عن مولاه شدة . ويروى أن سليمان أرسل إليه أن يحصى المخنثين فى المدينة لما سمع من إفسادهم لنسائها لخصامهم (١) .

ولما رأى أشراف المدينة شدة الخليفة الجديد وشدة ابن حزم واليه ، تقدموا إلى هذا الوالى يشكون الأحوص وسيرته ، وقيل بل تقدموا إلى سليمان نفسه ، فشكوا إليه الأحوص وأنه يشبب بنسائهن (٢) ، فكتب إلى ابن حزم يأمره أن يضربه مائة سوط ويقيمه على البُلْس (٣) للناس ، وصدع ابن حزم بما أمره ، فجلد الأحوص مائة ، وأقامه على البلس ، فكان يصيح :

ما من مصيبةِ نَكْبَةٍ أمْنَى بها
إلا تُعَظِّمُنى وترفَعُ شانِى
وتزولُ حين تزول عن مُتَخَمِّط (٤)
تُخْشَى بَوادِرُه على الأقرانِ
إنى إذا خَفِىَ اللئامُ رأيتنى
كالشمس لا تَخْفَى بكل مكانِ
إنى على ما قد ترون مُحَسَّدٌ
أَنْمِى على البغضاء والشَّنآنِ

---

(١) أغانى ٤/٢٧١ وما بعدها .
(٢) نفس المصدر ٤/٢٣٣ وكذلك ٤/٢٣٩ وانظر ٤/٢٤٦ .
(٣) البلس جمع بلاس وهى غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به .
(٤) متخمط : متكبر

أصبحتُ للأنصارِ فيما نابهم
خلفاً وللشعراءِ من حسّان[١]

ومازال الأحوص واقفا على البلس حتى جاءه بنو زُرَيق من الخزرج فدفعوه عنه واحتملوه[٢] . والأحوص يأسى فى هذه الأبيات على نفسه ، ويقول إنه أصبح خلفا للأنصار فيما نابهم . ولكن لا يظن القارىء أنه استشعر بعد ذلك أو قبل ذلك مأساة الأنصار فيما حلّ بهم أثناء العصر الأموى ، فإنه لم يكن يستشعر شيئا من هذا أبدا ، أما البيت فهو لا يعدو فكرة طارئة لم يكن لها أى ظل وراءها . وآية ذلك أنه أخذ يهجو ابن حزم جزاء لما صنع به ، ولكنه كان يفرق دائما بينه وبين بنى أمية ، حتى يُنحّيهم بعيدا عن خصومته معه ، واستمع إليه يقول:[٣]

أهوى أُمَيّةَ إنْ شطّتْ وإن قَرُبتْ
يوماً وأهدِى لها نُصْحِى وأشعارى
لا ترثِيَنّ لحَزْمِىٍّ رأيتَ به
ضُرّاً ولو ألقِىَ الحَزْمِىّ فى النّارِ
الناخِسِينَ بمروانٍ بذى خُشُبٍ
والمقحمينَ على عُثمانَ فى الدّارِ

لم يحاول الأحوص أن يهجو سليمان بن عبد الملك لجلده إياه ، بل لقد استمر ، كما يقول ، يهدى إليه وإلى غيره من بنى أمية أشعاره . وإن فى

(١) أغانى ٤/٢٣٦ وكذلك ٤/٢٤٠ .
(٢) أغانى ٤/٢٣٩ .
(٣) نفس المصدر ٤/٢٣٨ .

هذه الأبيات مايكشف عن ضعف خلقه ، فهو يحاول أن يوقع بين ابن حزم ومن ولوه من بنى أمية ، إذ يرميه بأن آباءه أعانوا على قتل عثمان يوم الدار ، كما أعانوا على إزعاج الأمويين وعلى رأسهم مروان من وادى ذى خشب القريب من المدينة قبل وقعة الحرة . ولعل فى ذلك مايكشف ، من بعض الوجوه ، عن موقف الأحوص من خصومة أهل المدينة لبنى أمية ، وأنه لم يكن يحس شيئا من هذه الخصومة .

وقد رجع الأحوص بعد جلد ابن حزم له وتشهيره به يعلن محبته للأمويين وأنه يهواهم ، كما رجع يهدى إليهم أشعاره . روى الرواة أنه لما توفى سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز وفد عليه مع كثير ونصيب ، وامتنع عليهم عمر ، لأنه كان يكره أن يجيز على الشعر ، ولكنه عاد فأذن لهم ، وأنشده الأحوص قصيدة بديعة يقول فيها :

رأيناك لم تعدل عن الحق يَمْنَةً
ولا يَسْرَةً فعلَ الظلوم المجادلِ
ولكنْ أخذتَ القصد جهدك كلَّه
وتَقْفو مثالَ الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا
ومن ذا يردُّ الحق من قول عاذلِ
ولولا الذى قد عوّدتنا خلائفٌ
غطاريفُ كانت كالليوث البواسلِ

لماوَخَدَتْ[١] شهراً برحْلِيَ جَسْرَةٌ[٢]
تَفُلُّ متون البِيد بين الرواحلِ
ولكنْ رجونا منك مثل الذى به
صُرِفنا قديماً من ذويكَ الأفاضلِ
فإن لم يكن للشعر عندك موضعٌ
وإن كان مثل الدرّ من قول قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه
سوى أنه يُبْنَى بناءَ المنازل
فإنّ لنا قُرْبى ومحضَ مودّةٍ
وميراثَ آباءٍ مَشَوْا بالمناصلِ
فذادوا عدوَّ السِّلْم عن عُقْر دارهم
وأرْسَوْا عمود الدين بعد تمايلِ

ويقول الرواة إن عمر أعطاه ثلاثمائة درهم[٣] . وعاد الأحوص إلى المدينة ، وكان ابن حزم لا يزال عليها . ويظهر أن الأحوص أخذ يسير سيرته القديمة ، فرفع الناس أمره إلى ابن حزم ، وكان صدره مُوغَراً عليه لكثرة أهاجيه فيه ، فكتب إلى عمر بأمره

---

(١) وخدت : أسرعت
(٢) الجسرة : الناقة السريعة
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٧ وما بعدها ، وانظر الأغانى طبع دار الكتب ٩/٢٥٦ وما بعدها .

فبعث اليه أن ينفيه إلى دهلك[١]. ونفاه ابن حزم واستمر هناك طوال خلافة عمر، ولم تنفعه قصائده الكثيرة التي يترضاه بها ويستعطفه، واستمع اليه يقول في إحدى هذه القصائد[٢]:

أيا راكباً إما عَرَضْتَ فبلِّغَن
هُدِيتَ أميرَ المؤمنين رسائلي
وقل لأبي حَفْصٍ إذا ما لقيته
لقد كنت نفّاعاً قليل الغوائل
أفي الله أن تُدْنوا ابن حزم وتقطعوا
عُرَى حُرُماتٍ بيننا ووصائلِ
وكيف ترى للعيش طيباً ولذةً
وخالك[٣] أمسى مُوثقاً في الحبائل
وما طمع الحزميُّ في الجاه قبلها
إلى أحدٍ من آل مروان عادلِ
وشَى وأطاعوه بنا وأعانه
على أمرنا من ليس عنا بغافلِ

---

(١) دهلك: جزيرة في بحر القلزم بينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا. وانظر في الخبر هنا الأغاني طبع دار الكتب ٩/٦٤. ويلاحظ أن الروايات مضطربة فيمن نفى الأحوص إلى دهلك هل هو عمر أو سليمان بن عبد الملك كما في الأغاني ٤/٢٤٦ ووفقنا بينها معتمدين في ذلك على شعر الأحوص نفسه، فجعلنا السليمان أمرا بالجلد وجعلنا النفي لعمر بن عبد العزيز.

(٢) أغاني ٩/٦٥ (٣) يشير إلى رحم بينهما.

وقد تحول فى بقية القصيدة يهجو ابن حزم ، ويعلن أنه رجا منه الصلح ، حتى إذا بلغ منه مايريد التفت إلى الشامتين به ، يعلن أن مثل هذه النكبة لاتفل من قوته وعزيمته . وهذه معان فيها شيء من القوة والصبر على البلاء الذى نزل به ، ولكن بجانبها أبيات وأشعار أخرى فيها تخاذل وتضرع إلى عمر أن ينقض ما أبرم فيه ، كأن يقول : (١)

هل انت أمير المؤمنين فإننى ... بودّك من ود العباد لقانعُ
متمِّمُ أجر قد مضى وصنيعة ... لكم عندنا أوماتُعَدّ الصنائعُ
فكم من عدوٍ سائلٍ ذى كشاحة
ومنتظرٍ بالغيب ما أنت صانعُ

ولم يغنه مثل هذا التضرع عند عمر ، ولاما أرسل اليه من أشعار أخرى ، وهى كلها تنحو هذا النحو من التوسل والتزلف بالرحم والقرابة ، واستمع إليه يقول فى قصيدة أخرى : (٢)

ألا صلةُ الأرحام أدْنَى إلى التُّقَى
وأظهر فى أكفائه لو تكرَّما
فما ترك الصُّنْع الذى قد صنعته
ولا الغيظ منى ليس جلدا وأعظما
وكنا ذوى قُرْبَى لديك فأصبحتْ
قرابتنا ثَدياً أجَدَّ (٣) مُصَرَّما

---

(١) أغانى ٩/٦٦ . (٢) أغانى ٤/٢٤٩ وقد ذكر أبو الفرج سببا آخر القصيدة.
(٣) الثدى الأجد : اليابس لا غذاء فيه .

وكنتَ وما أمّلتُ منك كبارقٍ
لوى قطره من بعد ما كان غَيَّما
وقد كنت أرجى الناس عندى مودّةً
ليالىَ كان الظنُّ غيباً مُرَجَّما
أعدّك حِرزاً إن جنيتُ ظُلامةً
ومالا ثَرِيّاً حين أحمل مَغْرَما
تدارك بعُتْبى عاتباً ذا قرابةٍ
طوى الغيظَ لم يفتح بسخْطٍ له فما

ولم ينفعه ذلك شيئا ، ولم يخلّ سبيله عمر . ويقال إن رجالا من الأنصار أتوا عمر فكلموه فيه ، وسألوه أن يعفو عنه ، فلم يقبل شفاعتهم، وقال والله لأردنه ما كان لى سلطان[1] . فمكث فى منفاه بقية ولاية عمر وصدرا من ولاية يزيد بن عبدالملك ، إذ كانت عنده جارية مغنية من صواحب الأحوص القديمات فى المدينة ،وهى حبابة، فأرسل اليها الأحوص بشعر يمدح فيه يزيد ، وتوسّل اليها أن تغنيه به ، حتى يعفو عنه ، فصنعت ، وغنته هذا الصوت :

أيّهذا المخبّرى عن يزيدٍ بصلاحٍ فداك أهلى ومالى
ما أبالى إذا يزيدُ بَقِى لى من تَوَلّت به صروفُ الليالى

وواضح أنه يعرّض فى البيت الثانى بعمر ، ويستبشر بولاية يزيد.

---

(١) أغانى ٤/٢٤٧ وما بعدها .

ولما سمع يزيد من جاريته الصوت قال من يقول هذا ؟ قالت الأحوص وهَوَنت أمره ، وكلمته فى أمانه فأمّنه [١] ، وكتب اليه بردّه وحمله اليه ، وأنفد اليه صلات سنية ، فلما قدم اليه أدناه وقربه وأكرمه ، ويروى الرواة أنه قال له يوما فى مجلس حافل : والله لولم تَمُتّ إلينا بحقّ ولا صهر ولا رحم إلا بقولك :

وإنى لأستحييكمُ أن يقُودنى إلى غيركم من سائر الناس مَطْمعُ

لكفاك ذلك عندنا ولم يزل ينادمه وينافس به حتى مات [٢] .

أصبح الأحوص شاعر يزيد المقرب منه ، وقد أخذ يرد له جميله وحسن صنيعه بقصائد عذبة بديعة ، لم تبق منها إلا بقايا ، احتفظ بها كتاب الأغانى . وهى تدل على إخلاصه لسيده الذى رد اليه حريته . ولم يكتف الأحوص بهذه المدائح وما قدم لمولاه ، فقد تعرض لخصومه يهجوهم ويُقذِع فى هجائهم ، وورطه هذا الهجاء فى بلاء كثير . روى صاحب الأغانى أن يزيد بن عبد الملك بعث حين قتل يزيد بن المهلب فى الشعراء ، يأمر بهجاء يزيد بن المهلب ، منهم الفرزدق وكثير والأحوص . فقال الفرزدق : لقد امتدحت بنى المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحدا ، وإنه لقبيح بمثلى أن يكذب نفسه على كبر السن ، فليعفنى أمير المؤمنين ، فأعفاه ، وقال كثير : إنى أكره أن أعرّض نفسى لشعراء أهل العراق إن هجوت بنى المهلب . وأما

---

(١) أغانى ٤/٢٤٩ .

(٢) أغانى ٩/٦٧ .

الأحوص فإنه هجاهم . ثم حدث أن بعث به يزيد بن عبد الملك إلى الجراح الحكمى وهو بأذربيجان ، وقد كان بلغ الجراح هجاء الأحوص بنى المهلب ، فبعث إليه بزق من خمر ، فأدخل منزل الأحوص ، ثم بعث اليه خيلا فدخلت منزله ، فصبوا الخمر على رأسه ، ثم أخرجوه على رءوس الناس ، فأتوا به الجراح ، فأمر بحلق رأسه ولحيته ، وضربه الحد بين أوجه الرجال والأحوص يقول : ليس هكذا تُضْرَبُ الحدود ! فجعل الجراح يقول : أجل ولكن لما تعلم . ثم كتب إلى يزيد بن عبد الملك يعتذر ، فأغضى له عليها [١] ، لما كان له من قوة العصبية هناك .

وعاد الأحوص إلى دمشق يجر أذياله . ويظهر أن حياته لم تطل بعد هذا الحادث كثيرا ، فنحن لا نجد له أخبارا مع من جاء بعد يزيد من الخلفاء ، ويقول الرواة إنه توفى بدمشق بعد مرض ألمَّ به [٢]

٢

غزل الأحوص

ليس من شك فى أن شعر الأحوص يعتبر صورة طريفة للشعر والفن فى المدينة أثناء العصر الأموى . والغزل هو أهم خطوط هذه الصورة وأكثرها بهجة ورُوَاء . وطبيعى أن يبرع الأحوص فى الغزل

---

(١) أغانى ٤/٢٥٥ وما بعدها .

(٢) انظر الأغانى ٤/٢٦٨ وخزانة الأدب للبغدادى ١/٢٣٢

لأنه كان متعة نفسه ومتعة أهل المدينة من حوله . وقد تحدثنا عن هذا الجانب قبلا، وصورنا كيف كان أهل المدينة أصحاب صبابة وغزل، وكيف كانوا يفتنون بالشعر الذى يقص خواطر العشاق والمحبين فتنة شديدة ، حتى عبادهم وزهادهم لم يبرءوا من هذه الفتنة .

واستطاع الأحوص أن يمدهم فى هذا الجانب بفيض لا ينضب من حكاية العشق والصبابة بالمرأة والإفصاح عن لواعج الحب وما يصيب به أصحابه من عذاب ووصب ، بل قل مايصيب به أصحابه من سقم ، كلما أرادوا أن يشتفوا منـــه زادوا سقما على سقم ، ولعل ذلك ما جعله يردد (١) :

إذا قلت إنى مُشْتَفٍ بلقائها ... فثُمَّ التلاقى بيننا زادنى سُقما

فاللقاء والقرب من صاحبته كل ذلك ينشر حوله جوا مريض الأنفاس، ولكنه مع ذلك جو فيه لذة لا توصف . وقد كان الأحوص يشعر بذلك شعوراً متأصلا فى ذات نفسه ، ولعله من أجل ذلك كان يقول (٢) :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى
فكُنْ حجراً من يابسِ الصَّخْرِ جَلْمَدَا

فالحياة فى رأى الأحوص هى العشق ، ومن لم يعشق ينبغى ألا يعتبر نفسه حيا ، لأن الشعور بالحياة ينقصه ، وما الحياة بدون عشق؟ إنها تصبح ، فى رأيه ، ظلاما خالصا ، بل إنها تفقد الإنسان حسه ، وتجعله حيوانا شديد الغباوة ، بل حجرا من الصخر شديد القساوة .

---

(١) أغانى ٤/٢٦٦ وما بعدها . (٢) أغانى طبع بولاق ١٣/١٥٨

الأحوص إذن من الشعراء الغزلين الذين يتعمق العشق أفئدتهم لأنهم يؤمنون بأنه نعيم الدنيا إن خلت من أشعته انطفأت فيها بهجتها الحقيقية، وأطبق الظلام من كل جانب . ليست الحياة فى رأى الأحوص شيئا مذكورا إن هى خلت من العشق ، ولقد كان يقول ذلك فى إيمان عميق ، ولذلك كان يعلن دائما أنه لن ينسى حبه حتى يوم الحشر يوم تبلى السرائر [١] :

ستَبْقى لها فى مُضْمَرِ القلب والحشا
سريرةُ حُبٍّ يوم تُبْلى السرائرُ

حبه إذن لن ينتهى بموته ، بل سيحشر معه ، ولن ينساه فى هذا اليوم يوم الروع والفزع الأكبر ! واستمع إلى هذا البيت الذى يصور حقيقة العاشق وما يعتريه من كرب الوجوم حين يلقى صاحبته [٢] :

فما هو إلا أنْ أراها فُجَاءةً
فأبْهَت حتى ما أكادُ أجيبُ

فهو يعبر تعبيرا دقيقا عن لحظة المفاجأة وما يصحبها من حيرة فى نفس العاشق حتى لينعقد لسانه . ولعل أجمل ما نظمه فى هذا الباب تلك المقطوعات التى ناجى بها صاحبته أم جعفر ، وهى سيدة من بنى خطمة من الأوس ، وكان يكثر فيها من التشبيب والغزل ، ومن شعره البديع فيها [٣] :

---

(١) أغانى ٤/٢٤٨ وخزانة الأدب ١/٢٣٣ . (٢) أغانى ٤/٢٤٧ .
(٣) أغانى طبع دار الكتب ٦/٢٥٥ .

لقد منعتْ معروفَها أمُّ جعفرٍ
وإنّى إلى معـــروفها لفقيرُ
وقد أنكرتْ بعد اعترافٍ زيارتى
وقد وَغِرَتْ فيها علىَّ صدور
أدُورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ
بأبياتكم ما درتُ حيث أدور
أزور البيوت اللاصقاتِ ببيتها
وقلبى إلى البيت الذى لا أزور
وما كنت زوّاراً ولكنَّ ذا الهوى
إذا لم يَزُرْ لابد أن سيزور
أزور على أن لست أنفك كلما
أتيت عـــدوّاً بالبنان يُشير

وهو يستهل هذه القطعة بأن أم جعفر تتدلل عليه وتتمنع، ويقول الرواة إن أخاها أيمن كان يتوعده ويتهدده، وإنه استعدى عليه والى المدينة فى خبر طويل ذكره صاحب الأغانى [1]. ولعل ذلك ماجعل الأحوص يتعلق بها ويشتد تعلقه، فيضع فيها شعراً كثيرا، إذ أحس فى حبها شيئا من الحرمان، وكان يحبها من أعماق نفسه، ولم يستطع لقاءها فاشتعل قلبه حبا. وزاده اشتعالا أنه كان لايجد سبيلا إلى رؤيتها،

---

(١) أغانى ٦/٢٥٤

فكان يزور البيوت اللاصقات ببيتها ، وكان يكثر من الدوران حول دارها ، لعله يشفى ما به من سقم وعشق ، ولكن أنَّى له الشفاء ، وأيمن يبادره العداء ، وتبادره هى بالجفاء ، بل بالتنكر والاستخفاء . ولقد تجالد يوماً هو وأيمن بسببها فأصلاه سياطا حامية[1] ، وكان ذلك سبباً - على ما يظهر - فى أنه ابتعد عن الدوران حول بيتها ، وقد ذهب يعبر عن ذلك فى تذلل لها وضراعة ، يقول[2] :

وإنى لآتى البيت ما إن أحبه
وأكثر هجر البيت وهو حبيبُ
وأُغْضى على أشياء منكم تسوءنى
وأُدْعى إلى ما سَرَّكم فأجيب
أبثّكِ ما ألقى وفى النفس حاجةٌ
لها بين جلدى والعظام دبيبُ
لك الله إنى واصلٌ ما وصلْتنى
ومُثْنٍ بما أوليْتنى ومُثيبُ
وآخذ ما أعطيت عفواً وإننى
لأزْوَرُ عما تكرهين هَيُوبُ
فلا تتركى نفسى شَعاعاً فإنها
من الحزن قد كادت عليك تذوبُ

فقد تعوّد أن يهجر بيتها ، أو بعبارة أدق ، البيوت اللاصقات ببيتها .

---

(١) أغانى ٥/٢٥٤ .
(٢) أغانى ٦/٢٥٧ .

عوّده ذلك أيمن وسياطه ، ومع ذلك فهو لا يزال يذكرها ، ويغضى على ما تصنعه هى وما يصنعه أيمن ، رجاء أن تمن عليه بلقاء أو نظرة ، وكانت امرأة عفيفة ، وسيدة شريفة ، وكان ذلك حرياً أن يدفع الأحوص عنها ، ولكنه استمر فى غزله واستمر يطلب إليها كما نرى هنا أن تصله وأن تعطيه ولو عفوا ، وما كانت تعطيه شيئا ، بل لقد جعلته يوما يشهد أمام الناس أنه لا يعرفها . روى صاحب الأغانى أنه لما أكثر الأحوص من ذكرها جاءت منتقبة ، فوقفت عليه فى مجلس قومه ، وهو لا يعرفها فقالت له : اقض ثمن الغنم التى ابتعتها منى ، فقال : ما ابتعت منك شيئا ، فأظهرت كتابا قد وضعته عليه ، وبكت وشكت حاجة وضُرّاً وفاقة ، وقالت : ياقوم كلموه ، فلامه قومه ، وقالوا اقضِ المرأة حقها ، فجعل يحلف أنه ما رآها قط ولا يعرفها ، فكشفت وجهها وقالت ويحك ! أما تعرفنى فجعل يحلف مجتهدا أنه ما يعرفها ولا رآها قط ، حتى إذا استفاض قولها وقوله ، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار ، وكثر لغطهم وأقوالهم ، قامت ، ثم قالت : أيها الناس ، اسكتوا ثم أقبلت عليه ، وقالت : ياعدو الله صدقت ! والله مالى عليك حق ولا تعرفنى ، وقد حلفت على ذلك ، وأنت صادق ، وأنا أم جعفر ، وأنت تقول : قلت لأم جعفر وقالت لى أم جعفر فى شعرك ، فخجل الأحوص وانكسر عند ذلك [1] .

---

(١) انظر أغانى ٦/٢٥٨ .

وأكبر الظن أن الأحوص لم يكن محظوظا عند جرائر المدينة ، لا عند أم جعفر ولا عند غيرها ، ولعل ذلك ما جعله يعرض عن الجرائر جملة فيقول[١]:

ثنتان لا أدنو لوصلهما ... عِرْسُ الخليل وجارةُ الجنبِ
أما الخليلُ فلستُ فاجعَه ... والجارُ أوصانى به رَبِّى

ولسنا ندرى أكان يقول الأحوص ذلك عن إخلاص ونية صادقة ، أو كان يقوله ساخراً مزدريا للجرائر جميعا ؟

ولكن إذا كان الأحوص مكروها أو منبوذاً عند جرائر المدينة فقد كان محبوبا عند الإماء من مغنيات المدينة اللائى يغنين فى نواديها الموسيقية ، وكان محظوظا خاصة حظوة ممتازة فى دار جميلة ، إذ كان الشاعر الذى يعطى هذه الدار ما تغنى فيه من شعر وغزل . وليس ذلك فقط ، بل لقد كان يعشق ما فى الدار من مغنيات ويتخذ منهن خدينات وعشيقات له ، وكأنه كان عاشقا للجمال أين حَلّ أو تصور ، لا يهمه ان تكون المرأة التى يتغنى بها عربية ، إنما يهمه أن تكون جميلة بارعة الحسن ، ولا يعنيه بعد ذلك شيء منها ، لا من تاريخها ولا من ماضيها . وهنا يفترق الأحوص فى غزله من شعراء الحجاز الذين نعرفهم ، سواء شعراء البادية أو شعراء الحاضرة ، أما شعراء البادية فقد كانوا يتغزلون بنساء بدويات من مثل عَزّة وبُثَيْنَة وليلى ، وأما شعراء الحاضرة فقد كانوا يتغزلون بالنساء الجميلات من الحاضرة ، وكانوا يختارونهن من

(١) أغانى ٤/٢٦٤

العرب ، وقلما نجد شاعراً يتغنى بقينة أو أمة، ولنضرب لذلك مثلا عمر ابن أبي ربيعة زعيم الغزالين فى مكة ، فإنه كان يتغزل فى الحواج من العربيات ، وكانت صواحبه اللائى أكثر من الغزل فيهن قرشيات من مكة ، فالثريا ونعم وزينب كلهن قرشيات مكيات ولكن ارجع إلى ما روى صاحب الأغانى للأحوص من غزل فستجد أكثره فى هؤلاء المغنيات من الإماء الأجنبيات اللائى كن يغنين فى المدينة من أمثال جميلة والذلفاء وسلامة وعقيلة العقيقية .

والأحوص حين يتغزل فى هؤلاء المغنيات لا يتغزل عابثا على نحو ما يتغزل عمر بن أبى ربيعة ، ولكنه يتغزل فى صدق ، فهو يحبهن حبا عميقا يتغلغل إلى ذات نفسه . ويظهر أنه تعلق أول الأمر بجميلة ، إذ يقول صاحب الأغانى إنه كان معجبا بها ، وكان لا يكاد يفارق منزلها إذا جلست[١] ، ومن شعره فيها وقد غنت فيه[٢] :

وإن يَقُلِ الناسُ لى عاشقٌ فأين الذى هو لم يَعْشَقِ
ولم يَبْكِ نُوْيًا على عَبْرَةٍ بداء الصَّبابةِ والمَعْلَقِ

فهو يعلن عشقه لجميلة وأنه مريض منها بداء الصبابة ، وجميلة تعجب به وبشعره وتغنيه فيه، ويغنيها فيه معبد[٣] وغيره من المغنين والمغنيات الذين يغنون فى دارها . ومن شعره فيها أيضا قوله[٤] :

---

(١) أغانى طبع دار الكتب ٨/٢٣١ (٢) نفس المصدر ٨/١٨٤ .
(٣) نفس المصدر ٨/٢٠١ (٤) أغانى ٨/٢٣٢ .

وبالقفر دارٌ من جميلةَ هَيَّجَتْ
سوالفَ حبٍّ فى فؤادك مُنْصِبِ
ترى العينُ ما تهوَى وفيهـا زيادة
من الحسنِ إذ تبدو ومَلْهَى لِمُلْعِبِ

وقد قال يونس : ما لها صوت أحسن من صوتها فى هذا الشعر ، وقال : أنا أغنيه فتعجبنى نفسى ، ويدخلنى شىء لا أعرفه من النخوة والتيه[1] . وهذا نفسه ما كانت تشعر به جميلة صاحبة الصوت وصانعته ، وهل من ريب فى أنها كانت تشعر أثناء أدائها له بمودتها للأحوص ، كما كانت تشعر بشىء من التيه ، فهذا أهم شعراء المدينة يتعلق بها وينظم فيها كما ينظم ابن أبى ربيعة بمكة فى الشريفات من النساء والفتيات الغَزِلات .

ولم يتعلق الأحوص فى دار جميلة بصاحبة الدار وحدها ، بل لقد تعلق بكثير من المغنيات عندها . وقد تحدثنا فى غير هذا الموضع عن كثرة ما كان عندها من الإماء المغنيات ، وكان الأحوص يتنقل بينهن جميعا ، يتغزل فيهن ، ويعلن عشقه لهذه اليومَ ، ولتلك غَداً ، واستقر عشقه ، على ما يظهر عند ثلاث ، هن : الذلفاء وعقيلة وسلامة ، وفى الذلفاء يقول[2] :

إنما الذِّلْفَاءُ همِّى فَلْيَدَعْنى مَنْ يَلومُ

(١) نفس المصدر ٨/٢٣٣ . (٢) أغانى ٨/٢٠٠ .

أحسنُ الناسِ جميعاً حين تمشى وتقـــومُ
حبَّبَ الذلفاءَ عندى منطق منهـــا رخيمُ
أصِلُ الحبْل لترضى وهى للحبـل صَرُوم
حبُّها فى القلب داء مُستَكِنٌّ لا يَرِيمُ

وهكذا كان الأحوص يحب المغنية من المغنيات ، فيرى أنها كل همه فى الحياة، وأنها أحسن الناس جميعا حين تمشى ،وحين تقوم ، وحين تنطق ، وحين تغنى . ونحن لا نرتاب فى أن دار جميلة أتاحت له أكبر حظ ممكن من الاتصال بهؤلاء النساء ، يبتغى عندهن ما يملأ حسه ونفسه من متعة بالجمال والحسن ، إذ كان هؤلاء المغنيات من أجناس مختلفة . وإنَّ تغنى الأحوص بهن ليكشف عن ناحية مهمة فى نفسه ، وهى أنه كان أكثر شعراء المدينة أو قل شعـراء الحواضر الحجازية شجاعة فى الافصاح عن دخائله وما يطوى فى فؤاده ، وهو لذلك يتغزل فى هؤلاء الإماء ، ولعله كان يفضلهن على النساء الحرائر ، فذهب يفصح عن ذلك فى حرية وصراحة .

وأكبر الظن أن الأحوص اندفع فى ذلك أيضا بعامل رغباته فى الشذوذ على أذواق معاصريه ، فإذا هو يختار لغزله هـذا الموضوع الجديد من الإماء والقيان ، وهو يختاره محبا له مؤثرا ، إذ كان يجد فى هؤلاء القيان والإماء من الصبابة والهوى والغزل ما لا يجده فى النساء الحرائر المتحفظات ، وكان يتغزل فيهن كما يريد ويهوى غزلا عفيفا وغزلا إباحيا مكشوفا، لاحرج عليه فى ذلك، ولا لائم يتلومه، لا أيمن

ولا غير أيمن ، واستمع اليه يقول فى عَقِيله العقيلية [١] :

يا للرِّجال لوَجْدِك المتجـــدِّدِ
ولما تُؤَمِّل من عَقِيلةَ فى غَدِ
ترجو مواعِدَ ، بَعْثُ آدمَ دونَها
كانت خَبَالاً للفؤاد المُقْصَدِ
هل تَذْكرين عَقِيلُ أو أنساكِهِ
بَعْدى تَقَلُّبُ ذا الزمانِ المُفْسِدِ
يومى ويومَك بالعَقِيقِ إذ الهوى
منّا جميعُ الشملِ لم يتبـــدَّدِ
لى ليلتانِ فليلةٌ معسولةٌ
ألْقى الحبيب بها بنجم الأسعُد
ومَريحةٌ [٢] همّى علىّ كأنّنى
حتى الصباحِ معلَّقٌ بالفَرْقَد

وليس غريبا أن يكون الأحوص صريحا فى غزله على هذا النحو فعهدنا به أنه لا يخفى شيئا فى دخيلة نفسه .

وأهم مغنية تعلق بها الأحوص وشغف بها حبا سلامة القس ، وقد فتن بها الناس على ما يظهر فى المدينة ، بل فى مكة أيضا حيث هام بها عبد الرحمن بن أبى عمار الجُشَمِىّ الذى لقب بالقَسّ لعبادته ،

(١) أغانى ٤/٢٥٩ (٢) تزع همه عليه : تسوقه إليه .

ولذلك سميت سلامة القس ، وله فيها أشعار طريفة [١] . وقد تحدثنا عنها فى فصل الغناء ، وكانت إحدى الجوارى اللائى تعلق بهن الأحوص ، بل اللائى أحبهن حبا مفرطا ، وكانت تبادله حبا بحب ، وفيها يقول [٢] :

أسَلام هل لمتيَّمٍ تنويل
أم هل صَرَمْتِ وغالَ ودَّك غولُ
لا تصرفى عنى دلالك إنَّه
حَسَنٌ لدىَّ وإن بَخلْتِ جميلُ
أزَعَمْتِ أنَّ صبابتى أكذوبةٌ
يوماً وأنَّ زيارتى تَعْليلُ

وفى البيت الأخير ما يدل على أنها كانت تقول له إنك محب غير صادق ، فأنت رجل تحب كل من فى الدار ، دار جميلة ، تحب صاحبة الدار وقد أحببت الذلفاء وعقيلة العقيقية ، وأحببت غيرهما ، فأنت لست محبا صادقا ولا صاحب صبابة صادقة ، إنما أنت رجل غزل تغازل النساء والإماء جميعا ، لا تفرق بين واحدة وأخرى . ويظهر أنها كانت تكثر عليه من الدل ، فقلما أتاحت له ما يريد من بهجة اللقاء ، ومن أجل ذلك كان يكثر من توددها واستعطافها والتذلل لها كأن يقول [٣] .

---

(١) أغانى ٣٣٤/٨ .
(٢) نفس المصدر ٣٣٧/٨ .
(٣) نفس المصدر ٣٣٨/٨ .

أسلامُ إنك قد ملكتِ فأسجحِى
قد يَملك الحرُّ الكريم فيُسجِحُ
مُنّى على عانٍ أطلتِ عَنَاءَهُ
فى الغُلِّ عندك والعُنَاةُ تُسَرَّح
وإذا شكوتُ إلى سَلامَةَ حُبَّها
قالتْ أجِدٌّ منك ذا أم تَمزَح

فهى دائما تتشكك فى حبه، وتتهمه بأنه إنما يريد اللعب والعبث، بل لعله يريد المزاح وتزجية الفراغ، ومن ثم كان يعلن لها دائما فى شعره أنه لا يستطيع سلوا عنها، بل إنه ليبلل يديها بدموعه، واستمع إليه يقول (١):

يا دِينَ (٢) قَلبِك منها لستَ ذاكرها
إلا ترقرق ماءُ العينِ أو دَمَعَا
أدعو إلى هجرها قلبى فيتبعنى
حتى إذا قلت هذا صادقٌ نَزَعَا
لا أستطيع نزوعاً عن محبَّتها
أو يَصنَعَ الحبُّ بى فوق الذى صنَعا
كم من دَنِىٍّ (٣) لها قد صرت أتبعه
ولو سلا القلب عنها صار لى تبعا

---

١) أغانى ٤/٢٩٩ وما بعدها. (٢) الدين هنا: الداء.
(٣) الدنى: التافه الوضيع

وزادنى كلفاً فى الحب أنْ منعتْ
وحَبُّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنِعَا

وهكذا كانت سلامة تكثر من التمنع على الأحوص، فيزداد شغفه بها وتعلقه، ويكثر من شعره فيها، وكانت تغنى بنفسها هذا الشعر فتحسن فيه إحسانا شديدا.

روى صاحب الأغانى أن الأحوص وابن قيس الرقيات الشاعر المكى اجتمعا عندها، فغنتهما على البديهة بشعر لهما جميعا فيها، فأحسنت فى شعر الأحوص بأكثر مما أحسنت فى شعر ابن قيس الرقيات، فقال ابن اقيس الرقيات: أحسنت يا سلامة والله وأظنك عاشقة للأحوص فقال له الأحوص: ما الذى أخرجك إلى هذا قال: حسن غنائها بشعرك، فلولا أن لك فى قلبها محبة مفرطة ماجاء صوتها هكذا حسنا على هذه البديهة، فقال له الأحوص: على قدر حسن شعرى على شعرك هكذا حَسُنَ الغناء به، وما هذا منك إلا حسد، فقالت سلامة: لولا أن الدخول بينكما يوجب بغضتة لحكمت بينكما، فقال الأحوص: أنت من ذلك آمنة، فقال ابن قيس الرقيات: كلا! قد أمنت أن تكون الحكومة عليك، فلذلك سبقت بالأمان لها (١).

وطبيعى أن تحسن سلامة فى غنائها بشعر الأحوص لأنها من جهة تغنى فى شعر عاشق لها، ومن جهة أخرى تريد أن تثبت تفوقها فى غنائها بشعره على زميلاتها الأخريات اللائى يتغزل بهن ويتغنين فى

(١) أغانى ٣٣٧/٨

غزله . وقد حدث أن اشترى يزيد بن عبد الملك سلامة فازداد شغف الأحوص بها وأخذ يرسل لها بأشعاره ، ويروى الرواة أنها كانت تغنى فيها يزيد مولاها ، ومما غنته فيه [١] :

عاودَ القلبَ من سَلاَمَةَ نَصْبُ ... فلعينيَّ من جَوَى الحبِّ غَرْبُ
ولقد قلتُ أيها القلبُ ذو الشو ... قِ الذى لا يحب حُبَّكَ حبُّ
إنه قد دنا فِراقُ سُلَيْمَى ... وغَدًا مطلب عن الوصل صَعْب

فهو يبكى سلامة على البعد ، وهو يحس لها بين جوانحه بحب لا يماثله حب ، وهو يشعر أنها فرّت من يده هذه المرة ، ولن يستطيع لقاءها ولا وصلا . والطريف أنه يعلن هنا أنه لا يوجد محب يحب كما يحب هو ، فهو إذا أحب ازداد كلفه وولعه وبالغ فى حبه إلى أقصى غاية ممكنة ، فهو يحب جميلة ، ويحب أم جعفر ، ويحب الذلفاء ، ويحب عقيلة ، ويحب سلامة ، وكلما تذكر واحدة منهن خيل إليه أنه لم يحب أحدا مثلها ، ومن يدرى لعله كان يحب أخريات وراءهن لم تسجلهن أشعاره فى كتاب الأغانى . ونحن نظن أنه كان يحب حبابة أيضا التى اشتراها يزيد هى الأخرى من المدينة ، وقد سَعَتْ قبل صاحبته سلامة إلى إصدار العفو عنه من سيدها يزيد كما مر آنفا . غير أن سلامة على ما يظهر — هى التى شغفته حبا ، فقد أكثر من الشعر فيها ، وأكثر من تدلهه ، كما أكثر من تحسره على فراقها ، ومن أجمل ما يروى

---

(١) أغانى ٨/٣٤٠ .

له فى بيان لهفته عليها بعد خروجها من المدينة قوله[١] :

ضوءُ نارٍ بدا لعينك أم شَبَّـــتْ بذى[٢] الأَثْل من سَلامةَ نارُ
تلك بين الرِّياض والأثْل والبَا ناتِ منّا ومن سَلامةَ دار
وكذاك الزمانُ يذهب بالنَّا سِ وتَبْقى الرُّسومُ والآثارُ

لم يبق للأحوص من سلامة ما يتحسسه ويرفع الطرف فيه ويخفضه سوى الرسوم والآثار ، فهى كل ما بقى له .

وأكبر الظن أنه انطبعت فى أنفسنا الآن صورة غزل الأحوص فهو يتغزل فى الإماء والجوارى من مغنيات المدينة ، وهو يحسن فى ذلك ، ويأتى بالطريف البديع الذى يعجب معاصريه ، ويروقهم ، وقد تخصص بهذا الموضوع وأشاعه . وإذن فالغزل بالإماء والجوارى ليس ظاهرة عباسية محدثة فى الشعر العباسى عند بشار وأصحابه كما ظن بعض المعاصرين ، وإنما هو ظاهرة أقدم من ذلك ، هو ظاهرة أموية قبل أن يكون ظاهرة عباسية ، أو قل هو ظاهرة حجازية قبل أن يكون ظاهرة عراقية .

٣

مدائح الأحوص وأهاجيه :

من يقرن مدائح الأحوص فى بنى أمية إلى مدائح جرير والفرزدق

---

(١) أغانى ٩/١٣٢ .
(٢) موضع قرب المدينة .

والأخطل يشعر بفروق أساسية بين النوعين من المدائح ، فمدائح الأحوص أسهل وأقرب إلى اللغة المألوفة من مدائح الفرزدق وصاحبيه، وهو من هذه الناحية يتميز تميزا واضحاً .

ليست مدائح الأحوص فى بنى أمية مدائح طنانة ، وهو حتى إن استطاع أن يصنع بعض المدائح الطنانة ، فإنه لا يستطيع أن يطرد ذلك فى كل مدائحه، إذ كثيراً ما تخرج بعض نماذجه فيها عن الصورة العراقية التى تعتمد على البناء الضخم ، إلى صورة حجازية متحضرة ، فيها أثر الغناء والموسيقى الجديدة . فالأحوص شاعر من نوع آخر غير الذى نعهده عند جرير والفرزدق والأخطل ، شاعر يعتمد فى حياته على أن يعيش فى دور الغناء بالمدينة ، وهو يصنع الشعر لهذه الدور من لغة مألوفة ، وقد تسرب ذلك إلى مدائحه ، فإن من يقرأها يلاحظ أن لغتها قريبة إلى اللغة المألوفة ، وهى ظاهرة يلاحظها كل من يقرأ شعر هذا العصر فى الحجاز ، ويقرنه إلى شعر العراق عند جرير والفرزدق وأمثالهما ، فهو أقرب لغة وخواطر ومعانى إلى نفوس الناس . ولسنا أول من يلاحظ هذه الظاهرة على شعر الأحوص فقد لاحظها من قبل شاعر عاصره ، وهو الفضل بن العباس اللهبى ، إذ تعرض له يوماً ، وهو ينشد شعره ، وتلومه بأنه لا يحسن استخدام الغريب فى الشعر (١) ، وفات الفضلَ أنَّ عصر الغريب انتهى على الأقل عند الأحوص وغيره من الغزلين فى الحجاز ، وهو لم ينته عند الأحوص فى غزله

---

(١) أغانى طبع بولاق ٣/١٥

فقط ، بل انتهى أيضا فى ضروب شعره الأخرى من مديح وغير مديح ، واستمع إلى هذه الأبيات يقولها فى يزيد بن عبد الملك[١] .

كريمُ قريشٍ حين يُنْسَبُ والذى
أقرَّتْ له بالملك كَهْلاً وأمْرَدَا
وليس وإن أعطاك فى اليوم مانعاً
إذ عُدْتَ من أضعاف أضعافه غَدَا
أهان تِلادَ المال فى الحمد إنَّه
إمامُ هُدًى يَجْرِى على ما تَعَوَّدَا
تَشَرَّف مجدًا من أبيه وجدِّهِ
وقد ورِثا بنيانَ مجدٍ تَشَيَّدا

لم يكن الأحوص يستخدم اللغة الغريبة فى مدائحه ، بل كان يستخدم لغة عادية قريبة إلى لغة الغزل الذى يصنعه ، وكأنه كان يريد لهذه المدائح أن تشيع على ألسنة الناس فى عصره ، وأن تصبح شبيهة بهذا الغزل الغنائى الذى يغنى فى دور اللهو والموسيقى بالمدينة ، حتى تذيع ، بل حتى تكون صالحة لأن يغنيها المغنون ، وقد كانوا يغنون فعلا مدائحه فى بنى أمية[٢] .

ونحن نحس فى الواقع عند الأحوص بتطور واسع يصيب قصيدة المديح ، فقد أخذ أصحابها فى الحجاز يحاولون أن يقتربوا فى لغتها من

---

(١) نفس المصدر ٤/٢٥٠ .
(٢) أنظر الأغانى ١/٢٩٧ وكذلك ٤/٢٥٠ .

الناس حتى تصلح للغناء ، فتستقبلها آذان الجماهير كما تستقبل مقطوعات الغزل ، وهم من أجل ذلك يستخدمون فيها نفس اللغة الشعبية التى يستخدمونها فى الغزل حتى يمكنوا لها فى نفوس الناس . واستمع إلى هذا الشعر يقوله الأحوص أيضا فى يزيد بن عبد الملك[١] :

من يكن سائلاً فإن يزيدا ... مَلِكٌ من عطائه الإكثارُ
عمّ معروفُه فعزّ به الدّيـ ... ـن وذلّت لمُلْكِه الكفار
وأقام الصّراطَ فابتهج الحـ ... ـقّ منيرًا كما أنار النهار

وليس من ريب فى أن هذا شعر خفيف على اللسان والأذن جميعاً ، وهو من أجل ذلك أقرب إلى ذوق من يستمعون إلى غزليات الأحوص وغيره من شعراء الحجاز ، وهو أيضا أقرب إلى ذوق من يغنون فى أشعارهم من المغنين والمغنيات .

لم تكن قصيدة المديح عند الأحوص يراد بها أن تنشد بين أيدى الخلفاء ، بل كان يراد بها أن تغنى فى سمرهم ، يغنى فيها المغنون والمغنيات عندهم ، كما يغنى فيها المغنون والمغنيات عند الشعب نفسه . ومن هنا كنا لا نعجب حين نجد هذه القصائد تختلف فى لغتها عن لغة القصائد الأخرى عند جرير والفرزدق والأخطل ، فهؤلاء لم يصنعوا شعرهم وهم يفكرون أن يطلبوا إلى المغنين والمغنيات مثل حبابة أو معبد ن يغنوا فيه أثناء سمر الخلفاء على نحو ما كان يطلب الأحوص[٢] .

كانت قصيدة المديح عند الأحوص قصيدة غنائية بالمعنى الدقيق

---

(١) أغانى ٤/٢٥١ (٢) نفس المصدر ٤/٢٥٠ .

فهى قصيدة يراد بها إلى أن تُصْحَبَ بالضرب على الآلات الموسيقية ولعل هذه الغاية عند الأحوص هى التى أعدت قصيدة المديح لتطور واسع فى موسيقاها ، فإن من يدرس موسيقى الشعر الغنائى وتطورها فى الحجاز يلاحظ أنها تعدلت ، وتجزأت، كما لاحظنا فى غير هذا الموضع، وقد أخذ ذلك يتسرب فيما بعد إلى قصيدة المديح وغيرها من الشعر التقليدى بحكم أن من كانوا يصنعونه كانوا يساهمون فى صنع الشعر الغنائى على نحو ما نلاحظ الآن عند الأحوص .

على كل حال كانت مدائح الأحوص تخالف — من بعض الوجوه — مدائح جرير والفرزدق فى لغتها ، وفى موسيقاها ، إذ كانت موسيقاه هو أكثر صفاء بحكم اندماجه فى الأوساط الموسيقية بالمدينة ، وقد أعده ذلك ، كما أعد غيره من أصحاب الشعر الغنائى الخالص ، أن يستخدموا فى شعرهم التقليدى الأوزان السهلة كالخفيف والرمل وما إلى ذلك ، بل لقد أخذوا يستخدمون الأوزان المجزأة والمعدلة . ولم يظهر أثر ذلك واضحاً فى العصر الأموى ولكنه ظهر فى وضوح أثناء العصر العباسى .

وإذا كانت مدائح الأحوص تخالف إلى حد ما مدائح جرير والفرزدق والأخطل فى لغتها وصفاء موسيقاها وما يَقْتَرِح أحيانا على نفسه من أوزان ينظم فيها ، فكذلك كانت أهاجيه تخالف أهاجيهم إذ لم تكن تعتمد على أيام العرب القديمة وحروبهم تَقَصُّها على نحو ما نعرف فى نقائض جرير والفرزدق أو نقائض جرير والأخطل ، إنما كانت تعتمد على هجو الشخص نفسه وتقبيحه بصورة تتصل به .

لم تكن قصيدة الهجاء عند الأحوص تستمد موضوعها من التاريخ ومن سيرة القبائل القديمة ، إنما كانت تستمد موضوعها من الشخص المهجو نفسه . ونحن نغلو حين نسميها قصيدة ، فلم يترك الأحوص فى الهجاء قصيدة بالمعنى المعروف إلا نادرا ، إنما كثرة ما تركه مقطوعات قصيرة وأبيات مفردة .

وهجاء الأحوص من هذه الناحية شبيه بهجاء العصر العباسى الذى نقرؤه عند بشار وحماد عجرد مثلا ، فهو لا يستعين على هجاء خصمه بقصيدة محبوكة الأطراف ، وإنما يعمد إلى البيت والبيتين أو الأبيات القليلة فيهجوه بها هجاء مقذعا .

ولعل فى هذا النوع من الهجاء ما يلفتنا إلى ما حدث فى شعر الحجاز وأنه أصبح شعراً شعبياً فى جميع جوانبه ، فالشاعر حين يصنع غزلا لا يعمد إلى القصائد الطويلة التى لا يأتى الإنسان إلى آخرها حتى ينسى أولها . وهو كذلك حين يهجو لا يهجو بقصيدة طويلة قلما تحفظ ، إنما يهجو ببيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، حتى تحفظ ، وتدور على جميع الألسنة .

ولم يتعلق الأحوص بهجاء شخص فى المدينة كهجاء ابن حزم الذى جلده ونفاه إلى دهلك ، ولكن يكاد هجاؤه فيه يعد مفقودا ، لولا بعض أبيات رواها صاحب الأغانى ، وربما كان من أسباب ذلك أن المغنين أبوا أن يغنوا للأحوص فى أهاجيه فيه ، لأنه كان بلى المدينة ، وكان

قاسياً فى ولايته لها ، شديدا حازماً ، فخافوه ، ومن شعره فيه[١] .

أقولُ وأبصرتُ ابنَ حزم ابن فَرْتَنَى
وُقوفاً له بالمَأزِمَين[٢] القبـــائلُ
تُرَى فَرْتَنَى كانت بما بلغ ابْنُهَا
مُصَـدِّقةَ لـو قال ذلك قائـلُ

والفرتنى الأمة بنت الأمة . وإن فيما بقى من أهاجيه فى غير ابن حزم مايدل على شدة لذعه ، وبعد كيده ، فى الهجاء ؛ فمن ذلك أنه لما تعرض له الفضل بن العباس اللهبى يقول إنه لايحسن الغريب ، فكر ماذا يرد عليه ، ثم ذكر أن جده أبو لهب وأن جدته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ، فقال توا[٣] :

ما ذاتُ حَبْـلٍ يراها الناس كلُّهمُ
وَسْطَ الجحيم ولا تَخْفَى على أحَدِ
كلُّ الحبال حبـال النـاس من شَعَرٍ
وحَبْـلها وَسْـط أهل النـارَ من مَسَـدِ

وعلى هذا النحو كان الأحوص يبلغ أحيانا بأبياته القليلة فى الهجاء مبلغ أصحاب القصائد الطويلة ، قصائد النقائض . ويقول الرواة إنه هجا رجلا من الأنصار ، فاستعدى عليه الفرزدق يهجوه له ، ويرد عليه هجاءه ، فأبى ، وكذلك أبى جرير ؛ لما كانا يعلمان من مقدرته فى الشعر والهجاء[٤] .

---

(١) أغانى ٤/٢٣٧ .
(٢) المأزمان : جبلامكة .
(٣) أغانى ١٥/٣ .
(٤) نفس المصدر ٤/٢٠٣ .

وكما يمتاز هجاء الأحوص بقصره يمتاز أيضاً بقرب لغته وأنه أدنى إلى اللغة العادية ، فتلك صفة عامة فى شعره ، وقد كان يعممها فى هجائه ، حتى يبلغ مايريد من العنت بمن يهجوه ، والتشهير به .

٤

منزلة الأحوص بين شعراء عصره

إذا أخذنا ننظر فى الشعراء الذين عاصروا الأحوص وجدناهم ينقسمون قسمين كبيرين : أصحاب الشعر التقليدى من مديح وهجاء . وكان موطنهم العراق ، وأصحاب الشعر الغنائى من غزل ونسيب وما يتصل بهما ، وكان موطنهم الحجاز . وإذا حاولنا أن نوازن بين القسمين وجدنا من الناحية التاريخية ، كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، أن أصحاب الشعر الغنائى يأخذون فى التفوق أثناء هذا العصر على أصحاب الشعر التقليدى ، بحيث لا نصل إلى أواخر العصر ، حتى يتم لهم التفوق نهائياً .

ولكن هل يتيح لنا ذلك أن نضع أصحاب الشعر الغنائى جميعا من مثل الأحوص فى منزلة تعلو منزلة أصحاب الشعر التقليدى ؟ وبعبارة أخرى هل يتيح لنا ذلك إن حاولنا أن نضع طبقات للشعر فى العصر الأموى أن نجعل فى أعلى هذه الطبقات أصحاب الشعر الغنائى ؟ .

إن من يرجع إلى طبقات ابن سلام التى وضعها لشعراء هذا العصر

والتى يسميها طبقات الإسلاميين[١] يجده يضع فى الطبقة الأولى من هذه الطبقات جريرا والفرزدق والأخطل . ومعنى ذلك أنه هو وغيره من اللغويين فى عصره كانوا يرون تقديم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الشعر الغنائى . ونحن نخالفهم فى هذا الحكم من جميع الوجوه ، بل لعلنا نعكسه عكسا تاما ، فنذهب إلى قصر الطبقة الأولى على شعراء الحجاز من أصحاب الشعر الغنائى ، فهؤلاء هم الشعراء الممتازون حقاً الذين كانوا يعبرون أولا عن روح عصرهم وحياتهم التى يحيونها ، ثم هم الذين جددوا فى موسيقى الشعر العربى ، وفى لغته ، وأيضاً فإن شعرهم كاد أن يكون شعراً شعبياً يجرى على جميع الأفواه والألسنة .

نحن إذن نخالف ابن سلام وغيره من اللغويين فى تقديم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الشعر الغنائى ، ولعلهم إنما اضطروا إلى ذلك لأنهم كانوا لغويين ولم يكونوا يبحثون فى الشعر عن القيم الفنية من حيث هى ، وإنما كانوا يبحثون عن الشاهد والمثل ، وكانوا يجدون فى نماذج الشعر التقليدى مدداً لا ينضب من الأمثال والشواهد على اللغة وغريبها فى اللفظ والتعبير ، فانساقوا من ذلك إلى تفضيل أصحاب الشعر التقليدى ، ووضعوا أشهرهم فى الطبقة الأولى من الشعر الإسلامى .

وينبغى ألا ننساق معهم فى هذا التفضيل لأن الحاجة اللغوية لا تهمنا ، وإنما تهمنا الحاجة الفنية من حيث هى . ومن أجل ذلك كنا نخص الطبقة الأولى من الشعر الإسلامى أو الأموى بأهم من

---

(١) ابن سلام ص ٧٥ .

نظموا فى الشعر الغنائى من أهل الحجاز ، ولا نصنع صنيع ابن سلام حين أخرهم فى طبقاته ، وهل تدرى أين وضعهم ؟ لقد وضعهم — أو قل وضع كثرتهم — فى طبقة متأخرة هى الطبقة السادسة [١] بين طبقاته العشر ، ولم يقدم أحداً منهم سوى كُثَيِّر فقد وضعه فى الطبقة الثانية [٢] .

ونحن لا نستطيع أيضا أن نجعل كثيراً خير شعراء الحجاز من الغزلين ، أو قل أصحاب الشعر الغنائى ، ولعل ابن سلام ، إنما قدمه ، لأنه بدوى يجد عنده من غريب اللغة مالا يجده عند شعراء الحواضر أمثال الأحوص وابن أبى ربيعة .

وقد وضع ابن سلام الأحوص فى الطبقة السادسة وقرنه بابن قيس الرقيات وجميل ونصيب ، وتأخر به فى مكانه بعد ابن قيس ونصيب ، ويظهر أنه تأثر فى تأخره به أيضا مسائل لغوية ، لأنه كان عالما لغويا ، ولم يكن يهمه أن يقدم الشاعر من وجهة معنوية أو وجهة موسيقية . وقد علل أبو الفرج لتأخر ابن سلام به تعليلا آخر ، فقال : « والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنىء الأخلاق والأفعال أشد تقدماً من ابن قيس ونصيب عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة [٣] » . وكأن أبا الفرج لم يقبل حكم ابن سلام على الأحوص ، فهو فى رأيه ينبغى أن يتقدم كل زملائه الذين ذكرهم ابن سلام فى الطبقة السادسة .

---

(١) ابن سلام ص ١٣٧ .
(٢) نفس المصدر ص ١٢١ .
(٣) أغانى ٤/٢٢٣ .

ولعل فى ذلك ما يدل على أن خلق الأحوص شوهه عند بعض النقاد وإنه لينبغى أن نفرق دائماً بين خلق الشاعر وشعره ، لأن الشعراء ليس من وظيفتهم أن يحققوا مثلنا الاخلاقية العليا فى الحياة فالشعر شىء ، والخلق شىء آخر .

الأحوص إذن ينبغى أن يوضع فى المكان الأول من شعراء الطبقة السادسة التى خص بها ابن سلام شعراء الحجاز ، ولكن هل يتأخر كُثَيِّراً أو يتقدم عليه ، أما ابن سلام فقدم كُثَيِّرا على شعراء الحجاز عامة ، وهو حكم بنى على أسباب لغوية فيما نظن ، أما إذا تركنا اللغة ولم نحتكم إلى ذوق اللغويين فإننا نقدم على كثير عمر بن أبى ربيعة شاعر مكة ، كما نقدم عليه الأحوص شاعر المدينة من حيث ما أتجاه هذا العصر فى الشعر الغنائى وما مدّا به المغنين والمغنيات فى الحجاز .

أما عمر فقد كان يقول فيه جرير إن أنسب الناس المخزومى[1] ، ولم يتجاوز عمر بشعره الغزل والنسيب إلى موضوع آخر ، فهو من هذه الناحية يعتبر أهم شاعر فى الحجاز وقف نفسه على الشعر الغنائى الذى يغنيه ابن سريج وابن مسجح وابن محرز والغريض فى مكة ، كما يغنيه المغنون فى المدينة من مثل معبد وجميلة .

وأما الأحوص فكان شاعر المدينة فى النسيب والغزل غير مدافع ، وكان يحقق لنفسه فى هذا الجانب تفوقا ممتازا حاولنا أن نصفه

---

(١) أغانى ١/٧٦ .

آنفا ، ويكفى لبيان تفوقه على كثير فى غزله أن عزة نفسها كانت تفضله عليه ونقول له : الأحوص ألين جانباً منك فى شعره وأصعَرُ خداً للنساء وأشعر منك[١] .

وأكبر الظن أننا نستطيع أن نصل من ذلك إلى أن الأحوص كان من أصحاب المنزلة الأولى للشعر والفن فى عصره ، وهو إذا قُرِنَ حقا فينبغى أن يقرن إلى عمر بن أبى ربيعة ، فهما أهم من ألف أدوار الشعر الغنائى فى هذا العصر ، وقد كان عمر شديد الصلة بالمغنين فى مكة بينما كان الأحوص شديد الصلة بالمغنين والمغنيات فى المدينة . ومن يقرأ الأغانى يحس أن عمر كان له قصب السبق فى تأليف هذه الأدوار . على أنه ينبغى أن نحتاط فى الحكم لأن ديوان الأحوص مفقود ، ولأن ما قدمناه عنه يدل على أنه كان أكثر حرية من عمر ، إذ كان يتغزل فى الإماء بينما يتغزل عمر فى الحرائر .

ومهما يكن فإن عمر والأحوص يعدان فى الطبقة العليا من شعراء العصر الأموى ، ولسنا نستطيع أن نحكم بتفوق أحدهما على صاحبه حكما واضحا لأن أدوات هذا الحكم ناقصة ، على الأقل فيما يتصل بالأحوص .

ولعلنا لا نتجاوز الحق حين نضعهما جميعا فى الطبقة الأولى من أصحاب الشعر الغنائى ، ثم نعمم فنجعل هذه الطبقة أولى طبقات كل الشعراء الذين أنتجهم العصر الأموى من غنائيين وتقليديين .

---

(١) أغانى طبع بولاق ١١/٢٣ .

نحن إذن نخالف ابن سلام فى تقديم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الشعر الغنائى ، لأننا نحكم الفن نفسه . وليس من شك فى أن الشعر العربى أثرَى عند أصحاب الشعر الغنائى ثروة فنية عريضة ، فقدأثرى من حيث الموضوع والمعانى ، وأثرى من حيث اللغة والأسلوب ، وأثرى أخيراً من حيث صحيفة الألحان ، فإن أصحابه هم الذين غيروا فى طبقات الأوزان الشعرية تبعا للتغيير فى طبقات الغناء وما عاصرهم من موسيقى .

خاتمة

١

خلاصة الكتاب

حاولت فيما تقدم أن أرسم الخطوط المختلفة للشعر الغنائى فى المدينة أثناء أزهى عصورها الأدبية . وقد لاحظت أن المدينة قبل هذا العصر اتخذها النبى صلى الله عليه وسلم داراً لهجرته ، واتخذها الخلفاء من بعده مقراً لعاصمة الإمبراطورية العربية ، وقد صبَّت فيها حينئذ كنوز الأرض ، كما صبَّ فيها الموالى من فرس وروم وشآميين ومصريين ، وهيأ ذلك كله لحضارة جديدة فيها ، أخذ زخرفها يتمائل منذ عصر عثمان .

وما يلبث عصر الخلفاء الراشدين أن يذهب وإذا المدينة تدخل فى حياة جديدة من جميع النواحى السياسية والاجتماعية والحضارية . أما من حيث الناحية السياسية فقد فقدت زعامتها على العالم الإسلامى وأصبحت ولاية تابعة لدمشق . وقد كانت تقف طوال هذا العصر الأموى فى صفوف المعارضة لبنى أمية ، ومن أجل ذلك كان الأمويون ينصرفون عن أهلها فلا يستخدمونهم فى وظائف الدولة الكبرى إلا فى القليل النادر .

وهذا من حيث الناحية السياسية ، أما من حيث الناحيتان الاجتماعية

والحضارية فإن المدينة أخلدت إلى حياة مترفة لاهية وقد تكونت فيها طبقة من الشبان الفارغين العاطلين ، وذهبت هذه الطبقة العاطلة تملأ أوقاتها باللهو واللعب ، بل قل بالمجون والإثم ، وساعدها على ذلك ما كانت فيه من ثراء ، ورثته عن آبائها الذين فتحوا الأمم الأجنبية ، وأيضاً فإن الأمويين أغدقوا عطاياهم عليهم هناك ، حتى يصرفوهم عن التفكير فى الدولة والحكم .

شباب عاطل ، وثراء وحضارة ، وترف ورقيق لايحصى . هذه هى المدينة فى العصر الأموى ، وقد وصفت ذلك كله ، وانزلقت منه أبين كيف أن أهلها تعلقوا بضرب من الملاهى ، كان له أثره الواسع فى أدبهم وشعرهم ، وأقصد الغناء وما صحبه من موسيقى ، فإن أهل المدينة فتنوا به فتنة شديدة لم يسلم منها شاب ولا شيخ ولا ماجن ولا عابد .

وقد نهض الموالى من المغنين والمغنيات بهذا الغناء نهضة واسعة ، بحيث أصبح فنا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، إذ تكونت نظريته نهائيا ، وعرفت له مصطلحاته وتقاليده ، التى نقرأها فى كتاب الأغانى ، وأخرجت المدينة حينئذ كثرة وافرة من المغنيات والمغنين الذين خلد اسمهم على مر الزمن ، مثل طويس ، وسائب خاثر ، ومعبد ، وعزة الميلاء وجميلة ، وسلامة ، وغيرهم كثير .

واقترنت هذه النهضة لفن الغناء بنهضة كبيرة لفن الشعر الغنائى ، ونقصد الشعر الذى يغنى ويصحب بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية ، وهو شعر يدور فى أغلبه على الحب ووقائعه . وقد عنيت

بدرس هذا الشعر الغنائى فى المدينة درسا مفصلا ، ولاحظت أنه كان فى أكثر جوانبه غزلا مكشوفا ، وخاصة أن الشعراء هناك كانوا يعنون بالغزل فى الإماء من المغنيات، فكانوا يصرحون بكل مايجول فى أنفسهم لايتحرجون ولا يتأثمون من شىء .

كان غزل المدينة إباحياً فى جملته ، ولكن ليس معنى ذلك أنه انساق كله فى هذه الوجهة ، فقد كان هناك غزل عفيف نجده عند عُبَّاد المدينة وفقهائها ، من مثل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحد فقهاء المدينة السبعة ، وقد وقفت وقفة قصيرة عند غزله ، وصورت كيف كان غزلا عفيفاً فيه مثالية ، وفيه طهر وتسام عن المتع الجسدية .

ولاحظت أن هذا الغزل الغنائى فى المدينة كان يفترق من النسيب فى العصر الجاهلى مفارق واسعة . وأقصد هذا النسيب الذى كان يوضع بين يدى القصائد والذى كان يتحدث عن الأطلال والدمن ، والذى كان لايتخذ غاية ، إنما يتخذ وسيلة إلى غرض الشاعر من قصيدته ، فهو أشبه مايكون بمقدمة موسيقية يسوقها الشاعر أمام غايته . أما فى هذا العصر فقد أصبح هو الغاية ، إذ لا يضعه الشاعر بين يدى قصيدته إنما يضعه كقصيدة مستقلة قائمة بنفسها ، ولم تكن هذه القصيدة تؤلف من عشرات الأبيات ، بل قد تؤلف من أبيات قليلة لاتتجاوز عدد أصابع اليد إلا فى النادر ، أما الكثرة فهى أصوات أو قل كما نقول الآن أدوار تؤلف من أجل الغناء . وكان المغنون والمغنيات لايغنون فى أبيات كثيرة ، فقد يغنون فى البيتين أو فى الثلاثة ، ومهما أطالوا

فلن يزيدوا فى غنائهم عن عشرة أبيات ، بل كان منهم من لا يغنى إلا فى البيتين . من أجل ذلك كله لم يكن من الضرورى للنموذج الغنائى أن يكون طويلا ، بل لقد كان أكثره يكون قصـــيرا قصرا يبلغ البيتين والثلاثة .

كان هذا الشـعر الغنائى فى الواقع مقطوعات وأدوارا ، ولم يكن قصائد بالمعنى القديم للقصـائد . وليس هذا كل ما يلاحظ عليه فإنه أيضا كان يتخذ من اللغة المألوفة للناس ، ومن هنا كان أكثر من الشعر التقليدى بضربيه المـديح والهجاء قرباً منهم ، فهو من محيطهم ، محيط لغتهم ، ومحيط حياتهم ، وما فيها من حوادث الحب ووقائعه .

وقد كان طبيعيا لهذا الشعر الغنائى أن يتأثر الغناء والموسيقى التى كانت ترافقه لسبب بسيط ، وهو أن المغنين أدخلوا نغماً وألحانا أجنبية كثيرة ، وأحدثوا نظرية عربية جديدة للغناء ، مما جعل الشعراء الغنائيين يحوِّرون ويجزئون فى شعرهم وأوزانه تحت تأثير هذه النظرية . وقد عرضت لذلك كله ، ولاحظت أن موجة الشعر الغنائى كانت حادة حدة عنيفة فى هذا العصر ، وأنها أخذت تطرد كل ماتلقاه من موجات الشعر التقليدى ، لا فى الحجاز ، بل فى الشام والعراق أيضا .

ولما تمَّ لى تصوير ذلك كله وقفت عنـد الأحوص أكبر شـاعر غنائى فى المدينة لهذا العصر ، فتحدثت عن حياته أولا ، ثم انتقلت إلى غزله ، فكشفت عن خصائصه فيه ، وما كان من حريته وتشبيبه الصريح

فى الإماء وتعلقه بهن ، ثم تركت غزله إلى مدائحه وأهاجيه ، فتحدثت عن لغة هذه المدائح والأهاجى وموسيقاها ، وما كان من أثر الغناء فيها . ولم ألبث أن خرجت إلى بيان منزلته بين شعراء عصره . وقد ذهبت أدعو إلى اتخاذ مقاييس جديدة غير مقاييس القدماء فى الحكم على الشعراء فى العصر الأموى حتى نستبين حقيقة فن الشعر حينئذ ، ونتعرف على أهم الشعراء الذين تطوروا به فى معانيه وألفاظه وموضوعاته وأوزانه . ومن أجل ذلك رفضت حكم ابن سلام فى طبقاته ، إذ قدم أصحاب الشعر التقليدى على أصحاب الشعر الغنائى ، وقد جعل الأحوص ، وأكثر الغزلين ، فى الطبقة السادسة من طبقات الإسلاميين ، وهم الذين نسميهم الأمويين .

والحق أن أصحاب الشعر الغنائى فى هذا العصر هم الخليقون أن يوضعوا فى الطبقات الأولى من الشعر الأموى أو الإسلامى . وليس من شك فى أن الأحوص يوضع فى المرتبة الأولى من هذه الطبقات فهو شاعر المدينة الغنائى فى هذا العصر غير مدافع .

٢

تعليق وتذييل

تحدثنا عن صحف الشعر الغنائى فى المدينة وما ارتبط بها فى العصر الأموى من لهو وترف وغناء ومجون أحيانا . وليس معنى ذلك

أن المدينة لم يكن بها فى ذلك العصر سوى هذه الصحف ، فقد كانت هناك صحف أخرى بأيدى كرام برزة كانت كل خطوطها وألوانها زهداً وورعا وتقوى وعبادة .

والإنسان لايقرن المجموعتين من الصحف بعضهما إلى بعض حتى يحس أن المدينة كانت بلدة المتناقضات حقا ، فبينما ترى فيها إغراقا فى اللهو والترف ترى إغراقا فى التقوى والورع ، وكأن الناس هناك كانوا يعيشون على طرفين متقابلين : فإما لهو فى أبعد آماده ، وإما ورع فى أبعد آماده .

كانت المدينة إذن داراً للزهد والعبادة ، كما كانت داراً للهو والغناء وما يدبج فيهما . وإن من يتصفح طبقات ابن سعد يجد كثرة غامرة من العباد والنساك عاشوا فيها أثناء هذا العصر . وكان على رأس هؤلاء النساك والعباد عبد الله بن عمر المتوفى سنة ٧٣ هـ ، وكان يرفض الحياة المترفة ، ويتخذ لنفسه حياة زاهدة ، وصور ذلك ابن سعد فى طبقاته تصويرا طريفا ، فذكر عنه أنه كان يترك الحمّام يعدّه من رقيق العيش ، وقال إنه لم يكن يلبس الخزّ ، ولا كان يشرب فى أقداح مفضضة ولا من قوارير ، إنما كان يشرب فى أقداح من عيدان ، ولم يتوضأ فى الصُّفْر ، إنما كان يتوضأ فى أقداح الخشب ، ولم يكن يستخدم الطيب ، وكان يكسر النرد . وروى ابن سعد أنه أُعجِبَ يوما بجارية عنده فأعتقها ، وزوجها مولى له ، كما روى أنه كان مرتحلا ، فسمع

صوت زمارة راعٍ فوضع إصبعيه فى أذنيه ، وعدل براحلته عن الطريق [١] .

ولم يكن ابن عمر وحده هو الذى يتخذ لنفسه حياة خشنة زاهدة، بل لقد كان هناك كثيرون يحيون حياته مثل أبى هريرة ، وكان يقول ما وجع أحب إلى من الحمى لأنها تعطى كل مفصل قسطه من الوجع ، وإن الله يعطى كل مفصل قسطه من الأجر [٢] ، ومر بمروان بن الحكم وهو يبنى داره فقال : ابْنِ شديدا وأمِّلْ بعيدا ، وعش قليلا ، وكل خَضْباً ، والموعد الله [٣] . وبجانب أبى هريرة وابن عمر نجد كثيراً من الصحابة والتابعين يختارون لأنفسهم هذه الحياة الزاهدة .

ولم يكن الزهد أغرب ما فى حياة هذه الجماعة ، بل كان النسك والعبادة والخوف من الله وخشية لقائه . روى الرواة عن أبى هريرة أنه بكى فى مرض موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أما إنى لا أبكى على دنياكم هذه ولكنى أبكى لبعد سفرى وقلة زادى ، أصبحت فى صعود مهبطة على جنة ونار ، فلا أدرى إلى أيهما يسلك بى [٤] . ووراء أبى هريرة وجدت جماعة من البكائين الذين يبكون ليل نهار [٥] ، كما

---

(١) انظر ترجمة عبد الله بن عمر فى طبقات ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٥ وما بعدها . (٢) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثانى ص ٦١ .
(٣) البيان والتبيين ٣/١٠٣ .
(٤) ابن سعد الجزء الرابع القسم الثانى ص ٦٢ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٨٨ وكذلك ٣/١١٨ .

وجدت جماعة عاهدت الله أن تصوم الدهر مثل عبد الله بن حنظلة الذى كان يبيت فى المسجد ، وما كان يزيد على شربة من سويق يفطر عليها إلى مثلهـــا من الغد يؤتى بها فى المسجد ، وكان يصوم الدهر ، وما رئى رافعا رأسه إلى السماء إخبـاتا[١] .

وكما كان هناك جماعة من الصوامين أمثال ابن حنظلة كان هناك جماعة عاهدوا الله ألا يشهد الليل عليهم بنوم أبداً ؛ فهم يصلون ، وهم يكثرون من الصلاة ، حتى ليصلى بعضهم ألف ركعة ، على نحو ما كان يصنع على بن الحسين ، وقد حج خمسا وعشرين حجة[٢] راجلا . وكان من هؤلاء المصلين المكثرين من يلقب بالراهب لكثرة صلاته وعبـــادته[٣] . وكان منهم من يسجد فيطيل فى سجوده حتى إن العصافير لتسقط على ظهره تحسبه حائطا ، واشتهر بذلك محمد[٤] بن طلحة بن عبيد الله .

ويخيل إلى الانسان أن هؤلاء العباد قد خرجوا عن دنياهم وعن كل مايتصل بها حتى لقد يرث الشخص منهم ميراثا ، فيفرقه فى الناس ؛ كما صنع ابن عمر ؛ وكما صنع عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فقد باع أرضا ورثها بثمانين ألفا ، وأنفقها فى سبيل الله ، فقيل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً ، قال : أنا أجعل هذا المال ذخراً

---

(١) ابن سعد ٥/٤٨ . (٢) ابن عبد ربه ١/٣٦٩ .
(٣) ابن سعد ٥/١٥٣ . (٤) الحيوان للجاحظ طبع الحلبى ٥/٢٣٨ .

لى عند الله ، وأجعل الله ذُخراً لولدى[١] .

وفى كتب الأدب والتاريخ قصّص كثير يروى عن عباد المدينة ونساكها ، فمن ذلك أن سالم بن عبـــد الله بن عمر دخل مع هشام ابن عبد الملك البيت فقال له هشـام : سلنى حاجتك فقال له : أكره أن أسأل فى بيت الله غير الله[٢] : ومن ذلك مايروى عن الزهرى من أنه قارف ذنبا فاستوحش من الناس وهام على وجهه ، فقال زيد ابن على بن الحسين له : يازهرى لقنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شىء أشد عليك من ذنبك ، فقال الزهرى : الله أعلم حيث يجعل رسالته ! ورجع إلى أهله وماله وأصحـابه[٣] .

ولم يقف نسك هذه الجماعة عند نفسها ، فقد تجردت منهم طائفة لوعظ الناس، وكان على رأسها جماعة القصاص الذين يقصون فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد بدأ القصصَ فى المدينة تميم الدارى فى عهد عمر[٤]، واستمر من بعده ، واشتهرت جماعة به فى هذا العصر مثل عبيد بن عمير ، وكان يجلس إليه عبد الله بن عمر فكانت عيناه تهراقان بالدموع[٥] . ومن مشاهير القصاص فى المدينة مسلم بن جُنْدب ، وهو من قراء المدينة ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : من سره أن

---

(١) البيان والتبين ٣/٨٥ .
(٢) البيان والتبين ٣/٧٣ (٣) نفس المصدر ٣/١٠٠
(٤) الإصابة لابن حجر طبع مطبعة السعادة ١/١٩١ .
(٥) ابن سعد الجزء الرابع القسم الأول ص ١٠٩ .

يقرأ القرآن غضا فليقرأ على قراءة مسلم بن جندب [١] .

ولعل أهم واعظ عرفته المدينة فى العصر الأموى هو أبو حازم الأعرج وكان يقول : « نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت [٢] » .

أرأيت إلى ما فى المدينة من نسك وزهد ؟ . إن من يقرن حياة هؤلاء الزهاد والنساك إلى حياة الشباب الذى أترف ، والذى سقنا أحاديث مطولة عنه يعجب أن تكون المدينة بجمعا على هذا النحو المتناقضات ، فهذا عابد من كبار العباد يعيش مع ماجن من كبار المجان ، وربما كانا فى بيت واحد ، وربما كانا أخوين لأب وأم .

وليس هذا كل ما يلاحظ فى المدينة من تناقض ، فقد يكون الشخص الواحد نفسه متناقضاً ، فهو من جهة عابد ، وهو من جهة أخرى يقدر الغناء ويقدر الصبابة والغزل ، وإن لم يندفع إلى المجون على نحو ما لاحظنا سابقاً عند أبى السائب المخزومى ، وقد تقدم أنه كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ، ومع ذلك كان يفتن بالغزل والغناء فتنة شديدة ، وكأنهم لم يجدوا فى الغناء والغزل من حيث هما إثما ولا ما يشبه الإثم ، وهما فى الواقع لا يكونان إثماً إلا إذا اقترنا بما يخرجها إلى ذلك . روى المبرد أن مدنيا كان يصلى مذ طلعت الشمس إلى أن قارب النهار

---

(١) طبقات القراء لابن الجزرى طبع برجشتراسر ٢٩٧/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٩٨/٣ وانظر ٧٣/٣ ، ٨٠/٣ وابن عبد ربه ٣٦٩/١ وما بعدها

أن ينتصف ومن ورائه رجل يتغنى وهما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجل من الشرط قد قبض على المغنى ، فقال : « أترفع عقيرتك بالغناء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذه ، فانفتل المدنى من صلاته ، فلم يزل يطاب إليه فيه حتى استنقذه ، ثم أقبل عليه فقال : « أتدرى لم شفعت فيك ؟ » فقال : « لا والله ولكن إخالك رحمتنى » قال : « إذن فلا رحمنى الله » ، قال : « فأحسبك عرفت قرابة بيننا » قال : « إذن فقطعها الله » ، قال : « فليد تقدمت منى إليك » ، قال : « لا والله ولا عرفتك قبلها » ، قال : « فخبرنى » ، قال : « لأنى سمعتك غنيت آنفا ، فأقمت واوات معبد ، أما والله لو أسأت التأدية لكنت أحد الأعوان عليك [1] » .

ولم يكتف عباد المدينة بهذه المشاركة البعيدة من استحسان الغناء وأصواته ، بل لقد كان منهم من شارك فى صنع أصوات فى الغناء كعروة بن أذينة ، كما كان منهم من شارك فى شعر الصبابة والغزل كعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . ولعل فى هذا كله ما يتيح لنا أن نزعم أن المدينة كانت حقا فى هذا العصر الأموى بلدة المتناقضات ، فهى تجمع أروع صور الزهد والورع مع صور اللهو والغناء والغزل .

وبعد فإنى آمل أن تكون هذه الدراسة فاتحة لعناية النقاد بالشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية المختلفة حتى تنكشف صورة هذا الشعر وتطورها على مر العصور انكشافا تاما ؟ .

---

(١) الكامل للمبرد طبع أوربا ١/٣٩٤.

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة . . . . . ١ — ٥

الفصل الأول : المدينة . . . . . ١ — ٥١

(١) موقع المدينة ١
(٢) المدينة فى العصر الجاهلى ٤
(٣) المدينة فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين . . . ٩
(٤) المدينة فى العصر الأموى ١٩
(٥) الثراء والحضارة فى المدينة ٢٥
(٦) ترف أهل المدينة ٣٧
(٧) اللهو والملاهى فى المدينة ٤٤

الفصل الثانى : الغناء فى المدينة . . . . . ٥٢ — ٩٤

(١) الغناء فى المدينة قديم ٥٢
(٢) الغناء فى المدينة أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين . ٥٥
(٣) المدينة أهم مراكز الغناء فى العصر الأموى . . . ٦١
(٤) الغناء فى المدينة يصبح فنا له مصطلحاته وتقاليده . . ٦٨
(٥) أشهر المغنين فى المدينة : طويس ، سائب خاثر ، معبد ، ابن عائشة ، يونس الكاتب ، مالك الطائى ، عطرد . ٧٧
(٦) أشهر المغنيات : عزة الميلاء ، جميلة ، سلامة القس ، سلامة الزرقاء ٨٨

الفصل الثالث : الشعر الغنائى فى المدينة . . . . ٩٥ — ١٢١

(١) الشعر فى المدينة ٩٥
(٢) الشعر الغنائى فى المدينة ١٠٢
(٣) خصائص الشعر الغنائى فى المدينة ومميزاته ١٠٩
(٤) خصائص ومميزات موسيقية ١١٥

صفحة

الفصل الرابع : اتساع موجة الشعر الغنائى . . . ١٢٢ — ١٥٧

(١) الشعر الغنائى بين المدينة ومكة ١٢٢
(٢) فتنة أهل المدينة بالشعر الغنائى ١٢٩
(٣) فقهاء المدينة يساهمون فى الشعر الغنائى . . . ١٣٧
(٤) الشعر الغنائى يصبح شعرا شعبيا عاما ١٤٤
(٥) تفوق الشعر الغنائى على الشعر التقليدى . . . ١٥٠

الفصل الخامس : الأحوص أكبر شاعر غنائى فى المدينة ١٥٨ — ٢٠١

(١) نسب الأحوص وحياته وصفاته ١٥٨
(٢) غزل الأحوص ١٧٤
(٣) مدائح الأحوص وأهاجيه ١٨٩
(٤) منزلة الأحوص بين شعراء عصره ١٩٦

خاتمة . . . . . ٢٠٢ — ٢١٢

(١) خلاصة الكتاب ٢٠٢
(٢) تعليق وتذييل ٢٠٦

تصحيحات

ص	س	خطأ	صواب
٦	١٦	يذهب	تذهب
١١	٦	قام	فأقام
١٦	١٣	الناس إلى	إلى الناس
١٧	١٢	مختارا	مختارا
٣٩	٨	الصغبير	الصغير
٤٥	١١	يملأ ن	يملأون
٤٨	٦	مات مزة	مات مرة
٤٨	١٠	ولم	لم
٥٦	٢١	زالى	غزالى
٥٩	٥	المغنين	المغنين
٦٢	٧	ذنيها	أذنيها
٦٣	١٨	تلميبذ الطويس	تلميذاً لطويس
٨٨	١٤	هى أجل سيدة	هى سيدة
١٠٩	٢	وسقف	وسنقف
١٥٠	١٥	تلبس	تلبث
١٦٦	٧	بنسائهن	بنسائهم
١٧٣	٣	أنقد	أنقذ
١٨١	٢	الغزالين	الغزلين
١٨١	١٣	يعشقَ	يعشقِ
١٩٢	١٨	ن	أن

تالیف

DATE DUE

JAFET LIB.
4 - JAN 1993
JAFET LIB.
16 MAR 1993
JAFET LIB
[redacted]
Circulation Dept.
JAFET LIB
30 JUN 2008
Circulation Dept. 1
JAFET LIB
21 JUN 2012
Circulation Dept. 2

808.1:D27sA:v.1:c.1
ضيف ،شوقى
الشعر الغنائى فى الامصار الاسلامية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031773

808.1
D27sA
V.1